

الدكتور عبد الجليل شاذلي

مفكرات التَّيسِيرِ والإِسْلَامِ

حركات التبشير والإسلام
في آسيا وأفريقيا وأوروبا



معركة الينبؤ والاندلام



فاتحة الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

آمين

(صدق الله العظيم)

مركز التبشير والإسلام

حركات التبشير والإسلام
في آسيا وأفريقيا وأوروبا

الدكتور عبد الجليل سابي

كتاب يصف سباق الدعوة الإسلامية والتبشير المسيحي
ونشاط الدعوة الإسلاميين والمبشرين في أقطار العالم كله
والظروف التي لا بدت هذا السياق

مؤسسة الخليج العربية
ARABIAN GULF EST.

DL

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م



AL-KUTUB KHAYMA
AL-ARKHIV

١٦٥ شارع ٢٦ - الوتر - الكويت
٢٧٧٢١٢ - ٢٧٧٢١٢
٢٧١١٢

١ - تعريفاً :

هذا الكتاب امتداد وتكملة لأخيه «الإرساليات التبشيرية» فكلما الكتائين يتناول موضوعات تبشيرية يرتبط بعضها ببعض ، هناك تحدثت عن بداية التبشير منذ عهد السيد المسيح عليه السلام ، حتى عصرنا الحاضر ، وتحدثت في إيجاز عن نشأة المسيحية وتطورها ، وما غذيت به بعد المسيح من أفكار وفلسفات ثم عرضت المذاهب المسيحية وأشهر الإرساليات التبشيرية ، وتاريخ كل جماعة منها ، والنتج الذي تسلكه وما تدعو إليه .

وهنا أتحدث عن لقاء المسيحية والإسلام وسباقهما في ميدان الدعوة ، وقد كانت هناك مواجهة بين الديانتين منذ عهد رسول الله - ﷺ - حيث قدم عليه وفد من نصارى نجران لمناظرته ، وقد دعاهم إلى المباهلة فنكصوا^(١) ثم بدأ أول اتصال بين الديانتين في أطراف الجزيرة ، في حياة رسول الله ﷺ أيضاً في غزوتي مؤتة وتبوك .

وأول اتصال فعال واشتباك حرى كان على عهد الخليفة الأول أبى بكر إذ أرسل خالد بن الوليد إلى بلاد فارس ، وكانت مجوسية ، وكان بها كنائس وصابئة ومسيحية محرقة ، كذلك أرسل أحد عشر لواء إلى أرض الشام ، وتم فتح سورية وفلسطين على عهد عمر ، وأعطى كل من خالد بن الوليد وأبى عبيدة بن الجراح نصارى الشام عهداً ، ثم ظلت دعوة الإسلام تمتد بعد ذلك على ساحل البحر المتوسط ، وكان المسلمون يجنون في البلاد التي يدخلونها كنائس ، ومذاهب مسيحية ، بعضها ذو نشاط وبعضها في حال ركود ، واستمرت موجة الفتح والمد الإسلامى حتى انتهت إلى المحيط ، ثم عبر المسلمون مضيق جبل طارق إلى أسبانيا ، وكان بها نصارى ويهود ، وانتهى

(١) المباهلة من الاتيهال إلى الله ، وكان اتفاق النبي محمد والنصارى أن يخرجوا إلى الصحراء ،

وأن يتهلوا إلى الله أن ينزل لعمته وسخطه على الكاذب من الفريقين ، وسأق هذا الحديث بعد .

مد الفتح في أسبانيا عند جبال البرانس ، ودخلت صقلية وجنوب إيطاليا في حوزة المسلمين ، وكانت جزر البحر الأبيض قد فتحت منذ عهد معاوية ، ولكنها لم تدم إسلامية ، فأعيدت إلى حكم الرومان وديانتهم ، ثم فتحت ثانياً .

ومن الناحية الشرقية فتح المسلمون الآستانة على يد محمد الفاتح أواسط القرن الخامس عشر الميلادي . ثم دخل الإسلام بلاد المورة وامتدت فتوحات العثمانيين داخل القارة الأوروبية ، وتوقفت عند فينا عاصمة النمسا في تاريخ معروف .

أما في الجانب الشرق من الجزيرة العربية ، فلم تكن ثم سيادة للديانة المسيحية ولكن كان هنا وهناك كنائس للنساطرة ، واليعاقبة . وهكذا كان لقاء الديانتين وتسايقهما حتى الصين واليابان .

وفي هذا الكتاب حديث غير مطول يصف سباق الديانتين وأساليب كل منهما في دعوته ، والطريقة التي يدعوا بها . وفي نظري أن هذا الحديث هام جداً للدعاة ، ولأن يربطون أن يعرفوا مدى هذا السباق .

وأرجو أن أكون قد وفقت في التزام الحيدة والبعد عن التعصب . وأن يكون حديثي وصفاً صادقاً يضع الحقائق واضحة أمام القراء .

ومعظم هذه الموضوعات محاضرات ألقىت على طلاب الجامعة الأزهرية في كليات الدعوة وأصول الدين في القاهرة والمنصورة وطنطا ، وهامى ذى أمام الدعاة طلبة وغير طلبة ، تنبر الطريق لمن يريد أن يتوسع في بعض موضوعاتها . وأسأل الله العلي القدير أن يتقبل هذا العمل المتواضع وأن ينفع به إنه نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد قائد الدعاة ومرشدهم ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بطريقه .

عبد الجليل عبده شلبي

مصر الجديدة ١١ من ذى الحجة سنة ١٤٠٨ هـ

٢٥ من يوليو سنة ١٩٨٨ م

٢ - توطئة :

نذكر في هذا الكتاب كلمة عامة عن مواجهة كل من هاتين الديانتين للأخرى ، وما قام أمام الديانة المسيحية من عقبات قبل أن يظهر الإسلام ، ثم نستعرض أهم الأقطار التي يصطارع فيها الإسلام والتبشير المسيحي ، فنذكر بداية كل من الديانتين بها ثم موقف هذا الصراع الآن .

وكما رأينا من قبل^(١) بدأت الدعوة المسيحية في حقلين رئيسيين هما :
أورشليم (القدس) ، وروما . أما أورشليم فلأنها مقر الهيكل اليهودي ، وإليه حج المسيح وفيه ناظر خصومه ، وقام بتطهيره من جلوس الباعة والصارفة به ، وهو المعبد الرئيسي لليهود ، والمسيح واحد من أنبيائهم ، ورسائله الأولى هدايتهم إلى التوراة ، وبها كنيسة القيامة ، وأما روما فلأن كلا من بولس وبطرس انتقل إليها ولقى حتفه بها ، وهى مدينة مقدسة من قديم^(٢) ولم تلق المسيحية - كما رينا^(٣) - قبولاً من أباطرة الرومان ، ولما نالت استقراراً بعد اعتراف قسطنطين بها كان على دعائها أن ينشروها وأن يحلوها محل الوثنيات التي كانت سائدة ، وعاق نشرها أول أمرها ممانيت به من انقسامات وماترتب عليه من اضطهادات ، فأنفق دعائها طاقاتهم وجهدهم في حرب

(١) راجع : الإرساليات التبشيرية .

(٢) يرتبط تاريخ روما بأسطورة يدعى أنها وضعت بقصد توضيح اسم للمدينة وبيان قداستها ، وتقبلها الحكام وعملوا على تثبيتها وإشاعتها لما تضافى عليهم من قداسة وجلال ، وخلاصة الأسطورة أن توأمين أرضعتها ذئبة حتى شبا ، كان أحدهما يدعى روموس ، وقد مات والثاني يدعى رومولاس وقد عاش وأسس مدينة روما في نحو منتصف القرن الثامن ق م (٧٥٣) تقريباً ، وبداية سكان إيطاليا ترجع إلى سنة ١٥٠٠ ق م تقريباً ، فعندما كانت الجماعات الإغريقية تنحدر من سهل الدالوب إلى بلادها الحالية كانت القبائل الأخرى تتدفق إلى إيطاليا من شرق جبال الألب فأزاحوا سكانها واستقروا مكانهم في وسطها فاستقرت جماعة اللاتين جنوب نهر التيبر ، وعلى غير بعيد منها كان يوجد نهر نشأت بجانبه قرية لاتينية ، وسميت الجبال جنوبها « بلاتين » ثم كون السكان في السهل الذى بين الجبال سوقاً *Fassu* وكانت هذه السوق هى روما ، وفى سنة ٣٥٧ كانت قد أصبحت مدينة واكتسب سكانها قداسة لأنهم من سلالة رومولاس ابن الإله ، فظلوا مقدسين حتى ظهور المسيحية .

بعضهم بعضاً ، كل يهيمه أن يثبت صحة مذهبه وإبطال الآخر ، وكان اليهود حرباً عليهم منذ عهد المسيح نفسه ، وكان عددهم بين سكان الإمبراطورية الرومانية يقدر بنحو ٧٪ وكان نشاطهم ملحوظاً في حرب الدعوة والخط من شأن صاحبها ، أما الوثنيات العديدة التي كانت قد تأصلت بين الشعوب الأوروبية ، فكان أمرها أهون ، لأن الناس كانوا قد سمعوا خصوصاً رعايا الإمبراطورية الرومانية ، وقد قبل اليهودية قوم واختنوا وقبل المسيحية آخرون ولكن دعاية اليهود ودعوتهم كانت الأسبق ، وكانت عبادات الأسرار^(١) الشرقية قد غزت الدولة الرومانية ، وجذب الناس إليها ما في الوثنية من جفاف روحى ، وواجهت المسيحية في الغرب خصوماً عديدين ، منهم من جاهر بعدائها ومنهم من سد عليها الطريق .

والديانات الشرقية ديانات زراعة تقوم على العقيدة في موت إله الخصوبة ثم انبعائه بعد موته ، وكانت تقيم الحفلات وتقدم الطعام في بداية عيد الخصوبة ابتهاجاً بما تأتى به الأرض من نبات وما يشملها من خضرة وازدهار ، كما كانت تقام المآتم وتسفح الدموع في مناسبة موت الإله ، ولا تزال صورة من هذه المظاهر قائمة عند اليهود في أعياد الحصاد . وعيد أستير الذى يحتفى به الأوربيون في شهر مارس هو أيضاً امتداد لهذه التقاليد ، ويربط الكثيرون بين هذه الطقوس وبين صلب المسيح ودفنه ثم قيامه من مقبرته حسبما تصوره العقيدة المسيحية ، ويقول استيفن نيل أن ديانات الأسرار في الدولة الرومانية المتداعية خلال القرن الثانى كانت موازية للعقيدة المسيحية أو مصدرها^(٢) ، وكما ذكرنا في غير هذا الموضع لم يهتم الأباطرة الرومان بحرب العبادات الشرقية التى غزت بلادهم كما اهتموا بحرب المسيحية ذلك لأن المسيحية حرمت عبادة الأباطرة ، وكان اليهود يثيرون حول دعائها ما أثاروا حول المسيح نفسه من تم ، وقد قتل أكبر دعائها الأول - بولس وبطرس في روم ، وأيضاً كانت

(١) سميت بذلك لما بها من مؤثرات خفية .

(٢) P 28 - وانظر Mithras The Secret God. P 30

العقوبات تلاحق من يتبع هذا الدين ، ومشت الدعوة بطيئة وبين الطبقات الدنيا والأرقاء فقط وتعالى عليها النبلاء والأشراف^(١) وفي الثلاثة القرون الأولى استطاعت المسيحية أن تثبت أقدامها في الدولة الرومانية وأن تنثر بذورها في الأقاليم الأخرى ، حتى جاء القرن السادس وجد الإمبراطور تراجان في محو الآثار الوثنية وتحطيم معابدها - فبدأت دعوة المسيح تتمشى في أنحاء الغرب ، وفي هذا العصر ظهرت الدعوة الإسلامية وبعد هجرة رسول الله محمد ﷺ - تمشت دعوته بسرعة واتخذت لوناً سياسياً ، وحاربت الإمبراطورية الرومانية والفارسية ، واشتبكت مع الديانتين الساميتين اليهودية والمسيحية ، واستولى المسلمون فيما استولوا على الأراضي المقدسة لديهما ، وانتشر الإسلام بين أبنائها ، ومنذ ذلك التاريخ ظل الصراع مستمراً بين هذه الديانات ، ومنذ نشأت اليهود سنة ٧٠٠م كانت حربهم للإسلام تقوم على الدس وتدبير المكائد ، إذ لم يكن لهم دولة ولا جيش ، فلجأوا إلى طعن الإسلام عن طريق تشويه وإساءة تاريخه ونظمه ، أما المسيحية فكان لها تاريخ ومواقف مع الإسلام أوسع وأكبر ، ولكنها بعد أن أخفقت في حرب الإسلام حرباً مسلحة لجأت إلى ما لجأ إليه اليهود ، ولأن كلا من اتباع الديانتين الإسلام والمسيحية مكلف ينشر ديانته وهداية الناس إليها كان هناك سباق من الجانبين ، وعمل دائم على كسب أنصار أكثر ، واكتساب الآخرين إلى دينه ، ويتعدى الأمر ذلك إلى رغبة المسلمين في تحويل النصارى إلى الإسلام ورغبة النصارى في تحويل المسلمين إلى النصرانية ، وفي هذا السباق تتجلى قصة التبشير وأعمال المبشرين .

وليست أعمال اليهود ولا المستشرقين ولا أصابع الاستعمار بعيدة عن هذا الميدان فاليهود عدو للمسيحية والمسيح ولكنهم أكثر اهتماماً بحرب الإسلام ، والمستشرقون - كما هو معروف - مع المبشرين في صف واحد - والمستعمرون - كما رأينا في غير موقف - لا يرون ما هو أنكى عليهم من الإسلام ، وقد مروا على حربه وحتى بعد تقلص الاستعمار لا يزال العداء للإسلام قائماً .

(١) كان هذا في عهدها الأولى ثم أقدم عليها الأشراف أيضاً ، وقد أشاع الفيلسوف الألماني نيتشه فكرة اعتناق المسيحية من الطبقة السفلى وحدها فقلقه فيها الآخرون وقد بنا في غير هذا الموضوع أن بعض الكبراء والمحققين اعتنقوها أيضاً .

٣ - الخطوط العامة لتلاق الديانتين :

كان ظهور الإسلام وسيادته في الجزيرة العربية خلال القرن السابع الميلادي وكانت الديانة المسيحية بعد أن هدأت حدة الخلافات التي نشبت بين قوادها حول طبيعة المسيح - وبعد أن أمنت حرب الأباطرة الرومان قد أخذت تستأنف نشاطها في الغرب وفي الشرق ، وفي هذا الحقل أول اصطدام مع الإسلام .

ولد رسول الله - ﷺ - في سنة ٥٧١ م وتلقى أول وحي له سنة ٦١١ ولم يكن مثل هذا النبي ولا الرسالة التي نادى بها مما يعنى الكنيسة ولا يميز البابا في روما ولم يكن أيضاً مما يشغل بال الدولة الرومانية - التي أصبحت دولة مسيحية وبها الكنيسة الأم والبابا ذو القداسة ، ولكن في مكة وبين الوثنيين القرشيين كان هناك ارتباط بين دعوة الإسلام والدين المسيحي لموقف كل منهما ضد الأوثان . فلما انتصر الفرس على الرومان وأجلوهم عن سوريا ومصر فرح الوثنيون في مكة ، وأبدوا الشماقة للمسلمين ، ونزل في هذا قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْيَوْمَ الْقِيَامَ فِي الْأَرْضِ ، وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَافِلُونَ فِي بَضْعِ سَنِينَ ﴾ (١) .

وهاجر نبي الإسلام إلى المدينة سنة ٦٢٤ ، فقام احتكاك بينه وبين نصارى نجران وجاء وقد لمناظرته فيما أعلنه الإسلام نحو المسيح من أنه عبد الله ورسوله وليس إلهاً ولا ابن إله ، ولكن الوفد النجراني نكص عن المناظرة وعن المباحلة (٢) ثم كان لنبي الإسلام جهاد ومعارك مع قومه وأيضاً مع اليهود الذين

(١) السورة مكية ، وقد راى أبو بكر بن حلف على عشر قلائص - ثم زيدت المراجعة إلى مائة وضرب لقلب الروم أجل تسعة أعوام ، فلما هاجر أبو بكر كفله ابنه عبد الرحمن ، ولما خرج أبى إلى الحرب يوم أحد أعطى عبد الرحمن كفيلاً ، وغلِب الروم واستردوا أرضهم في العام السابع للهجرة - وقيل كان يوم الحديبية .

(٢) جاء هذا في سورة آل عمران آية ٦٠ وما بعدها - وكان اتفاقهم أن يخرج كل مع أنبائه -

كانوا بالمدينة وما حولها^(١) ، ولم يكن للمسيحيين صلة بهذا الجهاد ، وفي سنة ٦٢٨ كان صلح الحديبية الذى أراح المسلمين من المعارك الدامية التى استمرت نحو ستة أعوام ، فاتجه رسول الله - ﷺ - بدعوته إلى رؤساء القبائل العربية ، وأيضاً إلى الملوك ، وكان من العجيب المستغرب أنه بعث برسائل إلى رجال كبار من الحكام المسيحيين ، أرسل إلى هرقل إمبراطور الدولة الرومانية ، وإلى المقوقس حاكم مصر ، وكانت رسالته إلى هرقل عقب انتصاره على الروم وحضوره إلى بيت المقدس ليعيد الصليب الأعظم إلى مكانه فى كنيسة القيامة^(٢) .

وبعد أربعة أعوام من هذه الرسائل كان الجيش الإسلامى يغزو الدولتين الكبيرتين فى وقت واحد ، وفى سنة ٦٣٣ سقطت الحيرة - وهى مركز مسيحي فى أيدي المسلمين ، وفى سنة ٦٣٤ كانت موقعة اليرموك ، وفى سنة ٦٣٥ سقطت دمشق ، وكانت الترانيم الكنسية تتردد أثناء هذه المواقع وكانت الصليبان ترفع بأيدي الكهنة ، وكانت هذه الحروب شرقاً وغرباً لاتعملوا أن تكون نصراً للإسلام على المسيحية أكثر مما هى نصر للعرب على الروم .

= ونسائه إلى العراء ثم يتהלون إلى الله أن ينزل لنة على الكافر منهم ، فنكس نصارى نجران ، وخرج رسول الله - ﷺ - معه الحسن والحسين وفاطمة وعلى ، فقال ليس الوفد النجرانى ، تعلمون أن هذا الرجل مؤذى له ، ولئن تباهلنا ليصينا كلها وكلنا ، فغافوا ورجعوا .

(١) كان اليهود من بنى قريظة وبنى النضير وأحياء أخرى قد سبقوا الأنصار إلى الواحات الخصبة حول المدينة كما نزلوا بخير - ووقائعهم مع المسلمين معروفة .

(٢) كان القائد الرومانى هرقل رجل دين وحرب ، وقد ثار على سلفه فوكاس وتولى هو الحكم فانتصر على الفرس ، وكان كسرى - غداة انتصاره - قد أخذ الصليب الأعظم فوضعه فى حجرة خارج ليوانه وخشى إدخاله الإيوان - فلما استرده هرقل - أقسم ليحجن إلى بيت المقدس ماشياً ليعيد الصليب إلى مكانه ، وجعل رحلته منازل كان أمرها بصرى وفيها تلقى خطاب رسول الله - ﷺ - بدعوه للإسلام وكانت الغربة أنه يوم نصره ، واجتماع الجند والناس لهذه المناسبة ، وقد امتز هرقل لهذا الخطاب وتوقع زوال ملكه - وانظر حديثه فى باب الإيمان فى البخارى .

وكان من أخطاء هرقل أنه تورط فيما تورط فيه قسطنطين من قبل إذ أراد أن يقضى على الخلافات حول طبيعة المسيح فاستعان برجل لاهوتي يدعى سرجيوس وهو سورى من سلالة يعقوبية^(١) فقرر وحدة المشيئة في شخص المسيح بدلا من فكرة الناسوتية واللاهوتية ، ولم تلق الفكرة قبولا ، وكانت نتيجتها أن زادت مذهباً جديداً سمي المذهب الملكاني ، وعمل هرقل على إكراه الناس عليه ، فصادر الكنائس الأرثوذكسية ، وأيضاً معابد اليهود ليجعلها كلها كنائس ملكانية، وأصر السوريون على مذهبهم المونوفستي، وأصر المصريون على مذهبهم الأرثوذكسي وبقيت الكاثوليكية مهددة حتى في القسطنطينية نفسها، ومارس كل طقوسه سرّاً، وجهرّاً أحياناً، واشتد اضطهاد الإمبراطور وبالعنف في تعذيب مخالفيه ولم ينقذ المسيحيين من هذا كله إلا مجيء الإسلام وفتح المسلمين بلادهم ، فقد كان المسلمون عملاً بتعاليم دينهم ذوى تسامح لم يعرف في أى مكان في العصور الوسطى ، كما كان حكمهم ذوى عدل وديمقراطية مما جعل المسيحيين يقبلون على الإسلام ويدخلونه عن طواعية أفواجاً أفواجا وخسرت المسيحية أعداداً كبيرة من أبنائها زاد بهم الإسلام قوة وعدداً ، ولم تقف موجة الفتوح الإسلامية بل ، ظلت تمتد غرباً على ساحل البحر المتوسط حتى انتهت إلى المحيط ، ثم عبرت إلى أسبانيا ، وقبل أن يمضي قرن واحد بعد هجرة نبي الإسلام من مكة ، كانت الدولة الإسلامية قد شملت مساحة من الأرض والعالم أوسع مما شملت الدولة الرومانية في أقصى اتساعها^(٢) .

والفتوحات الإسلامية معروفة في جملتها ، وهى لم تقف نشاط التبشير المسيحي وتحول دون انتشار المسيحية فحسب ، بل أنقصت عدد المسيحيين ، بسبب الكثرة التى تحولت منهم إلى الإسلام ، ولهذا الانتصار وابتلاع الإسلام هذه الكثرة المسيحية ظل المسيحيون يحملون للإسلام أحقاداً لم يحمها تطاول

(١) كان بطريرك القسطنطينية في هذا الوقت ، وأراد تناسي المسألة الخلافية - مسألة الطبيعة والطبيعتين وتأكيد وحدة إرادته وإرادة الله ، وسمى المذهب المونوثليت Monothelite أعلماً من Mielema - أى الإرادة الواحدة .

(٢) أنظر تاريخ العرب لفيليب حى ص ٢٦٨ ، ٢٥٢ ت مبروك .

الأيام ، وجاءت أجيال لاتعرف ماعانى أسلافهم من ظلم ولا ماعمل لهم الإسلام من كف الظلم عنهم ، وظلوا يذكرون فقط استيلاء المسلمين على الأراضى المقدسة ، وإعلانهم أن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، وأن ولادته من غير أب لاتجعله إلهاً ولا إبن إله ، فكان على المبشرين المسيحيين أن يحتشدوا لصد الإسلام ويعلموا له مالا يحتشدون به أو يعدونه لحرب أى دين آخر .

ومع أن السيد المسيح ولد فى فلسطين وأعلن دعوته بها لم يستطع أن ينشرها بين كل أو معظم سكانها ، لأن اليهود كانوا حرباً عليه وعلى أتباعه ورسله من بعده ، ولكن ظل المسيحيون يحلمون باتخاذها مركز دعوتهم ، وهم يتربقون أيضاً أن ينزل المسيح بها ليقم مملكة تبدأ فى فلسطين وتشمل العالم كله ، وبفلسطين أيضاً كنيسة القيامة ، وبعد تشتيت اليهود على يد تيطس^(١) تنفست المسيحية الصعداء لولا ما منيت به من الانقسامات وحرب الكنائس والبطارقة بعضهم بعضاً ، ثم كانت مشكلة هرقل التى أزالها الإسلام وحل محلها فأصبحت بعض المدن فى الشرق مسلمة كلها ، وبعضها به أقلية مسيحية ، ثم كانت الحكومة حكومة إسلامية فكان مجال التبشير المسيحى فى الشرق الأوسط كله محدوداً ، واتجهت الإرساليات التبشيرية إلى جهات أخرى . وحاولت الحروب الصليبية أن تستخلص هذه الأراضى من المسلمين فباءت بفشلها المعروف ، وظل اليأس يستولى على نفوس المبشرين قروناً طويلة ثم استيقظ منذ عهد قريب ، ومن المؤسف حقاً أن رجال التبشير المحدثين حين يهجمون على الإسلام ويحاربونه لا يعتمدون على منطق ولا دليل ، بل يلجأون إلى الشتائم والانهامات .

(١) تيطس قائد روماني أبوه هو القائد فسياسيان ، الذى عهد إليه نرون بإطفاء ثورة اليهود

٦٧ - ٦٨ م فدمر حصوناً وهدم قرى ، ولكن نرون مات قبل حصار أورشليم ، وصار فسياسيان إمبراطوراً فقام ابنه بضمورها سنة ٧٠ م .

يقول المبشر الكبير إستيفن نيل^(١) Stephen Neil في شيء من الحق :

كان هناك على الجبهة الأخرى للكنيسة (يقصد الجانب الشرقى) شئون حرية أشد صعوبة وأبعد خطراً وفتكاً . ففي سنة ٦٢٢م تحرك من مكة إلى المدينة هذا الرجل الذى زعم أنه تلقى وحياً ليكون نبياً للإله الحى -محمد- وكان ذلك قبل موته بعشرة أعوام ، وقد جمع عدداً غير كبير ممن قبلوا دعوة التوحيد التى ادعاهها وقوامها ... لا إله إلا الله محمد رسول الله ... وأفرغ فيهم شعوراً بوجوب الدعوة للإسلام فى كافة أنحاء العالم .

وهو شعور لم ينقطع من المسلمين بعد^(٢) .

ومضى يصف امتداد الفتوحات الإسلامية السريعة ، والتى كادت تشمل فرنسا لولا أن وقفها شارل مارتل فى سنة ٧٣٢م فى موقعة تور فى قلب فرنسا^(٣) ثم يقول :

إن الصورة الكاكية التى ترسمها الرواية المسيحية عن مصيرها المحزن

(١) مبشر قضى عشرين عاماً يبشر فى الهند وكان رئيس كاتدرائية تيمبلى .. جنوب الهند ثم صار رئيس الإرساليات ورئيس الدراسات الدينية العالية فى جامعة هامبورج . وهو الآن رئيس الدراسات الدينية والفلسفية بجامعة نيروى ، وموجه الإرساليات التبشيرية، وله عدة كتب فى الدعوة إلى المسيحية ، ومنها كتاب تاريخ الإرساليات المسيحية الذى نقل عنه فى مواضع مختلفة ، وقد استوعب فيه خطوات الدعوة المسيحية فى العالم الأوربى والشرق وأمريكا فى شيء من الاستفاضة وأعتذر عن إنجاز الحديث بأن الموضوع أوسع من أن يلم به .
(٢) P — 62 .

(٣) كانت موقعة تور Tours بقيادة عبد الرحمن الغافقى ، وكان قد تقدم بمخطوطات ثالثة وأحرق بعض الكنائس وانتهى نحو تور - وهى مدينة لها قلعة لأن القديس مارتن رسول الغالين مدفون بها ، فالتقى الكونت أبوديس معونة شارل مارتل حاجب القصر فى البلاط المورفنجى ، وكان إيناً غير شرعى للملك ، قوى الشخصية والشجاعة ، فقابل العرب قريباً من تور ، واستمرت الحرب سبعة أيام عجز العرب خلالها أن يفتحوها صفوف جيش مارتل ثم سقط الغافقى نفسه قتلاً ، وتوقفت المعركة بدخول الليل البارد المظلم وفى الصباح تبين أن العرب انسحبوا ليلاً - فكان ذلك نصراً لشارل واعتبرت هذه موقعة حاسمة قضت على الزحف العربى نحو وسط أوروبا .

أمام التقدم الإسلامى الذى حتم على المسيحيين إما الردة أو الموت لما يملأ النفس أسى وحسرة فين حين وآخر كانت تقوم المذابح ، وباستمرار كان عدد المسيحيين يتناقص بردهم عن دينهم ودخولهم الإسلام ..

ونيل بوصفه مبشراً محارباً للإسلام لا يحجم عن المغالطات التاريخية وهو فى أحاديثه التاريخية رآو أكثر منه مؤرخاً ، وما قرره فى هذا الموضوع وفى مواضع أخرى فى كتابه من أن الإسلام أكره المسيحيين على قبوله - فضلاً عن أنه بغض من قيمة رأيه التاريخى - رده غير واحد من المؤرخين المحدثين ، وقد نعى المؤرخ الإنجليزى جيبون على مؤرخى أوروبا فى العصر الوسيط ما أبدوه من بهجة بنصر شارل مارتل فى موقعة « تور » بلاط الشهداء وتمنى لو أن المسلمين كانوا قد دخلوا فرنسا ، إذن لتقدم وجود الجامعات فى أوروبا مائتى عام ، وهو رأى وشعور شاركه فيه الكثيرون من المحدثين ، حتى أن المؤرخ الكبير بيكر الذى لم تغل كتابته من تعصب وتحامل على الإسلام يقول : أن أوروبا العصور الوسطى نظرت إلى انتشار « الإسلام » نظرة كنسية دينية ، وإذ أفرعها ضياع بلاد ترتبط بأصول المسيحية مثل الشام ومصر وشمال العراق راحت تفسر انتشار الإسلام بأنه كان بحمد السيف ، ولكنها نظرة بعيدة عن الواقع لأن الوثائق المعاصرة كلها تثبت أن العرب لم يفرضوا دينهم على أهالى البلاد المفتوحة بدليل ما أجمعت عليه الوثائق من تسامح العرب المطلق مع المسيحيين واليهود على السواء وهو تسامح لم يحظوا به فى ظل حكاهم السابقين^(١) .

وقد أفاض السير توماس أرنولد فى تنفيذ الآراء التى تذكر أن العرب أكرهوا بعضاً على الإسلام فى غير موضع من كتابه « الدعوة إلى الإسلام »^(٢) ومع ذلك فإنه ويكر وحتى يفترضون أن فتوحات العرب كانت لأسباب

(١) أنظر تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ص ١٠٤ - ٥ .

(٢) أنظر ص ٧٤ وما بعدها .

اقتصادية بحثة ، وهذا على فرض صحته لا ينافي وجود التسامح الدينى ووازن بيرين Pierenne بين هجوم العرب على أراضى الدولة الرومانية وهجوم القبائل المتبربرة الأخرى من المغول والجرمان ، فرأى أن هذه القبائل كانت تهجر هجرة جماعية تشمل كل القبيلة رجالاً وأطفالاً وماشية ومتاعاً لأنهم خرجوا للبحث عن القوت وعن أماكن للإقامة ، بينما لم يكن يخرج من المسلمين إلا الجيش المحارب وليس معه إلا سيوفه وكلمة الشهادة الإسلامية لا إله إلا الله محمد رسول الله يريد الإعلام بها ونشرها بين الناس^(١) وهذا فى الواقع فرق واسع ، نضيف إليه ما كان يفعله المسلمون من بناء المساجد وإقامة محفلى القرآن الكريم ومعلمى الدين والقراءة والكتابة فى الأماكن التى يفتحونها كما فعل معاوية فى فتحه قبرص والجزر الأخرى فى البحر المتوسط^(٢) .

ويذكر بيرين أيضاً أن هجرة العرب من الجزيرة واستقرارهم فى البلاد المفتوحة لم تحدث إلا بعد انتهاء حركة الفتوح بنحو قرنين من الزمان كانت البلاد المفتوحة خلالها قد تغيرت وأصبحت جزءاً من العالم العربى^(٣) ، ويذكر فى موضع آخر تعليلاً لبقاء الكيان العربى الإسلامى وذوبان القبائل الجرمانية ، بأن الجرمان لم يكن لديهم ما يواجهون به كنيسة العالم الرومانى ، بينما كان العرب مزودين بعقيدة ودين سماوى به تماسكوا وبه استعصوا على اللوبان فى مجتمعاتهم الجديدة^(٤) ، وهذه ملاحظة لها قيمتها ، لأن العرب المسلمين دخلوا بلاداً كانت غريبة عليهم ، وكانت ذات حضارة وهم لم يكونوا متحضرين ، ومع ذلك صبغوا الشعوب التى خالطوها بصبغتهم العربية ، ولم تقو هى على صبغهم بصبغتها ، وتم ذلك بقوى العرب الروحية وثقافتهم الإسلامية ، ولم يكن ثم إكراه ما .

(١) تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ١٠١ .

(٢) راجع فوح البلدان فى هذه الفترات .

(٣) تاريخ أوروبا ١٠١ .

(٤) نفسه ٩٩ .

وما ذكره جيون والذين أيدوا رأيه ذكره الآن أيضاً روجيه جارودى هذا .
الفيلسوف الفرنسى المعاصر المعروف بحريته الفكرية وبحبه عن الحقيقة ، وبهذا
جرؤ على إعلان إسلامه^(١) ومن سبق بهذا أيضاً جوستاف لوبون ، وقد بكى
فى غير موضع من كتابه « حضارة العرب » ما أصاب أوروبا من تأخر وفساد
بسبب خروج المسلمين من أسبانيا وصقلية وهزيمتهم فى معركة « تور » كما
وصف وحشية المسيحيين فى إبادة المسلمين^(٢) .

أضف إلى ذلك أن البرابرة الذين هجموا على الدولة الرومانية ، كانوا
يستبقون الأساقفة والقسس فى معابدهم^(٣) وأن البابوات كانوا يشرعون
الاسترقاق عقوبة لمعارضهم فى ميدان السياسة ، وأن نشأة تجارة الرق ترجع
إلى مرسومين بابويين بهما صارت هذه التجارة عملاً قانونياً^(٤) وهذا يعنى أن
أعمال الرق قبل هذين المرسومين كانت من المخالفات القانونية وأن رجال الدين
المسيحي هم الذين جعلوها عملاً شرعياً . وبعد هذا يتهم الإسلام بأنه شرع
الرق . بينما هو قد شرع التحرير من الرق .

ولم يغب عن نيل هذا الفرق ، فذكر أن الجرمان والهون والقوط ومن
إلهم لم يكن لهم إلا دين بدائى ساذج فبهرتهم الحضارة الرومانية ، أما المسلمون
فكانوا صلاباً على عقيدتهم ويستتلون إلى حجج منطقية وفلسفية^(٥) .

وعن حياة المسيحيين بين المسلمين يقول أنهم كانوا يمثلون الطبقة الثانية
من المواطنين ويقوم بعضهم بالأعمال الحرفية من الزراعة والصناعة والأعمال

(١) أنظر فى جريدة الأهرام ٣٠ يناير ١٩٨٣ حديثاً له أذاعه فى الكويت ، وهو ممن نفروا من
المسيحية وأبغضوها ، وكان قد تركها نهائياً واعتنق الشيوعية ، ثم هدته دراساته إلى اعتناق الإسلام ،
وانظر حديثاً عنه فى مجلة الأمة القطرية عدد ذى الحجة ١٤٠٢ هـ .

(٢) راجع حديثه عن نهاية المسلمين فى أسبانيا وصقلية . ص ٣١٧ .

(٣) كولوتون - عالم العصور الوسطى ص ٥٢ .

(٤) نفسه / ٧٥ - ٦ .

(٥) P - 65 .

الكتابية ، وربما تولى بعضهم مناصب عالية في الدولة ويختم حديثه بأن الكنيسة الشرقية فقدت سيادتها نهائياً أمام الإسلام ، وأصبحت ضعيفة التأثير في جذب الناس إلى المسيحية^(١) .

ويش دعاة المسيحية من تنصير المسلمين قولوا وجههم شطر الشرق الأقصى والجهات الأخرى ، وكان هم الكنيسة في الشرق الأوسط أن تحافظ على أبنائها حتى لا يتلهمهم الإسلام وكانت مهمة المبشر في البلاد التي بها عدد كبير من المسيحيين أن يذكر بأجساد المسيح ومعجزاته ، وكان حسبه من الحاكم الإسلامي أن يمنحهم هذه الحرية ، ولم يكن لهم أى مطمع في تنصير مسلم واحد ، ولكن أعمال المبشرين كانت - في شيء من الإصرار يستحق التقدير - ينبعث نشاطها بين حين وآخر كلما بدأ ضعف الدعاة الإسلاميين ، أو ضعفت الدول الإسلامية في حياتها الثقافية والاجتماعية ، ففى خلال الثلاثينيات من هذا القرن ظهرت في مصر حركة تبشيرية تمثلت في فتيات مبشرات يدعون إلى المسيحية ويجتذبن الشبان بحسن مظهرهن وكانت ثم نشرات توزع ويحملها البريد تذكر بأجساد المسيح وتدعو إلى اتباع الأناجيل ولكن لم يكن بها طعن للإسلام . ونشطت كاتدرائية مصر القديمة ومستشفى هرمل الذى بجانبها ، وفى هذا المستشفى كانت تنشر أفلام مثيرة وسيرة لنبي الإسلام ، وكان المرضى يتحملونها على مضض لحاجتهم إلى الصحة والعلاج بهذه الدار ، وكانت تلك السنون عجافاً جدياً كسنى يوسف وكان الفقر يدفع بالمرضى إلى هذا المحيط ، وكانوا يصبرون أنفسهم على مايرون ويسمعون ولكن لا نعلم أحد تنصر ، بل سمعنا ممن خالطوا هؤلاء القوم سخطاً وشكوى ، ولم تنته الأزمة الطاحنة التي اجتاحت العالم تقريباً إلا بقيام الحرب العالمية سنة ١٩٣٩ ، وخلالها تقلص النشاط التبشيري ، ولكن دعائه استفادوا فوائد دراسية جعلتهم يحورون دعوتهم ويختارون لها حقولاً ملائمة .

هذه هي الخطوط الرئيسية للقاء الإسلام والمسيحية ، وبدءاً من عصر الاستكشافات وعصر الاستعمار بدأت كفة النشاط المسيحي ترجح بما لها من قوة مادية ، ثم اتجهت أخيراً إلى البلاد الإسلامية التي يمست من دعوتها للمسيحية من قبل ، وعقدت لذلك مؤتمرات عديدة مهمتها البحث في الطريقة التي تنصر بها المسلمون .



٤ - عصر الاستكشافات وآثاره التبشيرية :

ذكرنا من قبل تدرج الدعوة المسيحية ، وبينما أنها استغرقت وقتاً غير قصير حتى تشمل الأقطار الأوروبية ، ثم ضايقها في الشرق ظهور الإسلام وانتشاره بسرعة خلال القرن السابع ، وبينما كانت المسيحية لاتزال متورطة في خلافاتها حول طبيعة المسيح ، وبينما كانت بعض الأقطار الأوروبية لاتزال على وثنيها ، والكنيسة في روما تعاني مشاكل داخلية وخارجية ... خلال هذا كله كانت موجة الفتح الإسلامي قد شملت ممتلكات الدولة الرومانية في الشرق وأخذت أيضاً ماأخذت من القارة الأوروبية ، ولم تقو المسيحية على دفع هذا الخصم كما فعلت مع الخصوم الآخرين ، فهو دين يحمل مشاعل الثقافة وقيادة الفكر ، ولا يكره أحداً على قبوله ، وقد دخله كثير من المسيحيين عن عقيدة ثابتة ، وتحول الكثيرون من مسيحي أوروبا ووثنيها إلى الإسلام وأظهروا غيرة عليه^(١) وخلال هذه الحقبة قامت الحروب الصليبية فلم تظفر - رغم تطاول أزمائها وتعدد حملاتها - بشيء مما كانت تحلم به ، ثم انفتح باب الأمل بضعف المسلمين في أسبانيا واستكانتهم ، وكانت سكرة الانتصار في الحروب الصليبية بعض ما سبب لهم هذا الضعف ، ثم خرجوا نهائياً من أسبانيا أواخر القرن الخامس عشر سنة ١٤٩٢ م . وهو العام الذي كشفت فيه القارة الأمريكية ثم توالى بعدها كشوفات أخرى ، وكانت دعوة التبشير ترافق كل هذه الحركات^(٢) .

ويعتبر القرن السادس عشر بداية نشاط تبشيري جديد ، ففيه قويت حركة اتحاد الكنائس وظهرت المطبعة العربية على يد فرديناند دومتشي ١٥٨٦ م . وفيه أنشئ أول كرسى للغة العربية في الكوليج دى فرانسيه (الكلية الفرنسية) وفيه اشتد الاهتمام بكتب المعاجم والقواعد إلى أعمال

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام / ١٥٥ .

(٢) Niel PP 140 — ١

أخرى كانت كلها بدافع التبشير والدعوة إلى المسيحية ، وفتحت حركة الكشف مجالات جديدة وواسعة خارج القارة الأوروبية وبعيداً عن منطقة الشرق الأوسط التي ثبت فيها الإسلام وقطع عنها أطماع المبشرين ، فكانت كل رحلة كشفية تصطبغ معها عدداً من المبشرين ، وكانت الجماعات التبشيرية تتسابق إلى هذه الصعبة وتحرص عليها ، ولم تكن رحلة كولومب لمجرد الاستكشاف ولا هدفها الأول هو تقريب طريق التجارة بين أسبانيا والهند ، بل كان وراءها باعث ديني .

يقول المؤرخ الكبير هنري فيشر : لا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد هو الرغبة في الحصول على التوابل والذهب ، بل اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية ، ففى الفاتيكان وخصوصاً لدى الفرنسيين الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تطمح إلى تغطية العالم - كانت مشروعات البرتغال وأسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لأنها جديدة بأن تهىء السبيل إلى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها تفضى إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق ، وقد كان نجاحى الحبشة - مسيحياً وكان المعتقد أنه لا تزال في الهند دولة مسيحية نتيجة - لبعث القديس ثوما - يحكمها عامل يعرف بالخان الأكبر ، وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير في أن تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين البعيدين مساعدة فعالة في حرب صليبية ضخمة أخيرة ضد المسلمين ، تلك هى « خطة الهند » كما رسمها نقولا الخامس منذ وقت مبكر يرجع إلى سنة ١٤٥٤م في مرسوم بابوى أرسله إلى ملك البرتغال ، وفي هذا الجو أفلح كولومب ليكتشف الطريق إلى الهند غرباً^(١) .

(١) أصول التاريخ الأوروبى الحديث ٨٨ ، ٨٩ : عرض كولومب مشروعه على كل من البرتغال وإنجلترا وفرنسا وظل موضع بحث لدى أسبانيا لمدة خمسة أعوام ثم رفضته اللجنة ، ثم قبلته الملكة بمسمى كاهن وسيدة أثرة لديها ، وكان أسطول كولومب يتكون من ثلاث قوافل بحرية ، واستغرقت الرحلة خمسة أسابيع وصل بعدها إلى جزيرة واتلنج من جزر الهاما ، وهى التى سميت باسم سان سلفادور ، ثم تكررت رحلاته بعد ذلك

وبعد أن عرف أن هذه الجزر ليست هي الهند بقي لها اسم الجزر الهندية .
كانت الرحلة الأولى لكولومب في أغسطس سنة ١٤٩٢م ووصلت إلى
أمريكا في أكتوبر ، فنزل القوم في جزيرة جواناهاى Guanahani . من جزر
باهاما ، ورفعوا أعلاماً عليها الصليب الأخضر ، والحروف الأولى من إسمى
فرديناند وإيزابيلا ، وحررت وثيقة الاستيلاء باسمهما . وأثار هذا الكشف
ثائرة البرتغال ، وكادت تنشب الحرب بين البلدين ، لولا أن تدخل البابا
الإسكندر السادس ، فتدارك الموقف برسم خط وهمى يفصل بين ممتلكات
البلدين ، ويمتد من القطب الشمالى إلى القطب الجنوبى ماراً بجزر الخالدات على
بعد مائة فرسخ من غربها ، ثم جزر الرأس الأخضر ، فرضيت الدولتان
وغضبت الدول الأوروبية الأخرى ، لأنه سد عليها باب الكشف
والاستعمار .

وقام كولومب بعد رحلته الأولى بثلاث رحلات أخرى في سنوات
١٤٩٣ ، ١٤٩٨ ، ١٥٠٢ وكشف جزراً أخرى ، وفي كل رحلة كان يحمل
عدداً كبيراً من القسيس المبشرين ، وكان هو يرتدى الملابس الدينية الخاصة
بجماعة الفرنسيسكان ، وكان الصليب يرسم على أشعة سفنه ، وكان يعتقد
أذه مسوق بقوى إلهية لنشر المسيحية والقضاء على الإسلام ، ولكنه أسرف كل
الإسراف في نقل الهنود الأحمر أرقاء إلى أسبانيا .

وبعد رحلته الثالثة نمت الوشايات ضده حتى غضبت عليه حكومته ،
فكبل بالحديد وسيق إلى المحاکة . ولكن الملكة عفت عنه ، ولم يرقم برحلات
بعد ذلك ، واحتفظ بالقيود التى كُبل بها في مكتبه ، وأوصى أن تدفن معه .
ومات سنة ١٥٠٦م مات ، وهو يعتقد أنه لم يصل إلّا إلى الجانب الشرق من
الهند . وبعد مدة طويلة تذكر الأسبان فضله ، فكتبوا على قبره إسمه وسجلوا
أنه أعطى أسبانيا عالماً جديداً .

أما الذى كشف أن هذه البلاد ليست هي الهند فهو ملاح إيطالى يسمى
أمريجو فيز بوتشى ، ومنه أخذت القارة إسمها بعد ذلك .

وعلى أى حال توطلدت المسيحية فى الجزر التى كشفت ، ثم توالى الرحلات الكشفية ثم نقل الأفريقيون السود إلى الأراضى الجديدة ، وقد هلك منهم الكثيرون ، وكانت هذه أشنع أعمال الاسترقاق فى التاريخ كله ، ولم ينكر القسس نهب الأفريقيين ولكنهم بشروهم - فى أرض كولومب - برحمة المسيح وإنسانيته ، وأقيمت لهم الكنائس هنا وهناك .

والصورة التى نجدها فى رواية « كوخ العم توم » تعطى صورة مصفرة عن هذه المعاملة ، لأنها لم تتعرض لما حدث للأفريقيين النهويين .

ثم طاف فاسكو دى جاما حول أفريقية ووصل إلى الهند الحقيقية بحراً ، وقامت رحلات أخرى إلى أمريكا فانفتح أمام المبشرين ميدان واسع للتبشير ، وقال البابوات أنها فرصة لإيصال نور الإنجيل إلى هؤلاء المجهولين والذين كانوا يعيشون فى ظلام دامس بسبب الإسلام^(١) !!

ولخص نيل غرض الحملات الكشفية فى أمرين اثنين ، هما التبشير بالإنجيل أولاً ، ثم التحالف مع الكنائس المسيحية التى كانوا يظنون وجودها هناك ، وبه يقوم تحالف مسكونى عام يمكن به أن يستأصل المسلمون من تلك البلاد ، وكانت تسيطر على عقل المسيحيين أسطورة الإمبراطور القديس الذى سيحكم إمبراطورية عظيمة فى أرض مجهولة ، ولم تكن هذه الأرض محدودة المكان ، فأملوا أو افترضوا أن تكون هى الهند^(٢) . وبعض توقع أن تكون هى الاستيس ومهما يكن مصدر هذه الأسطورة فإنها كانت من الحوافز الدينية الدافعة إلى مزيد من الكشف^(٣) .

(١) أنظر Neil 140 .

(٢) Ibid PP 140 — 49 .

(٣) لم يعرف مصدر هذه الخرافة التى إستولت على أذهان القوم مدة طويلة ، وظن أنها نبتت فى الحبشة التى كان بها مملكة مسيحية بالفعل ، وكانت مصدراً لكثير من الأساطير .

كانت رحلة فاسكو دى جاما سنة ١٤٩٧م أى بعد كولومب بنحو خمسة أعوام ، وقد وصل إلى السواحل الغربية للهند الحقيقية ، ورما أسطوله عند كلكتا ، وكان يظن أن كولومب فى شاطئها الشرق ، ولم تعرف حقيقة الأمر إلا بعد رحلة أمريجو ، ثم كان ماجلان أول عابر للمحيط الهادى^(١) وتتابع رحلات الاستكشاف البحرية ، وكان كل أسطول يحمل معه عدداً من القسس ، وقد أبحج رجال الغرب وخصوصاً رجال الكنيسة أنهم أصابوا المسلمين بضرية اقتصادية ثقيلة ، إذ وجدت أوروبا طريقاً إلى الهند وشرق آسيا غير طريق البحر الأحمر .

وتنافست الدول الأوروبية على هذا العالم الجديد ونشبت بينهم خلافات كان لابد من الرجوع فيها إلى البابا ليفصل بين أسبانيا والبرتغال وليقرر حقوق المستكشفين وليحدد موقف القسس ومدى نفوذهم ، وصدرت قرارات من البابوات كان من بينها أن يعمل الملوك الذين يضعون أيديهم على شيء من الأراضي الجديدة على إخضاع سكانها للعقيدة المسيحية ، وأن يقوم كل حاكم بإرسال عدد من القسس واللاهوتيين ذوى مييزات عقلية وخلقية ومقدرة كلامية ليقتنوا هؤلاء السكان بدين الإنجيل ، وليرشدوا إلى حسن السلوك والعقيد الكاثوليكية . وفرح الملوك بذلك أن وجدوا فى الإرساليات المسيحية سنداً لهم ، فهم يروضون الناس على قبول حكاهم الجدد ويوطنون أقدام المستعمرين فى تلك البلاد ، لذا ساندوا الإرساليات بالمال والجاه وبذلوا لهم كل تقدير .

وفى سنة ١٥٠٠م وصل الملاح كابرال إلى ميناء صغير فى جنوب الهند هو «كارانجاتور» فوجد هناك بعض المسيحيين ، ربما كانوا من مسيحيى العراق جاعوا عن طريق فارس ، ولم يكونوا على صلة بالبابا ، بل كانوا فى عزلة تامة عن الكنيسة ، وكان ماحولهم من سكان البلاد يدينون بالديانات الهندية ، ولكن الإسلام كان قد استقر فى غرب الهند، وتسرب أيضاً إلى البلاد المجاورة،

(١) قتل ماجلان فى إحدى جزر الفيلين سنة ١٥٢٢م .

ومع أن الفتوحات الإسلامية كانت قد توقفت منذ بضعة قرون كان الإسلام قد تسرب تلقائياً مع التجار وغير التجار إلى بعض البلاد ، فاعتنقه أفراد وتكونت منهم جماعات ولكنهم كانوا قلة ، وكان ينقصهم العلم الكافي بشعائر الإسلام وأحكامه ، وكانوا في حاجة إلى دعاة وإلى هيئة إسلامية تشرف على نشر الدعوة ، والهند بلاد تتعدد فيها الأديان واللغات وأيضاً الأجناس ، ويكثر فيها التعصب الدينى ، فكان من الأحداث الشاذة أن يشق الإسلام له طريقاً أو يتسرب له بصيص من الضوء بين كل هذه الجماعات ، وإزاء هذا الموقف المتقارب من المسلمين والمسيحيين المنعزلين ظلت كل ديانة في حقلها حتى وفد كابرال ومعه مسيحيون مستثمرون مؤهلون لدعوتهم فرجحت كفة الكنيسة وكثر أتباعها ، وعملاً بوصية البابا ذهب الدعاة إلى هؤلاء الذين كانوا منقطعين ، وبذلت جهود لتكوين دعاة ورؤساء كنائس من المواطنين ، واصطحب كابرال معه إلى أوروبا بعض المستثمرين ومن لديهم معلومات عن الإنجيل من هؤلاء القوم ، وكان الغرض من كل ذلك هو إيجاد صلة بينهم وبين البابوية ، وبهذه الجهود زاد عدد المسيحيين ، وانحاز إلى الكنيسة أعداد كثيرة من الديانات الأخرى ، وحقاً لم يتنصّر مسلم ولم ينقطع دخول الأفراد في الإسلام ، ولكن الفرق كان واسعاً بين الموقفين .

وهذا الموقف متكرر في مختلف الأقطار والأزمنة إذ تجد المسيحية تنظيماً ودعاة موفدين من هيئات تبشيرية ، وتجد الكنائس معونات مادية كبيرة ، وتجد حتى في البلاد الإسلامية - معونات وحماية من سفارات بلادها ومن حكوماتها ومن الكنيسة الأم

ولا يجد الإسلام شيئاً من هذا ، وفقط يعتمد على جهود فردية ويتمشى بمبادئه وما في عقيدته من بساطة ووضوح .

وهذا هو موقف التبشير والإسلام الذى نعرض له في عدد من الأقطار .

٥ - النشاط البحري والتبشير :

كان نجاح الحملات البحرية في كشف جوانب جديدة من أمريكا وما حولها مما جعل الملك الأسباني شارل ، يزداد إيماناً بأن الله يمدّه بعونه لأنه نصر الدين الحق وهو الكاثوليكية فأخذ يعد لرحلات بحرية جديدة .

ومن أشهر هذه الرحلات في عهده رحلة فرديناند ماجلان قاهر البحار - بأسطول مكون من خمس سفن ، وقد انقطعت أخباره ثلاثة أعوام ، ثم ظهرت السفينة « فكتوريا » بقيادة جون سباستيان دل كاند J. Sepastian del cand فجأة على نهر الوادى وتغييت الأربع السفن الأخرى ، واعتبر مجيئها نصراً ، لأنها أول سفينة تقطع المحيط الهادى ، بعد أن طافت حول بتاجونيا ، وبعد موت ماجلان في جزر البهار عبرت السفينة الباقية المحيط الهندى إلى جنوب أفريقية ، ثم عادت إلى أسبانيا^(١) .

كذلك أبحر هرناند كورتيز Hernand Cortis من كوبا إلى أمريكا الوسطى ، وكانت كوبا قد دخلت من قبل في حوزة أسبانيا ، وبهذه الرحلة ضمت إليها أيضاً المكسيك ، وكان يسكنها جنس بدائى عرف باسم الازتك Aztecs وكانوا من أكلة اللحوم البشرية ، وكانوا غاية في التأخر لا يعرفون عن دواب الحمل ولا عن الأبقار والماعز شيئاً واستطاع كورتيز لذلك التغلب عليهم رغم وحشيتهم ، ثم أذاع فهم أسطورة صدقوها وهى أنه وجماعته أنصاف آلهة تخشى مقاومتهم ، ولم يكن من المقبول ولا من المتوقع - وبين الغزاة مبشرون بالمسيحية - أن يذيعوا بين هؤلاء السذج البدائيين نوعاً جديداً من الوثنية . وهم وثنون من قبل .

وامتدت ممتلكات الأسبان في أراض واسعة في هذه المناطق البكر ، وهم الذين أسسوا باناما ، وتعددت حملاتهم واستيلاؤهم على ذخائر هذه البلاد .

(١) أنظر هذه الأحداث في دائرة المعارف البريطانية ، ودوائر المعارف الأخرى ، وكانت الجزيرة

التي قتل لها هى جزيرة ماكتان من جزر الفلبين ١٥٢١ م .

وقام الملاح بيزارو Pizzaro بحملة على بيرو وجنى منها كميات كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، واعتبرت هذه أئمن مانال المستكشفون .

كان بيزاروا لقيطاً فقراً دفعه فقره إلى احتراف الملاحة والمغامرة في طلب الرزق وفي سنة ١٥٢٢م كان في باناما معوزا يبحث عما يعيش به ، ومع بعض رفاقه من البحارة فأخبره بحار أسباني عن قبيلة الأنكا التي تعيش في مقاطعة منسية على ساحل المحيط الهادى وحدثه عن ثرائها وكثرة خيراتها ، فأثار أطماعه وأسأل لعابه ، إذ كان في مسيس الحاجة إلى المال وهو لا يبحث عن غيره ، فأسرع بالذهاب إليها في سفينة واحدة ومائة رجل ، ولم يمتد إلى ما يريد وعاد فاشلاً ولكن أحلامه لم تنقطع ، فاستأنف بحثه بعد أربعة أعوام سنة ١٥٢٦م ، وفي هذه المرة وجد ما كان ينشده ، وجد جماعة قطعوا شوطاً في سلم الحضارة ، وهم قبيلة متاسكة ليس بينها متعطل ، ولهم حقول عامرة بالزراعة ، والشعب كله يتحلى بالذهب واللالء ، ولهم قصور ومعابد وطرق وقنوات معلقة وأخرى عميقة ، وكانوا من عباد الشمس وأراد رفاقه العودة ، ولكنه خط بسفه خطأ على الرمال وقال على هذا الجانب الشمالى يوجد الفقر والفاقة والجوع والخراب والموت وعلى الجانب الآخر توجد الدعة والمسرة والذهب والثروة ، وإلى أختار الذهاب إلى الجنوب وهذا هو الأجدر بكل قشتالى شجاع ، ومع خطبته المثيرة لم يتبعه غير ستة وعشرين من رجال السفينة ، واكتفى بارتياح البلاد ودرس حالها وعاد إلى أسبانيا ، ولم يكن الإمبراطور أقل شراً منه ، فأعد له رحلة أخرى سنة ١٥٢٩ ، وخوله سلطة نائب ملك في البلاد التي يراد ضمها لتاج قشتالة .

هنالك تجلت أخلاق بيزارو الدنيئة ، فاحتال على حاكم البلاد حتى اختطفه بطريقة غادرة ، ثم جرده من ثروته الكبيرة ، ثم أحرقه في ميدان عاصمته سنة ١٥٣٣ على مشهد من الرهبان والمبشرين الذين باركوا عمله وأعلنوا استحسانه .

وظل تعذيب الأسبان البشع ينصب على كل مستعمراتهم هناك حتى ظهر
قس يدعى لاس كازاس Las Casas أزعجته هذه الوحشية ، وساعده سكوت
إخوانه المبشرين عليها ، فأعلن استنكارها ، ونشأ عن دعوته حركة إنسانية
دعت إلى الحد من طغيان الأوروبيين على هؤلاء المساكين^(١) ، وكان هذا هو
الأسلوب العام لنشر المسيحية .
ونذكر لمحة عن صراع الدينين في كل من آسيا وأفريقية .

(١) أصول التاريخ الأوروبي الحديث ١٣٩-٢١- وانظر : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ،

- د/ عبد العزيز الشناوي ١٣٣-١٤٤ .

الفصل الأول

في

آسيا

أولاً : الهند

١ - الإسلام والمسيحية في الهند :

الهند شبه قارة بعيدة الأرجاء ، وكانت في عهد الفتوح الإسلامية تطلق على كل البلاد التي تلى بلاد الفرس حتى المحيط ، وهي إلى وقت قريب كانت تشمل باكستان وبنجلادش ، وكان المسلمون يسمون الجزء الذي غرب النهر وباكستان الحالية باسم السند ، وليس من السهل أن نلم بمحدث المسيحية والإسلام في هذه البلاد يمثل هذا العرض الموجز فكل إقليم من أقاليمها يستدعى حديثاً مطولاً عن أى من الديانتين ، ولكننا ونحن نتحدث عن التبشير وموقف كل من الديانتين يكفي أن نشير إلى بعض الأحداث التاريخية التي تربط موقف الدانتين الآن بماضيهما ، ولعل في هذا ما يكفي دارس التبشير الحديث ، ولعل فيه أيضاً ما ينير له الطريق لدرس هذا الموضوع - خصوصاً تاريخ الإسلام - درساً أوسع .

والهند من قديم الزمان مجمع أجناس بشرية وفيها كثرة من الديانات وكثرة من اللغات ، وبحكم تباعد أطرافها وتنوع مناخها تختلف تقاليد سكانها وأخلاقهم ، ويصعب أن يجمعوا على طريقة واحدة في أى من هذه الصفات حتى الذين هم على دين واحد في جوانب هذه البلاد ويختلفون في أشياء كثيرة من عاداتهم ومظاهرهم ، وقد بذل الزعيم غاندى جهداً كبيراً في التقريب بين فصائل هذا الشعب فجز عليه ذلك ولكنه قطع شوطاً مشكوراً .

وفي الحديث عن الإسلام والمسيحية نذكر أولاً : بداية كل منهما في هذه البلاد ، ثم نعرض لما كان بينهما من تنافس ، وبه نوضح نشاط التبشير حتى الوقت الحاضر .

بداية المسيحية في الهند :

دخلت المسيحية الهند في ظروف غامضة ليس من السهل تحديد تاريخها بدقة ولكن يغلب على الظن أنها دخلت في القرن الثالث الميلادي ، وأن دخولها

كان عن طريق بلاد فارس ، وبنشاط الكنيسة السريانية الشرقية^(١) التي كانت قد استقرت في العراق وتسرب بصيص منها إلى الهند ، ولكنّ الإرساليات التبشيرية لم تدخل الهند إلا في القرن الخامس أو أواخر القرن الرابع من هذه الكنيسة ، وقامت لها كنائس في سيلان وعلى ساحل الهند الغربي ، وفي القرن الثامن والتاسع وفد على نصارى الهند وفود من العراق وفارس وغيرهما ، وأعمالهم ليست ذات أهمية ، ثم اهتمت الدول الأوروبية بالهند وأنشأ ملك إنجلترا سفارة له هناك لتعزيز التبشير المسيحي ، فبثت شيفاً من اليقظة والنشاط ، وكانت قبل ذلك في حالة ركود ، كما أنها كانت منقطعة عن البابوية في روما^(٢) .

وإذا أردنا أن نتيين صبغة الثقافة المسيحية في هذا الصقع النائي المنقطع فإننا نميل إلى أنها كانت تحمل عناصر أفلوطينية ، هذا لأن الأفلاطونية الحديثة كانت منذ القرن الثاني قد امتدت من الإسكندرية إلى الرها ، وإلى حران

(١) كانت الكنيسة تسمى النسطورية ، لأنها تابعة لنسطور الراهب العسقلاني الذي ينسب إليه المذهب النسطوري والذي تقدم ذكره في الحديث على مجمع افسس في كتاب «الإرساليات التبشيرية» ، ولكن الكاثوليك كانوا قد أطلقوا عليها هذا الاسم ليصمموها بالفرطقة التي رماها نسطور - وهي الجمع بين اللاهوتية والنسوتية في طبيعة المسيح . وإنكار إلهية مريم ، وأطلق عليها أيضاً اسم الكلدانية ، وهذه النزعة التي عييت بها هي التي هيأت لها انتشارها في الشرق ، وفي القرن الخامس كانت نامية في بلاد فارس ، وأعلن أسقف «المداين» عاصمة الفرس أنه بطريرك الكنيسة الشرقية ، واستمرت مزهرة حتى بعد ظهور الإسلام ، ولما بنى المنصور بغداد ٧٦٢ م ، انتقلت البطريركية إليها ، وكان لها كنائس في مرو ، وهرات ، وسمرقند وغيرها - (انظر تاريخ سوريا ج ١ / ٤١١ ، ج ٢ / ١٣٥ - ٦ .

(٢) يجب أن تكون على ذكر من أن الكنيسة الشرقية بعد أن انقسمت انقساماتها التي ذكرناها في كتاب «الإرساليات التبشيرية» ظلت تتشقق أيضاً ، ولم تكن الكنيسة السريانية (النسطورية) إلا فرعاً من هذه الأقسام ، وتقابلها الكنيسة السريانية الغربية أو الفرع الغربي ، ويسمى أتباعها اليعاقبة - نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها ، وهي أيضاً تسمية تهكمية من أعدائهم اليونان الكاثوليك ، ولم يكن لليعاقبة نشاط تبشيري كالذي كان للنساطرة ولكنها انتشرت في مصر وسوريا والحيرة ، ودخلها عرب الفساسة في جلق ، وكانت أيضاً عاملاً فعالاً في نشر الفلسفة اليونانية ، وكلتا الفرقتين تركت آثاراً عميقة في الفكر الإسلامي ، وفي ظل التسامح الإسلامي قام النساطرة بنشاط تبشيري واسع في بلاد فارس ، وبنوا كنائس عديدة هناك ، وكان المسلمون أثناء فتحهم بلاد فارس والهند يهدمون المعابد الوثنية ويتركون الكنائس .

وجنديسابور فكانت مدارس المسيحية في فارس تدرسها ، ولما طرد الإمبراطور جستنيان الفلاسفة اليونانيين من بلاده كان سبعة منهم ، ومن أتباع الأفلاطونية الحديثة قد هاجروا إلى بلاد فارس وآواهم كسرى أنوشروان ، فبثوا هناك فلسفتهم ، وإذ كانت النسطورية كما سميت ، أو السريانية في فارس هي التي نقلت المسيحية إلى الهند ، فلا بد أنها كانت على هذا المذهب .

٢ - دخول الإسلام الهند :

دخل الإسلام الهند من عدة منافذ ، وبطرق مختلفة بعضها واضح وبعضها يحيطه غموض ، وأوضحها ما كان عن طريق الفتوحات المنظمة في صدر الإسلام ، وترجع بداية الغزوات الإسلامية إلى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب ، وهو لم يعد حملة حرية لهذه البلاد ولكن واليه على البحرين وعمان (وهو عثمان بن أبي العاص الثقفي الذي ولى سنة ١٥ هـ) أرسل من عمان جيشاً إلى نانة وبروص من بلاد السند ، ولم يخرج الخليفة إلا بعد عودته وكان قائد هذا الجيش هو أخاه الحكم بن أبي العاص ، كما وجه أخاه المغيرة إلى أرض الديبل^(١) على الشاطئ الغربي ، ومنذ ذلك الوقت حتى القرن الثامن عشر الميلادي ظلت وفود المسلمين تتدفق على هذه البلاد^(٢) .

ولم يكن الخليفة راضياً عن هذا الغزو ، وقد كتب إلى عثمان : يا أخا ثقيف ، حملت دودا على عود ، وأنى أحلف بالله أن لو أصيبوا لأخذت من قومك مثلهم^(٣) .

ولما جاء عثمان بن عفان ولى على العراق عبد الله بن عامر بن كريز ، وأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم علمه ، فوجه حكيم بن جبلة العبدي^(٤) إليها

(١) وهي كراتشي الآن .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ٢٨٧ ، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم ١/٣١٢ .

(٣) البلاذري بيروت ٤٢٠ .

(٤) ترجمة حكيم في الاستيعاب رقم ٥٤٠ ص ٣٦٦ ق ١ تحقيق الجاوي ، ويقال حكيم وحكيم ،

« بوزن قنبل وزنبر » وابن جبل وابن جبلة ، كان رجلاً صالحاً مطاعاً في قومه ، وكان يعيب عثمان =

فلما عاد كتب للخليفة وصفاً جاء فيه : ماؤها وشل^(١) وتمرها دقل (بفتح القاف)^(٢) ، ولصها بطل^(٣) ، إن قل الجند^(٤) فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا^(٥) فلم يغزها أحد طوال عهد عثمان .

وفي عهد الخليفة الرابع - علي بن أبي طالب ، توجه إليها الحارث بن مرة العبدي سنة ٣٩ هـ ، وكان موفقاً في غزوه ، ويبدو أن نجاحه أغرى بمتابعة الغزو هناك لأنه أصاب مغام وسييا حتى أنه قسم في يوم ألف رأس^(٦) ، ثم قتل في قبقان سنة ٤٢ هـ (في عهد معاوية) وفي سنة ٤٤ هـ غزا المهلب بن أبي صفرة (بنة والأهواز) بين كابل والمثلثان (جنوب البنجاب) . وفي عهد معاوية أيضاً غزيت بلاد القبقان ومكران غير مرة ، وأرسل الحجاج في عهد عبد الملك عدداً من الحملات ، وأراد ملك جزيرة الياقوت أن يتقرب إليه فبعث إليه بنسوة ولدن في بلده مسلمات من آباء تجار ماتوا هناك^(٧) وهذا يعني أن الإسلام سبق الغزوات الحربية إلى تلك البلاد على أيدي التجار .

وأشهر وأنجح القواد الذين غزوا السند محمد بن القاسم الثقفي - ابن أخى الحجاج - وقيتية بن مسلم الباهلي ، وكان جيش محمد جراراً به ٦٠٠٠ من أهل الشام ، وقد أخضع مكران وبلوخرستان ، ووجد في الدليل تماثلاً لبوذا

= ابن عفان من أجل عبد الله بن عامر وأمور أخرى ، ولكنه قابل ركب الجمل - السيدة عائشة والزبير وطلحة - وكان معه سبعمائة من عبد القيس وبكر بن وائل ، فالتقوا بالزاب - قرب البصرة - فقتل ، وقيل قطعت رجله يوم الجمل ، فأخذها يده وزحف إلى الذي ضربه فجعل يضربه بها حتى قتله ، قال أبو عبيد : ولا تعرف أحداً في جاهلية ولا إسلام فعل فعله ، وفي الإصابة ت ١٩٩٤ - حكيم - يضم أوله مصغراً .

(١) قليل .

(٢) أورد أنواع النمر .

(٣) يريد أن الأمن مختل فيها .

(٤) رواية ابن عبد البر الجيش .

(٥) الجيش القليل لا يحصى نفسه ، والكثير لا يجد طعاماً يكفي .

(٦) فتوح البلدان ٤٢١ .

(٧) نفسه ٤٢٣ ، وجزيرة الياقوت في بحر الهند سميت كذلك لحسن وجوه نساها .

يبلغ ارتفاعه ٤٠ ذراعاً ، واستولى كذلك على النبرون - (مكان حيدر آباد الآن) - وكان في ملتان أيضاً مزار لبوذا ، وكان به أثناء فتحه عدد كبير من الحجاج أخذوا أسرى . ومنذ ذلك العهد استقر الإسلام واستقرت اللغة العربية في إقليم السند ، ومنه امتد الإسلام إلى داخل البلاد بواسطة التجار المتنقلين والدعاة وظلت الغزوات أيضاً بين حين وآخر ، وحدثت غزوات متقطعة خلال العصر العباسي ، وقد حدث أن بعض الملوك ورؤساء القبائل مالوا إلى الإسلام فاعتنقوه واعتنقه معهم أتباعهم ، وبعد تضعضع الدولة العباسية ، ظل للمسلمين غزوات متلاحقة في الهند ، ومن أشهرها حروب محمود الغزنوي^(١) وتيمور لنگ وكانت كلها حروباً تتسم بالصفة الدينية والرغبة في الجهاد للقضاء على الوثنية ونشر الإسلام ، وجاء في مذكرات تيمور لنگ أنه بسبب شنه الحرب على الكفار بارك الله حملته وجعل النصر حليفه ... وأنه لا يبق له أن يخلد إلى الراحة بل عليه أن يشن الحرب على كفار هندستان^(٢) .

ومما ربحه الإسلام بالهند أنه كانت تدخله أسر وقبائل كلها دفعة واحدة ، وكان هذا التحول من الوثنية إلى الإسلام حيناً إذ كانت الوثنيات قد أتبع

(١) ينسب الغزنويون إلى غزنة عاصمة ملكهم في بلاد الأفغان ، وكانوا سنة عشر حاكماً وشمكت دولتهم أفغانستان والبنجاب وبشاور وخراسان في فارس ، وأشهرهم محمود بن سبكتكين (٣٨٧ - ٤٤٢ هـ) الذي قام بنحو سبع عشرة حملة على الهند ضم بها إلى ملكه البنجاب وملتان وجزءاً من السند ، وله الفضل في تثبيت الإسلام في البنجاب وأطلق عليه لقب الغازي ، وأخذ أيضاً العراق الفارسي من البويهيين فحول إلى المذهب السني ، وضمت دولته أيضاً طخارستان وسجستان ، وجزءاً مما وراء النهر في الشمال ، ومع هذا التفوذ الواسع اكتفى هو وخلفاؤه بلقب سيد أو أمير يكتبونه على العملة وأبقوا للخليفة التفوذ الأعلى ، وضم يلاطه شعراء وعلماء منهم البيروني - أبو الريحان - والفردوسي صاحب الشاهنامه ، وهي ملحمة تقع في ستين ألف بيت ، فكافأ عليها بستين ألف درهم وكان يريد لها دنائير ففضب وهجر البلاد وهجا الأمر ، وقد أخلت الدولة في الضعف بعد هذا الأمر - ومحمود ابن سبكتكين هو أول فاتح للهند الحقيقية .

(٢) الدعوة إلى الإسلام / ٢٨٧ .

أساساً عن تقليد محت للرؤساء فكان الأتباع يتحولون بتحولهم ، ومن هذا ماحدث لشعب الجكهه Ghakher وهو شعب متبربر كان يسكن المقاطعات الجبلية شمال البنجاب ، وكان خشناً سبب للغزاة الأوائل متاعب كثيرة ، ولكنه تحول كله أخيراً إلى الإسلام^(١) وفعلت شعوب وقبائل أخرى مثل هذا الفعل ، فزاد بهم عدد المسلمين وثبتت أقدام الإسلام حتى عز اقتلاعه أو توهينه بعد ذلك وظل رغم قلة دعائه صامداً للتبشير المسيحي .

وخلفت الدولة الغورية في أفغانستان دولة الغزنويين ، واستمر ملكها حقبة قصيرة من سنة ٥٤٣ هـ حتى سنة ٦١٢ هـ (١١٦٣ - ١٢٣٢ م) فاستولت على الأقاليم التي فتحها الغرب من قبل ، وبسطت نفوذها حتى شمل الهند الشمالية كلها . وأثناء هذا التاريخ وبعده قامت دول إسلامية غير كبيرة ولا واسعة الرقعة عملت على توطيد الإسلام أيضاً - فأسرة الخلجيين Khiljis حكمت من سنة ١٢٩٠ - ١٣٢٠ م وأسرة تغلق حكمت من سنة ١٣٢٠ - ١٤١٢ م ، وأسرة اللوردوين من سنة ١٤٥١ - ١٥٢٦ م ، وأسر أخرى لم تكن عظيمة الأهمية ، ولم يكن معظمها ذا روح ديني ولاذا عناية بالجوانب الروحية ، وإنما كانت تعنى بجمع المال والضرائب ، وفي ظل إغضائها عن الجوانب الدينية استطاع التبشير المسيحي أن يكون له مراكز كان أكثرها لجماعات اليسوعيين والفرنسيسكان والكاثوليك ، واستطاع الإسلام أيضاً أن يأخذ مكاناً تلقائياً بين القبائل العديدة ، ولكن كالمعتاد لم تكن له رابطة جامعة .

وفي القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي - استولى على شمال الهند بابر شاه من سلالة تيمور لنك ، فأقام الدولة المغولية التي أفردت لها فصلاً خاصاً موجزاً وقد بسطت سلطانها على الهند كله تقريباً ، وكان بها حكام ذو ميول نحو الإسلام أو على الأقل حكام يرغبون في التعرف على حقيقته ، وامتد

(١) يجدر بالدرس أن يرجع إلى كتب تاريخ الهند ، ففي تفاصيلها أحاديث عن الإسلام ونشره ،

كما أن فيها أحاديث عن التبشير المسيحي .

عهدا حتى سنة ١٢٧٥هـ (١٨٣٧م) إذ استولى الإنجليز على الهند بالطريقة المعروفة التي بدأت بشركة الهند الشرقية ، وكان آخر ملوك المغول هو بهادر شاه الثانى الذى كانت مدة حكمه نحو ٢٢ سنة وبدخول الهند تحت الحكم الانجليزى بدأت صفحة جديدة للتبشير نذكرها بعد .

٣ - التبشير المسيحى فى الهند :

قصة التبشير فى الهند مما ينبغى أن يعرفه الداعية الإسلامى ، فهى فى واقعها تحمل رداً على المبشرين الذين يحلوا لهم أن يطعنوا الإسلام وأن يكيلوا له التهم بغير حساب ، فالذين يكررون دون سأم أن الإسلام فرض نفسه بحد السيف يجذبونه أخذ مكانه تلقائياً فى الهند والجزر التى حوها ، والذين يقولون أن إباحته تعدد الزوجة سهل قبوله لدى الشرقيين يجلبون أن الذين تزوجوا بأكثر من واحدة أقل من ٣٠%^(١) وأن المسلمين فى البنغال زادوا فى الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن التاسع عشر ثلاثة ملايين بينما زاد الوثنيون مليوناً واحداً^(٢) هذا مع أن الوثنيين يتزوجون من زوجات غير محدودات العدد ، وإذا نحن استعرضنا ما بذلت جمعيات التبشير من جهود بالغة فى نشر دعوتهم إزاء انتشار الإسلام من غير دعاة ، وجدنا دعوى الذين يحتجون لقوة المسيحية بأنها أكثر عدداً من الديانات الأخرى دعوى غير مقبولة لأنها كثرة لم تقم على طبيعة الدين وإنما قامت على الإغراءات المادية والدعايات وقوة الحكومات .

أما عن بداية المسيحية فى الهند فقد ذكرنا من قبل أنها تسلمت إليها فى ظروف غامضة ، وقد وجد البرتغاليون المستكشفون فى جنوب الهند جماعات مسيحية تنتمى إلى القديس توما ، ولكنها منقطعة تماماً عن البابوية فى روما

(١) الغارة على العالم الإسلامى / ٧١ .

(٢) نفسه .

ولا تعرف عنها شيئاً فأنشأوا لها صلة به^(١) وفي القرن السادس عشر - عصر النشاط البحري والتبشيري والاستشراقي - برز مبشرون كبار إليهم يعزى نشر المسيحية وإبرازها بين أديان الهند .

٤ - كبار ناشري المسيحية في الهند :

(أ) فرنسيس زافير F. Xavier (١٥٠٦ - ٥٢)

من أكبر وأشهر المبشرين في هذا العهد ، وهو من أصحاب لويولا السبعة الذين كونوا جماعة اليسوعيين ، ومن كبار الذين تزعموا الإرساليات الكاثوليكية في الهند واليابان والصين . ويمتاز بمحبة عاطفته وإخلاصه الشديد للدعوة المسيحية .

دخل الهند سنة ١٥٤٢ ، ودخل اليابان بعد عامين ثم انتقل إلى الصين ومات بها سنة ١٥٥٢ .

كانت بداية نشاطه في جوا Goa - وهي ميناء على الشاطئ الغربي ، وكانت قرية صغيرة فما لبثت أن نمت وصارت مدينة ذات ثراء وجمال ،

(١) Neil PP 148 - 51 .

ونسبة الدعوة هناك إلى القديس توما نسبة واهية لا يعمل عليها - وهو قد مكث هناك مدة طويلة ، ثم انتقل إلى فيشر كوست ويقال مات هناك ، وحيكت حوله أساطير من نسج الخيال ، ولكننا قدما ما كان للكيسة السريانية التي أطلق عليها اسم النسطورية الشرقية ، وسُميت أيضاً البروتستانية الشرقية وانظر تاريخ سورية ج ١/٢٣٦ ، وقارنه بما جاء في كتاب الدعوة إلى الإسلام / ٢٨٧ - ونضيف أن القديس توما مات بالهند ودفن في قرية قريبة من مدراس تسمى مايلاپور Mylapore وترجع القصة أساساً إلى نشيد سريلاني من القرن الثالث ، سمي « أعمال توما » « Acts of Tumas » وفيه قصة تذكر أن المسيح أراد أن يوجه الرسول توما للتبشير في الهند ، ولكنه لم يقبل واعتذر بأنه عبراني والهنود لن يقبلوا الحق الذي يأتيهم به ، فدير له المسيح مكينة بها بيع للرعى هندي كان قد جاء إلى أورشليم يبحث عن نجار ماهر - فاصطحب معه توما ، وهناك طلب منه الملك أن يبني له قصراً ، ولكنه صمم أن يبني له قصراً روحياً في السماء ، وقال أنه يبنيه من خلال الصدقات التي يوزعها الملك على الفقراء ، ولا يرى هذا القصر في الدنيا بل بعد رحيله عنها إلى الدار الآخرة ففضض الملك ثم أمر به فسجن - ولكنه أخيراً خرج بأعجوبة ورضى عنه الإمبراطور وتصرر وعمد ، ويأنف بعض المسيحيين من القصة خصوصاً لما بها من إجحاف بالمسيح فهو لم يكن من مديري المكابذ .

إذ انبعث فيها نشاط تجارى ، ووفد عليها عدد كبير من الأوروبيين ، ملاحين وأصحاب أعمال . وزحف إليها الهنود وغير الهنود لهذا الرواج الذى جد فيها ، وكثرت بها الأديرة والكنائس ، حتى صارت كالمدن الكاثوليكية فى شرق أوروبا .

كان سكان جوا يعرفون بسوء المعاملة ووضاعة الأخلاق والعادات ، ويرجع ذلك إلى أن كثرتهم من الأفاقين الفقراء ، وقد اختلطوا بالملاحين الأوروبيين فأشاعوا بينهم الفساد ، كان هؤلاء الملاحون قد غادروا زوجاتهم ، واستباحوا أن يتصلوا بنساء جوا اتصالاً غير شريف وبعض منهم تزوجوا وأنجبوا نسلًا ثم عادوا وتركوا زوجاتهم وأولادهم ، وامتناز هذا النسل المهجن بقوة البنية وضعف الأخلاق ، وجمع رذائل الهنود والأوروبيين ، وكان من الصعب لذلك أن يتقبلوا تعاليم المسيحية .

ولم يقم زافير بهذا التفرد إلا قليلاً ، ثم التحلر إلى الجنوب فوجد هناك قرى مبعثرة تقيم بها أقليات ساذجة ، ووجد جماعة قبلت المسيحية منذ ١٥٣٦م وهم قوم من البارافا (تكتب Paravas أو Bharathes) صيادون يقيمون على الشواطئ فى حالة تأخر حضارى ، ووجد أيضاً جماعات من المهاجرين خوفاً من الغزو المغولى . وقد التجأوا إلى البرتغاليين ليحتموا بهم ، فاشتراط هؤلاء فى مقابلة حمايتهم أن يعملوا ، فتعملوا ولكنهم تركوا بدون تعليم ولا إدارة بالمسيحية ، وبذا وجد زافير الطريق سهلاً أمامه ، فعمد منهم جميعاً نحو (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف شخص فى سنة واحدة ، ولكن لم يستطع أن يثبت ففهم تعاليم المسيح ولا تفهيمهم حقيقة المسيحية ، لاختلاف اللغة . وعجزه عن درس التاملية التى كانوا يتكلمون بها . وهى لغة صعبة ، ثم هم لسناجتهم وعدم ثقافتهم لم يستطيعوا فهم الفلسفة التى تقوم عليها المسيحية ، ولكن زافير كان ذا طريقة حسنة فى شرحه استطاع بها أن ينقل إليهم ما نقل . وكان ذا مقدرة على اجتذاب الشباب ، فعلمهم ثم جعلهم معلمين للآخرين ، وسهل انقيادهم إليه أنهم لم يكونوا يعرفون ديانتهم الأصلية .

وكان هناك قبله إرسالية يسوعية برتغالية ولكن الأهليين كانوا يكرهون البرتغاليين ، ويرونهم مستعمرين غاصبين ، فكان قصارى ما عملت إرسالياتهم أن هيأت الأذهان ، فكان لدى الشعب قابلية للسمع ، فأقبلوا على زافير ، وأهم ما ساعده هو تعلمه عدداً من لغاتهم ، فسمع منهم وخاطبهم بها وترجم إليها بقدر المستطاع .

ترجم لهم بعض الصلوات والأدعية ، كما ترجم الوصايا العشر ترجمة ناقصة هزيلة .

وأهم ما علمهم في هذا الوقت أنه منعهم من الصيد يوم السبت وأحضرهم إلى الكنيسة ليرتلوا ما ترجم لهم من الأناجيل بلغتهم فكانوا يفرحون بذلك . وفرض عليهم أن يدفعوا للكنيسة مقداراً من صيدهم في يوم الجمعة ولكنه لم يحلده .

وبوجه عام استطاع أن يوقظ الكنيسة هناك وأن يبعث فيها نشاطاً ، فكان على الشاطيء ١٦ قرية في كل منها آب جزويتى . وبهذا تفوقوا على البرتغاليين الذين أنف الناس معاملتهم الخشنة . وقد ترك في مذكراته وصفاً للهنود قرياً من الوصف الذى تحدث به حكيم بن جبلة إلى عثمان بن عفان ، إذ وصفهم بالخشونة والجهل والتأخر .

كان الغزو المغولى قد سبق زافير إلى الهند بنحو ستة أعوام ١٥٢٦ ، ولم يصل إلى هذه السواحل ، واستمر المغول حتى سنة ١٨٥٨ ، وكانوا حجر عثرة أمام المسيحية حال دون امتدادها إلى الداخل لأن المغول اندمجوا بالأهليين أكثر من الأوروبيين وأكثر من الإنجليز . وعلى أى حال كان زافير رائداً للتبشير المسيحى قام بعمل كبير ، وقد مهد به للذين جاؤوا بعده . وانتقل إلى اليابان فدخلها سنة ١٥٤ - فإقامته بالهند كانت نحو عامين^(١) .

(١) أنظر Neil في صفحات ١٤٨ وما بعدها .

(ب) متى الكاستروى Methow de Castro :

وهو شيخ عجيب كان يتسم بشدة التعصب المذهبى بين قواد الإرسالية المسيحية وهو هندى برهمى النحلة وبلدته قريب من «جوا» دخل المسيحية ، وأراد أن يحصل على اعتماد من أسقف «جوا» فلم يثله ، وقيل أن سبب رفضه هو أن البرتغاليين يكرهون البراهمة ، فذهب إلى روما حيث أمضى عدة أعوام فى الدراسة واعتمد داعية برتبة قسيس فى سنة ١٦٣٠م وأرسل إلى الهند ليكون مبشراً بين قومه ، ولكن هذا لم يكن ميسراً له أيضاً ، إذ أقام اليسوعيون البرتغاليون أمامه عقبات عجز عن تذليلها ، فرجع إلى روما سنة ١٦٣٦م وأبدى من الإخلاص والتوسلات ما أمكن به أن يعين أسقفاً بطريقة سرية ، وتقرر إرساله داعية فى اليابان ليعلم الهنود الذين هناك إذا قبلت اليابان ، ولكن أسقف «جوا» مرة ثانية رفض قبوله أو الاعتراف بتعيينه ، واضطر مرة أخرى أن يرجع إلى روما ليشرح موقفه للبابا بنفسه ، فأرسله إلى الحبشة ، وفى سنة ١٦٥١م عاد إلى الهند يثير العداء السافر والوعيد للبرتغاليين جميعاً ولجميع اليسوعيين الذين أدخلوا بلدهم يثرون المنفرات منه ، بل ويكيلون له الشتائم الوقحة حتى وصفوه بأنه خنزير برى ، وتوالت الشكاوى ضده إلى روما ، وكانت النتيجة أن جرد من لقبه نهائياً ، ومات سنة ١٦٧٧م ولا يزال مقدراً من رفاقه القسس منكوراً من الآخرين .

ولإزاء هذا الموقف يثار التساؤل عن اختياره أسقفاً يحمل الروح المقدس ثم انتزاع اللقب والروح منه مجرد غضبة أسقف آخر أو جماعة عليه . كأن القداسة حلة يكسبها الشخص حيناً ثم تنزع منه ، ونذكر بجانب ذلك من أوائل المسلمين سلمان الفارسمى الذى كان مجوسياً أول أمره ، واعتنق المسيحية حيناً ثم دخل الإسلام فكان - بعد الذى قاساه فى سبيل الإسلام - سيداً من سادات المسلمين وإماماً ، لم نُحل مجوسيته أو مسيحيته دون سيادته ، ونذكر كلا من بلال وصهيب ، وكان عمر يصف بلالا بالسيادة فيقول : أبو بكر سيدنا وأعنت سيدنا .

(ج) روبرت النوبيل (R. Nobily) :

والشخصية الثالثة التي نذكرها هي شخصية روبرن النوبيل (R. Nobily) (١٥٧٧ - ١٦٥٦م) وهو يسوعى إيطالى ، أرسل إلى الهند فى سنة ١٦٠٥م فنزل أولاً فى فيشر كوست Fisher Coast فعمل على أن يتعلم اللغة التاميلية فأجاده فى شهور قليلة ، ثم أرسل إلى مقاطعة مادوراي Madorai حيث أنفق نحو خمسين عاماً دلت أعماله خلالها على أنه أول رائد ذى مهارة فى قدرته على نشر المسيحية بين الهنود ولكن طريقته لم تكن مرضية ؛ لأنها قامت على شيء من الخديعة ، رأى أن الهنود يكرهون الأوروبيين ، ويعتبرونهم مستعمرين مستغلين ، وكان فى مادوراي إرسالية برتغالية تحت رئاسة قس يدعى فرنانلز البرتغالى ، وكان بغيضاً أو غمراً مقبول لأنه أراد الهنود أن يكونوا برتغاليين ، لا مسيحيين فقط ، وقد استجاب له بعض من المهاجرين من «فيشر كوست» ويظهر أن ذلك كان من آثار زافيير ، أما نوبيل فاستفاد من طريقة زافيير الذى درس التاميلية إلى قدر لا بأس به ، فدرسها هو درساً كافياً ساعده على درس فروع أخرى من المجموعة الدارفيندية ، والتاميلية أقدمها وتمتاز بأن لها أدباً كلاسيكياً ، وأجرومية خاصة ، ولكنها تحوى كلمات كثيرة من السنسكريتية . كان سكان جنوب الهند الذى بشر فيه فى هذا الوقت ذوى ميل إلى السماع والتلقى ، وكان الذين تحولوا إلى المسيحية ، ولم يجنوا لدى فرنانلز ما يشبع رغبتهم بحاجة إلى أن يسمعوا جديداً يبتلون به ، ووجلوهم فى نوبيل ، وكذلك كان المهاجرون من فيشر كوست .

والوسيلة التى اختارها نوبيل أو على الأصح الخديعة التى لجأ إليها هى أنه تظاهر بمظهر البراهمة ، فحرم أكل لحوم الحيوانات ، ولبس الأحذية الجلدية احتراماً للحيوانات - كما يفعل البراهمة ، ولم يطلب من الذين يدخلون المسيحية منهم أن يتخلوا عن مظاهرهم أو حتى يتركوا عباداتهم ، وقد حلق رأسه وأبقى به قنطرة فى أعلاه ، وربطها بخيط ينسدل على ظهره كما يفعلون . وفتن الناس به ، وأقبلوا عليه ليسمعوا تعاليم المسيح . وأحياناً كان يجرى على طريقة

سقراط ، فيعقد مناقشات مع الناس في الطريق فلا يلبثون أن يلتفوا حوله ، وقد استطاع أن يتصّر عشرة من الشبان خلال عامين من إقامته .

وأخيراً وشى به أنه برتغالي يخدع الناس ، وكان البرتغاليون والفرنسيون يُسمّون الفرنجة ، فبدأ الناس ينفضون من حوله ويضايقونه ، ولكنه أخذ يرى نفسه ، وكتب تَبَرُّثَه على قطعة من الخشب ثبّتها على شجرة أمام بيته^(١) أعلن فيها أنه من روما ومن أسرة ذات ثراء - وكان كذلك حقاً - فكان الناس يقرأون اللوحة ويناقشونه ، فيؤكد لهم أنه ليس من الفرنجة .

وقامت عليه غضبة أخرى من الكنيسة في روما . إذ رأى رجال الكهنوت أنه حرف المسيحية ، وأدخل فيها هرطقته ، وأنه جنح إلى البرهمية أكثر مما جنح إلى المسيحية .

وعلى أي حال نوبيلي مقدّر لمجهوده الكبير الذي بذله ، فهو أول فرد يدرس اللغات الهندية القديمة ، وقد أتقن التاميلية والتلوجية Telugu - إلى جانب السنسكريتية ، وعلى معرفة اللغات الهندية قام مجد ماكس مولر Max Mullar - في العصر الحديث^(٢) .

قطع نوبيلي نفسه للتعليم ، وابتعد نهائياً عن الكنيسة ليقنع سامعيه أنه ليس من الفرنجة وأنه معلم يدعو للإصلاح - ودارت تعاليمه ومحاوراته حول وحدانية الإله . ومصدر الخلق ، وقد اجتذب إلى المسيحية أو إلى العقيدة التي يدعو إليها جماعات من مختلف الطبقات ولكن الذين دخلوا من الطبقة الدنيا كانوا أكثر . وكل أولئك بعد هذا المجهود لم يعرفوا المسيحية على حقيقتها ، بل حصلوا على معلومات عنها ، وحيث أنه لم يقطعهم عن عبادتهم القديمة ولا عن معابدهم فمسيحيّتهم ليست مسيحية ، ثم إن كل أعماله كانت عرضة للضياع حين وشى به بعض الصيادين أنه برتغالي متنكر .

(١) لم يكن الورق معروفاً لدى هؤلاء القوم ، وكانوا يكتبون على الأحجار وقطع الخشب والعظام كما كان يفعل العرب القدامى .

(٢) قال ماكس مولر عنه إنه أستاذة .

وفي سنة ١٦٤٥ دعت الكنيسة في روما لتناقشه في أعماله ، ولكنها أخيراً وافقت على طريقته إذا لم يكن لدى المنتصر نزعة وثنية ، وهو نفسه كان يجرى على هذا المبدأ . ورجع إلى الهند يواصل عمله ، ومنذ سنة ١٦١٠ كان يعاني ضعف الجسم ، وشدة الفاقة ، ومات على هذه الحال ومهما يكن من أمره فهو مثل جيد لطول المثابرة وشدة الإخلاص وبذل الجهد^(١) .

٥ - في عهد الحكم الإنجليزي :

تسلل الإنجليز إلى الهند عن طريق « شركة الهند الشرقية » وكانت لهم أصابع في سياستها أواخر العهد المغولي ، ثم ثبتت أقدامهم بها سنة ١٨٣٧م ، وكان الشائع المعروف - ولعل ذلك كان في عزم الإنجليز أيضاً - أن يبقوا بها بقاءهم في الجزر البريطانية وخضعت طوائف الهند العديدة لهذه القوة الغاشمة عدا المسلمين ، فهم يرون أن الإسلام دين الناس كافة ، وأن عليهم نشره والتعريف به ، وأن لله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ، وبهذه المشاعر الإسلامية كانوا يترقبون خروج الإنجليز من الهند قريباً أو بعيداً . وكان الإنجليز يدركون آثار هذه العاطفة ويخشون ماينجم عنها من متاعب لهم ، فعملوا على إضعاف الإسلام كما عملوا على تنشيط حركة التبشير وقد تحدث كبار السادة الإنجليز عن خطر الإسلام إزاء موقفهم الاستعماري في الهند وفي غير الهند ، وأثرت لهم عبارات تنم عن الغيظ ، وأمسك وزير الخارجية يوماً بالمصحف في يده أمام أعضاء البرلمان ، وقال : لابقاء لنا في الشرق مادام هذا الكتاب يتلى بين المسلمين ، وقال أحد اللوردات في المجلس : ليس في وسعي أن أغمض عيني عن اليقين بأن هذا المنتصر الإسلامي عدو أصيل العداوة لنا ، وأن سياستنا الحقبة ينبغي أن تتجه إلى تقريب الهنديين^(٢) ، ونادى غير واحد من الإنجليز بوجوب التفرقة بين المسلمين والهنود في إدارة البلاد .

(١) مستخلص من Neill ص ١٨٣ - ٨٢ .

(٢) الإسلام في القرن العشرين / ٦٩ .

وظهرت هذه العزلة تدريجياً في صور وأعمال مختلفة ، منها عدم تولية المسلمين وظائف عالية في البلاد ومنها حرمانهم من ملكية الأراضي الزراعية ، ومنها ترك المدارس الحديثة للإرساليات التبشيرية ، وكان هذا ينتج عمليتين مختلفتين في وقت واحد ، إذ بينما حرم المسلمون من مناهج التعليم الحديث لأنهم لا يسمحون لأولادهم بدخول مدارس التبشير ، زادت الدعاية من هذه المدارس ، وكثر فيها الطعن على الإسلام وفقاً لما تقوم عليه مناهجها ودراساتها اللاهوتية ، وهذا في الواقع ما جعل المسلمين ينجرون دخول هذه المدارس .

ولإزاء ضيق الهنود بالاحتلال الإنجليزي ، ورغبتهم في تحرير بلادهم فشت بينهم فكرة التخلص من كل ما هو دخيل عليهم واعتبروا اللغة العربية والأوردية من اللغات الأجنبية ولكن هذه الفكرة لم تستطع الحد من اللغة الإنجليزية لأنها اللغة الرسمية المستعملة في مكاتب الحكومة وأعمالها ، وعملت الحكومة الإنجليزية على تشجيع الكنائس الإنجليكانية وإن لم تقف في سبيل الكنائس الأخرى ، ويعتبر هذا العصر بحق عصر سيادة المسيحية ونشاطها في الهند ، ولكنه مما خيب آمال الدعاة أن عملهم كان للمهاجرين أكثر مما كان للوطنيين ، وأن دخول الهنود في المسيحية أقل بكثير مما توقعوا .

وكانت الكنائس البروتستانتية أيضاً ذات انتشار واسعة ، وكانت الكاثوليكية البرتغالية في وضع إستراتيجي شديد الركود ، فظلت كنيسة روما أكثر من قرن لا تستطيع أن تتخذ لها مكاناً بين الكنائس الأخرى ، وكان بينها وبين كنيسة البرتغال مضاربة ، وبين الإرساليات جميعاً تنافر غير منقطع ، والهنود معروفون بشدة جمودهم على دياناتهم ، وقد نال البراهمة كثيراً من المحاباة والامتيازات في العهد الإنجليزي بما وضع في أيديهم من الأراضي الزراعية بينما حرم منها المسلمون ، ومع ذلك لم يقبلوا على المسيحية .

وفي حكم الإنجليز الطويل الأمد لم تحدث وحدة كالتى حدثت في عهد المغول ، بل عمل الإنجليز على شيوع التفرقة العنصرية وإذكاء التناحر الديني ، ولكن اللغة الإنجليزية شملت الهند كله ومع ذلك ، ظلت الإرساليات المسيحية

تعالى الغربية وقلة الإقبال من الأهلين لأنهم اعتبروا الإرساليات أعواناً لحكومتهم المستعمرة ، وليسوا مساعدين للشعب في شيء .

وفي سنة ١٩٤٧ قسمت الهند واستقلت باكستان دولة مسلمة ، وكانت المذابيح في هذا الوقت عنيفة ومستمرة بين الطوائف الدينية حتى أنه في خلال مدة أقل من شهر قتل نحو ثلاثة أرباع مليون شخص ، وبينهم مسلمون ومسيحيون ، واستقدمت إرسالية لندن المسيحية أطباء وممرضات وأدوية ومساعدات اجتماعية أخرى ، ومع أنها جاءت أساساً من أجل المسيحيين كانت تقدمها للآخرين أيضاً ، فكانت هذه أول فرصة ظهرت بها المسيحية خادماً للإنسانية ، واستطاعت أن تتقرب بعض التقرب من الشعب ، وبعد أن تم التقسيم كان عدد المسيحيين في باكستان ضعيفاً جداً ، وكان في الهند كنائسها وبينها كنائس كاثوليكية رومانية ولكن زيادة المسيحيين ظلت نادرة .

وعندما استقلت الهند أعلنت أنها دولة لادينية ، ولكنها لم تأمر بإغلاق المعابد فظلت فرصة الدعوة متاحة للإرساليات ، ونقل المسلمون إلى باكستان ، وبقيت قلة منهم لتعاني ضغطاً وضيقاً ، وكان أول رئيس للوزراء في الهند هو « جواهر لال نهرو » ، هذا الفيلسوف الذي لا يؤمن بدين ، فأعلن في خطبة له أن الدين لم يعمل شيئاً لبلاده غير أنه آذاها وشوه تاريخها بين بلاد العالم ، وأنه يتحتم اختفاؤه نهائياً بكل سرور . وكان أول وزير للصحة سيدة مسيحية معروفة بتعصبها وهي السيدة راج كومار Raj Kumare ولكن وضع المسيحية لم ينل تقدماً أيضاً ، وظلت الإرساليات تواصل أعمالها معتمدة على المغريات المادية ، متظاهرة بأنها تعمل بدافع الرحمة الإنسانية ولكن كان الهنود يذهبون إلى مستشفياتهم ويسمعون عظائهم ولا ينضمون إليهم ، وأنجح ما عملت الإرساليات أنها كانت تلتقط الأطفال الذين نالت منهم الفاقة وال فقر فتضمهم إلى مدارسها وملاجئها ثم تنشئهم على المسيحية .

أما باكستان فكان المسيحيون بها يمثلون نحو ١٪ أو أقل قليلاً ، وبلغ عددهم في القطر كله ٢ مليون شخص تقريباً ، بينما هم في الهند كلها نحو ٣٪ .

٦ - موقف الإسلام :

لم يذبل الإسلام أو يقض عليه نهائياً خلال هذا العهد ، بل قام له دعاة متفرقون عملوا جهدهم على حفظه ، ورغم كل المضايقات التي واجهته اكتسب أنصاراً وزاد عدداً أكثر من المسيحية وكان هذا مما يضابق الحكام الانجليز ويدفعهم إلى خلق عقبات في طريقه ، ولم يكن ما أصاب المسلمين هو الضغط الانجليزى أو العداء الطائفى فقط ، بل الذى منوا به أكثر - منذ زمن طويل - هو العزلة الفكرية بجانب تقدم الآخرين عقلياً بانتاقهم إلى المدارس الحديثة ، وكان التزمت ونحريم الكثير من المباحات مما ضيق آفاقهم العقلية ، وظهرت دعوة المصلح الكبير أحمد خان (١٨١٧ - ١٨٩٨)^(١) رد فعل لهذه الحالة ، فدعا المسلمين أن ينهلوا من ثقافة الغرب ، وأن يتشبعوا بالعلوم الحديثة ، وبين أن هذه الثقافة تخدم الإسلام ولا تضره ، ودعا إلى ترجمة الكتب الانجليزية إلى الأوردية ، وأنشأ جامعة عليكرة على نظام حديث يعنى بالتربية الإسلامية والأخلاقية وحاكى فيها جهده جامعات إنجلترا ، وأنشأ صحيفة تهذيب الأخلاق ، فكان عمله في جملته تطويراً للفكر الإسلامى وتوسعة لآفاق العقلية الهندية المسلمة ، وعاصره سيد أمير على وكان له اتجاه إصلاحى آخر ، وقد ألف بالإنجليزية « تاريخ العرب » و « روح الإسلام » ولقى كل من الرجلين متاعب كثيرة لأن عملهما كان أدنى إلى الوثبة ، ولكنهما أفادا الحركة الإسلامية فائدة تقابل حركات المبشرين .

ولم يكن مسلمو الهند رغم قيود الانجليز وسلوودهم - منبتين عن حركات الإصلاح فى الشرق الأدنى ، بل استفادوا من دعوة محمد بن عبد الوهاب ، ولعلها صادفت قبولاً لديهم أكثر لما تحرمه من مظاهر الوثنية أيا كانت ، فوجدوا بها ما يشجعهم أمام البوذية والوثنيات الأخرى ، واستفادوا أيضاً من الدعوة السنوسية ، لأن السنوسية مستفيدة من الوهابية ، وامتدت إليهم دعوة الشيخ محمد عبده فى مصر ، ثم قامت لهم مراكز للدرس الدين الإسلامى تختلف درجاتها فيما تدرس منه .

واشتهر فى الهند جماعة النلووين ، ومركزها هو ندوة العلماء فى لكهنؤ ،

(١) راجع ماكتبه عنه المرحوم أحمد أمين فى كتاب زعماء الإصلاح -

وفي باكستان جماعة العلماء المسلمين ، وفي كلا الإقليمين مدارس لتعليم اللغة العربية وهناك مطابع أخرجت بعض الكتب العربية والانجليزية ، ولا يدرس الدين الإسلامي في الهند إلا في مدارس قليلة يدرس ضمن الديانات الأخرى . وجامعات الهند كلها عدا جامعة عليكرة جامعات علمانية .

ولا تزال اللغة العربية ضعيفة قليلة الانتشار حتى في باكستان وبنجلاديش ، وهذا طبيعي مادامت اللغة الرسمية هي الانجليزية ، ومتكلمو العربية والمسلمون قلة ، ومنذ قسمت البلاد ظلت كشمير موضع نزاع ، والمسلمون بها كثرة وبها مساجد عظيمة ذات روعة ولكن الفكرة الإسلامية لا تزال ضعيفة لضعف اللغة العربية ، وقد آذى الانجليز مسلميها كثيراً . وعملوا على تشجيع الدعوة القاديانية لأنها في حقيقتها هدم للإسلام .

وإذا وازنا أخيراً بين نشاط المبشرين المسيحيين ونشاط المبشرين المسلمين وجدنا أن ما يبذله المسلمون ضئيل جداً ، فعقب وصول الإرسالية التي بعثت بها جمعية لندن ، وعلى رأسها المبشر الكبير كارى تتابعت إرساليات أمريكية واسكوتلاندية وهولندية ونرويجية وألمانية ... وغيرها ، عدا بعثات الكاثوليك من إيطاليا والبرتغال^(١) وكلها من زمن غير قريب اهتمت لمنهج تجرى عليه الآن جميع الإرساليات في شتى البلاد ، وهو التقاط الأطفال الفقراء ، الذين يسهل أن يجلبهم رغيف العيش فينشئونهم على طريقتهم الخاصة ، إذ يلقنونهم مبادئ المسيحية وحب المسيح وكرامة الإسلام .

والميزة الحقة للإسلام أنه انتشر أولاً في الهند بسبب مبادئه وصفاته الإنسانية ، ثم أنه ثبت بعد ذهاب حكوماته ، وقد مر على الهند أجناس عديدون ملكوها وسيطروا عليها زمناً ثم ذابوا ولم يبق لهم أثر ، أما الإسلام فلذهبت حكومته وبقيت فكرته واستمر أتباعه لا تستطيع الهند ولا مستعمروها تحديد أفكارهم أو زحزحتهم عنه ، وكما لم تتخلص أسبانيا من المسلمين إلا بطردهم من البلاد لا يتخلص المبشرون منهم إلا بتكوين جيل جديد من الفقراء الأطفال ، وصغار الدماء الذين لا يعرفون للدين معنى ، وبوجه عام يشتركون هؤلاء المعدمون برغيف الخبز .

(١) انظر الفقرة على السلم الإسلامي ص ١٣ .

ثانياً : في عهد الدولة المغولية

١ - مقدمة تاريخية عن الإسلام والمسيحية في الدولة المغولية :

يقتضى الحديث عن لقاء الإسلام والمسيحية في الجانب الشرقى من الدولة الإسلامية أن نلم إلى المأمة عابرة بتاريخ الدولة المغولية ومواقفها أراء الديانات الكبرى هناك ، وليس هذا مجرد إطلاع الداعية الإسلامى أو القارىء أيأ كان على هذه الأحداث ، ولكنى رأيت غير واحد ممن كتبوا عن تاريخ التبشير الإسلامى والمسيحى أغضوا عن بعض المواقف التى تهم الداعية الإسلامى والتى تدل تلقائياً على قوة هذا الدين الذاتية وقدرته على الصمود بما يمتاز به من منطق ووضوح وقد تحاشى العالم الكبير بروكلمان أن يذكر الفظائع التى عملها جنكيز خان^(١) وقال : أن حفيده هولاكو أبقى على بغداد ، وحين تحدث ستيفن نيل عن نشر المسيحية فى الهند والصين وماحول هذه الجهات تحاشى وهو مبشر مسيحى كبير - أن يذكر أى شئ من حسنات الإسلام ، وعزا إلى الملك أكبر المغولى جمود العقل وتحجر العقيدة ، ولا يتضح الحديث عن هذه الدولة إلا بذكرحة من تاريخها .

كانت قبائل المغول - وقد تسمى التار^(٢) - تنقسم إلى وحدتين من البدو والرعاة ألقت إحدهما التنقل حول الإمبراطورية الصينية غرباً ، وتقيم الثانية فى الشمال وتعتمد فى معاشها على قنص الحيوانات وصيد الأسماك إلى جانب ما لها من ماشية ، وعرف الجنس كله بالشراسة والعنف وكانت جماعاتهم تمتد من سيبيريا إلى منغوليا الحالية ، وكانت ديانتهم هى الديانة الشامانية ، وهى ديانة تؤمن بوجود إله أعلى ، ولكنها لا تتجه إليه فى عبادتها ، وإنما تتجه إلى عبادة آلهة عديدة دونه ومنها آلهة الشر لأنها بعبادتهم إياها لا تنالهم بسوء وقد تنال به

(١) أنظر تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٨١ وما بعدها .

(٢) ربما كان اسم التار أسبق من اسم المغول ، إذ لم يتم هنا إلا فى القرن العاشر ، واسم للمغول والمنغول جاء من سكانهم منغوليا ، وأطلق الصينيون عليهم اسم التار - وهو اسم مذكور فى نقش أرخون العريق فى القدم (بروكلمان/ ١٣٨١) .

أعداءهم ، وشأن الديانات البدائية كانت تدين بالطوطميات وعبادة الأسلاف ، واتصل دعاة النسطورية ببعض هذه الجماعات فنصرت قبيلة كانت تسمى « الكرايت » فنهت بينهم فكرة الديانة المسيحية بوجه ما .

ومن القبائل التي تعيش على الصيد جاء جنكيز خان (١١٥٥ - ١٢٥٧ م) واسمه الأصلي تموجين ، ولكنه بسبب انتصاراته وشجاعته لقبه أحد الكهنة الشامانيين بهذا الاسم .

كان هذا الشاب بما أوتي من صفات المغامرة والشجاعة ذا قدرة على جمع الأتباع حوله . فحارب بهم فروع القبيلة الأخرى لأسباب تدرع بها ، واستطاع أن يخضع قبيلة كبيرة من المنتصرة فخلع عليه الكاهن الشاماني هذا اللقب سنة ١٢٠٦ ومن ثم كون له مملكة واختار جنداً دربهم بنفسه بلغوا عشرة آلاف من الأشداء الأقوياء ، وحارب بهم الصين عدة مرات ثم فتح بكين وفي العام التالي وجه ابنه لفتح بلاد فارس فاحتك بشاه خوارز ، وظل الموقف بين الطرفين يتأزم مرة ويلين أخرى حتى صمم جنكيز جان على غزو الدولة الإسلامية^(١) .

كانت الدولة الإسلامية تحت حكم الخليفة الناصر - آخر الخلفاء ذوى الدكاء والتدبير ، وكانت حكمته قد خائته إذ أغرى حاكم خوارزم بطغرل بك آخر السلاجقة فقضى عليه حقاً ولكنه أراد أن يستبد بالملك ويقضى على الخليفة نهائياً ، وخلفه ابنه علاء الدين محمود فصمم على إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية ، ولم يعقه عن الهجوم على الخليفة إلا برد الشتاء فتريث بحيشه إلى العام المقبل فكان هجوم المغول عليه^(٢) وكان قد حدث من قبل أن تبادل الطرفان المراسلة فأرسل خوارزم شاه بعثة إلى الخان يريد بها أن يستطلع

(١) أنظر « المغول في التاريخ » للدكتور فؤاد عبد المعطى الصياد - ج ١ / ١١١ - ١٣٨ .

(٢) لم تكن كلمة « المغول » لقباً لقبيلة جنكيز خان ولكن الصين كانوا قد قتلوا جماعة لهم هذا الاسم فلذهب ليعتقم لهم ، فعملت جماعته اسمهم .

موارده ، فحور أعداء الخليفة نبأها وقالوا أن الخليفة هو الذى بعث بها إلى جنكيز خان يستنجد^(١) ، وكانت الظروف كلها مهيئة لهذا الغزو .

انصب هؤلاء القوم كالسيل المتدفق بخيولهم السريعة ومهارتهم الحربية ووحشيتهم البدوية فكانوا يخربون ويحطمون كل ما يقابلهم ، فاكسحوا المراكز الإسلامية وأفسدوا نفائسها بالإتلاف والإحراق ، وداسوا المصاحف والكتب وخربوا القصور وأفسدوا حدائقها ، واتخذوا المساجد اصطبلات لخيولهم ، وقد وصف ابن الأثير هذه الحوادث وصفاً مخزناً وتمنى لو أنه كان قد مات ولم يرها^(٢) .

وبعد أن فرغ جنكيز خان من هذه التخريبات استراح قليلاً فى البوادر التى أخضعها ثم كان يتبها لغزو مملكة « التتكت » بين الصين الشمالية والجنوبية فمات قبل أن يصل إليها وكان له أولاد أربعة أكبرهم جوجى الذى كان وجهه لمخارية خوارزم شاه محمد - ثم جغتاي ، ثم اجتاي ، ورابعهم تولوى . وطبقاً لعادتهم قسم مملكته بينهم قبل موته^(٣) فأثر الابن الثالث أجتاي Ugu Tay بالجزء الشرق من الإمبراطورية ، وأعطى ابنه الأكبر باتوين جوجى الجزء الغربى ، فسمى نفسه خان القبيلة الذهبية ، وكان يريد أن يستقل به عن أبيه لكنه مات قبله وبقي القسم لأولاده ، وملك الابن الثانى جغتاي الجزء الأوسط ، وجكهم الرابع بلاد فارس ، ولكل منهم موقف من المسلمين^(٤) وبعد أن استقر القوم وفرغوا من حروبهم وجدوا أنفسهم أمام مدنيات قديمة وديانات راقية ، وكان أوسعها انتشاراً هى البوذية والمسيحية والإسلام ، ولانت عريكة جنكيز وعامل رؤساء الأديان معاملة حسنة ، فأعفاهم من الضرائب

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ٢٨٤ .

(٢) راجع حوادث سنة ٦١٧هـ فى ابن الأثير وانظر النجوم الزاهرة ج ٦ / ٢٤٨ .

(٣) كانت هذه عادة شائعة فى العصر الوسيط بين ملوك الغرب ، بينما كان الفرس يعينون ولداً

للمهد .

The outline of History. by S. H. Weats. V2p 573.— 81.

(٤) راجع

ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم ، وطمع رؤساء هذه الديانات كل في جذبه إلى دينه ، وكان يسمح بإقامة المناظرات بين بعضهم وبعض وبينهم وبين قسس الشامانيين ويستمع إليهم .

وتنافست الديانات الثلاث في التقريب لهذا العاقي الجبار آملة كسبه ولكنه مات على وثنيته ، وفي عهد حفيده قويلاى (١٢٥٧ - ٩٤) غزت البوذية بلاد الصين ، وخلال قرنين كانت قد استقرت نهائياً وصارت ديانة الغالبية في الجزء الشرقى من الإمبراطورية المغولية .

أما المسيحية فإن التساطرة كانوا قد نقلوها إلى تلك البلاد منذ القرن السابع ثم ارتبطوا بجنكيز خان وبعض أبنائه برابطة المصاهرة ، وكانت قبيلة القرايت Kara'its التتارية التى تعيش جنوب بحيرة بيكال قد تنصرت من قبل ، فلما غزاها جنكيز خان تزوج بنت رئيسها ، وتزوج ابنه اجتاي منها أيضاً ، وكان كيوك ابن اجتاي ذا عطف على القسس وكان رئيس وزرائه وبعض كتابه من المسيحيين ، وقد كانت الظروف المحيطة برؤساء المغول تهىء لقبول المسيحية ونشرها بينهم وكان ملك أرمينية مسيحياً مقرباً لدى حفيده جنكيز خان ، وكان له أصبع أو كل الأصابع في توجيه هولاكو (١٢٥٦ - ٦٥) بحملته العنيفة التى دمر بها بغداد سنة ١٢٥٨م (٦٥٦هـ) وكانت زوجة هولاكو مسيحية نسطورية وكانت ذات سلطان على قلبه ، وتأثيرها كان يعطف على المسيحيين . وبعثت هذه الحال في نفوس مسيحيي أرمينيا أملاً كبيراً في تنصير المغول ، وكان رئيس قبيلة القرايت يدعى القديس يوحنا ، وقد أحبط اسمه بكثير من المبالغات والأساطير ، وتطاييرت أحاديثه إلى الأوروبيين ، وأشيع لديهم أن أمراء المغول تنصروا ، فأرسل البابا أنوسنت الرابع (Inno cent IV) وقدماً من القسس إلى كيوك بن اجتاي ، كما أرسل القديس لويس وقدماً أيضاً لاستحثاث الخان الأعظم على نشر المسيحية ، وكانت هذه الوفود كلها ذات آمال عريضة في قضاء المغول على الإسلام لكنهم أصيبوا بخيبة الأمل عندما رأوا أن الذين اعتنقوا المسيحية قليلون ، وأن أمراء المغول لم يتنصروا كما كان يشاع لديهم .

مع كل هذا كانت الفرصة سانحة لأن تحرز المسيحية كسباً كبيراً وخصوصاً أن عدداً من المغول كانوا قد تزوجوا من مسيحيات ، ولهن عليهم تأثير لكن رسل المسيحية كانوا من جماعات شتى مختلفة متناحرة فنزعوا ثقة الناس منهم وفشلت إرسالياتهم ، وأفسح إخفاقها الطريق للدبائتين الآخرين النوذية والإسلام ، وفوق كل ذلك كان القسس النسطوريون يتسمون بالجهل الفاضح وسوء السيرة والانغماس في اللذات الجسدية والجشع المادى ، وهكذا خسرت المسيحية موقعها في الجزء الشرقى من المملكة المغولية .

وأما في الجانب الغربى فإن المسيحيين كانوا قد ابتهجوا وتفاءلوا بما أصاب المسلمين من هجمات المغول فعدلوا حلفاً مع ايلخانات^(١) فارس أملوا به أن يزيلوا المسلمين من الأراضى المقدسة في الشام ، ولكنه كان حلفاً قصير الأمد ، فإن الظاهر بيرس السلطان الملوكى في مصر تحالف مع رئيس القبيلة الذهبية « بركة خان » ، فحال ذلك دون المساعدة المأمولة ، ثم أن المغول الذين جاءوا إلى سوريا ساءهم مارأوا من سلوك المسيحيين فلم يروهم أهلاً للمساعدة .

وخلاصة الموقف المسيحى مع المغول أنه برغم ما بذل المسيحيون من جهد واهتمام كانوا هم سبب الفشل الذى أصابهم بمجهلهم بشئون دينهم وبسوء سلوكهم وانحطاط أخلاقهم . وقد ذكرنا في حديثنا عن الغزوات الصليبية شيئاً من سوء سيرتهم وهمجتهم ، وقد كان الظاهر بيرس هو الذى قضى على الصليبيين وعلى هذه المؤامرة^(٢) .

وسنجد في حديثنا عن التبشير أن القرن الثالث عشر أصاب المسيحية بصدمة لم تكن تتوقعها ، وأن الإسلام فجأة ظهر وفشا بينهم .

(١) ايلخان تتكون من أول بمعنى (قبيلة) وعان بمعنى رئيس أو ملك ، فهى تعنى رئيس القبيلة ، وأول من تسمى بهذا الاسم هولاكو ، وانتقل بعده إلى الفرس .
(٢) راجع حديث الصليبيين في كتاب « الإرساليات التبشيرية » .

خلافات أسرة جنكيز خان :

قدمنا أن هذا السفاح قسم مملكته بين أولاده الأربعة ، وقد أراد ابنه الأكبر جوجى أن يستقل بنفسه وبما زاد فيه من فتوح ، وفكر أبوه في حربه وإخضاعه بالقوة لكنه مات قبل أبيه بشهور فورثه أخوه جغتاي الذي كان مع ذكاته وفهمه طبعاً ، فساء ذلك أبناء جوجى ، كما أستاذ الآخرون من تولية أجتاي على الجزء الشرقى ، وهذا أيضاً مات سنة ١٢٤١ وربما أول ١٢٤٢ فنشب بموته خلاف بين الورثة .

ومن قبل ذلك فى سنة ١٢٣٥ كان باتوا الابن الثانى لجوجى قد كلف بحرب أوروبا الشرقية وإخضاعها للحكم المغولى ورافقه أولاد جغتاي وأوجتاي وتولوى الابن الأصغر لجنكيز ، فقاموا بحملة طويلة غزت روسيا وبولندة والمجر ... ونشب بينهم خلاف كبير ، وشق الابن الأكبر عصا الطاعة على ابن عمه باتوا ، ولما مات أبوه أراد أن يكون الخان الأعظم فاستجاب له بعض من الأسرة وأعرض الآخرون ، ثم نصب الخان الأعظم سنة ١٢٤٦ ، ومات بعد عامين ، وأراد باتوا أن يخلفه فعارضه أخوه بركة ، ونادى بتنصيب « مانكو » الابن الأكبر لتولوى خاناً أعظم ، فاستجاب القوم عدا أبناء جغتاي وأوكتاي ، ثم أذعنوا للأمر الواقع وذهبوا ليقسموا بين الطاعة فقتلوا جميعاً لما يحوطهم من الرية فى إخلاصهم ، وانشطرت الإمبراطورية الكبيرة شطرين وحكم أعقاب « باتوا » أوروبا الشرقية - وكانوا يسمون « القبيلة الذهبية »^(١) وقام هولوكو أخو مانكو بالاستيلاء على الشرق الأدنى ، ودخل أمراء فارس فى طاعته حتى الباطنية الخشاشين فى أنوت أذعنوا له ، وكان حاكمهم إذ ذاك هو ركن الدين الذى قدم ولاءه لهولوكو لكنه لم يقبله وقتله ، وكانت خطة

(١) الاسم مأخوذ من الكلمة التركية « زور أوردو » بمعنى الخيمة الحمراء ، فأطلق الاسم على القبيلة التى كانت خيامها حمراء ، ولمعرفة تاريخ هذه الجماعة أنظر تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٤٨٦ ، وانظر بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ٣٨٦ وما بعدها .

هولاكو هي أن يؤسس لنفسه دولة في الغرب ولا يزاحم أخاه فاتجه بحملاته إلى بغداد^(١) .

٢ - الهجوم على بغداد :

خرج هولاكو من منغوليا على رأس جيش جرار يريد أن يقضى على الباطنية الحشاشين في الموت وعلى الخلافة في بغداد ، وكانت حال المسلمين يرى لها لما كان بين الشيعة والسنيين من خلافات ، وبعد أن قضى هولاكو على الإمارات الصغيرة ، التي كانت مكان إمبراطورية خوارزم شاه ، واستسلم له الحشاشون اتجه إلى بغداد ، وكانت أعماله الرهيبة من قتله النساء والأطفال وتخريبه المنازل والمدن قد بث الرعب في نفوس الناس ، وكان الخليفة المستعصم كأسلافه ضعيفاً خائراً وكان وزيره ابن العلقمي الشيعي على عداوة للسنية فلم يتورع عن الخيانة ، وقد بعث هولاكو أولاً إلى الخليفة أن يدمر أسوار بغداد ويسلمها له ، وفي يناير ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) حاصرها وصدع سورها وأخذ أبراجها بمجانيقه ، فخرج إليه الجاثليق^(٢) النسطوري وابن العلقمي لطلب الصلح فلم يقبل ، وظل يحاصر المدينة حتى سقطت في ١٠ فبراير ، وخرج الخليفة المسكين ومعه ثلاثون من موظفيه الكبار وقضاته يطلبون تسليم المدينة سالمة ، فقتلهم جميعاً وانتهب جنوده المدينة ثم أشعلوا فيها النار ، ولكنهم أبقوا على شيء منها ولم يفعلوا بها ما فعلوا بالمدن الأخرى لأن هولاكو كان يريد أن يتخذها عاصمة له ، ولم تهدم كل المساجد ، وعندما أراد جنوده أن يعبروا نهر دجلة اتخذوا من الكتب الإسلامية جسراً عبروا عليه ، وقد ترك المداد الذي أذيب منها ماء النهر أسود ملوثاً لمدة من الزمن ، أما الجاثليق النسطوري فإنه استقبل بحفاوة كبيرة وتكريم ، ولم يكن هولاكو مسيحياً بل عاش ومات على وثنيته ، ولكن زوجته كانت مسيحية ، وكان لها تأثير عليه ، وبسببها كان رفيقاً بالمسيحيين^(٣) .

(١) وقد قضى هولاكو على حصن الموت وخلفاء ابن الصباح ولكن الدعوة ظهرت في الهند وفي

فارس بأسماء أخرى .

(٢) الجاثليق معربة عن الكاثوليكي بمعنى بطريق أو رئيس ديني .

(٣) قدمنا أن ملك أرمينيا المسيحي حرضه على هذا الفتح .

واتجه هولوكو إلى الشمال فهدد شمال سوريا فقتل في حلب نحو خمسين ألفاً وحاصر دمشق ولكن القائد المملوكى بيبرس - قائد الملك قطز - تصدى لجيشه فحطمه في عين جالوت - قرب الناصرة - سنة ١٢٦٠ ، ثم حرر منه سوريا كلها ، وبذلك انحصر المد المغولى ، وحاول هولوكو أن يتحالف مع القرنجة ضد المماليك فلم يفلح ، ومات هو سنة ١٢٦٥ . (٦٧٣هـ)^(١) وترك من ورائه امبراطورية تمتد من نهر جيحون إلى البحر الأبيض ومن قفقاسيا إلى المحيط الهندى وكان الإسلام هو الدين المحارب فيها ، واستمرت نحو قرن من الزمان ، وسيم المسلمون فيه أسوء الهوان وحوربوا في شعائرهم الدينية في كل جوانب الإمبراطورية ومن مختلف فروعها وليس في مملكة هولوكو وحدها ، ففي بعض المدن كان الذى يعتنق الإسلام يعذب ويقتل ، وبعض الذين أظهروا تسامحاً دينياً لم يخفوا كراهم للإسلام ، حتى جنكيز خان الذى كان يطيب له أن يسمع المناظرات الدينية كان يأمر بقتل من يذبح الحيوانات على الطريقة الإسلامية ، وغلا حفيده قويلاى فعين جواسيس على الذين يذبحون ، وأعلن مكافآت لمن يرشد عمن يذبح حيواناً ، واشتد اضطهاده المسلمين طوال سبعة أعوام مما أدى إلى امتناع المسلمين من زيارة بلاطه وأصبحت التجارة بكساد^(٢) إذ قل شراء المسلمين للحيوانات فاضطر إلى رفع هذا القانون ، وفي عهد أكبوك من حفدة أجتاى^(٣) أيضاً (٦٤٧ - ٦٤٩هـ) (١٢٤٦ - ٢٤٨) كان بلاطه مليحاً بالرهبان المسيحيين وكان له وزيران مسيحيان .

وهكذا عانى المسلمون طوال نصف قرن ضرباً قاسية من الهوان بينما لقى كل من الدينين الآخرين مساعدة وتشجيعاً . وعلى الأقل في بعض الأحيان حيادا .

(١) جرياً على العادات المغولية دفن معه حظاياها الجميلات أحياء .

(٢) انظر الدعوة إلى الإسلام ٢٥٦

(٣) لم يحتل عرشهم من أسرة أجتاى سواه .

حرج الإسلام واستفاته :

بدأ الإسلام في أوائل القرن الثالث عشر المسيحي وهو محاصر يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة اختناقاً ، فمن الجانب الشرق حاصره هؤلاء التتار وضيقوا عليه الخناق ومن الغرب كان الصليبيون يحتلون جزءاً كبيراً وهاماً من أراضيه وهم يريدون القضاء عليه ، ولكن ما كاد هذا القرن يقترب من نهايته حتى كان الإسلام سيد الموقف ، وظفر بالتفوق على خصميه جميعاً .

ولتأتمدنا مصادر التاريخ بالمعلومات الدقيقة عن تدرج هذا التحول وبداياته ، ولكن الذى يبدو مما جاء فيها أن بعض الحكام اقتنع بدعوة الإسلام قبله هو وقومه ، كما يبدو أن كثيرين قد أحبوا الإسلام واعتنقوه سرّاً ، ولم يجروا على إعلانته ، ثم أعلنوه أخيراً ، ولعل صمود المسلمين أمام الاضطهادات والمهانات وجه فكر الناس إلى هذا الدين . وأيضاً لابد أنه كان هناك دعاة سريون أو معروفون بالإسلام .

والذى يستحق التسجيل ونحن بإزاء الحديث عن التبشير وأباطيل المبشرين ، أن المسيحية في هذه البلاد لم تأخذ مكانها إلا بقوة الحكام ، وأن الإسلام شق طريقه إلى قلوب الناس بالمنطق والدليل ، ولم تكن له أية قوة أو سلاح .

أول حاكم مغولى يقبل الإسلام :

إذا نحن أغضينا عن إسلام بعض الأفراد البوذيين ، فإن أول حاكم مغولى قبل الإسلام هو « بركة خان » الذى كان رئيس القبيلة الذهبية بين سنتي (١٢٥٦ و ١٢٦٧) ولا تتفق الروايات التاريخية على الطريقة التى أسلم بها^(١) وهى لا تخلو من مبالغات ، فقد قيل أن كل جيشه كان مسلماً ومع كل فرد منه سجادة للصلاة ، وأنهم يقطعون أعمالهم متى حان وقت الصلاة لأدائها .

(١) قيل أن بعض العلماء بحث إليه برسالة فيها صفات الإسلام فأحبه ، وقيل أن بعض التجار حدثه عنه ، وقيل كان مسلماً منذ طفولته ، وكان يحفظ القرآن وهذا مستبعد جداً .

ولكن مما لا مبالغة فيه أن الجيش كان نظيفاً من المسكرات نهائياً مع ما كان شائعاً بين المغول من الشرب المسرف ، وكان بلاطه يضم عدداً من كبار العلماء المسلمين ، وكان لديه عدد كبير من كتب الدين الإسلامى ، وكان سنياً محافظاً وكان مجلسه يعمر بالمناظرات والمباحثات ، ومعظمها فى المناظرات الدينية .

وكان يعاصره الأمير أنندا Anenda - حفيد قوبلاى ، وحاكم «كانسون» وكان أيضاً مسلماً ذا حماس للإسلام ، ودعا إليه جماعة من جنوده وأتباعه ولم يكرههم عليه .

أمّا فى فارس فكان أحد أبناء هولاکو - أباقان - زوجاً لابنة إمبراطور القسطنطينية وكانت ذات سلطان على قلبه ، ولكن مع ثباته على وثنيته كان بلاطه مليحاً بالقسس ، وكان على صلة بالقديس لويس الصليبي المعروف ، وعلى صلة أيضاً بملوك آخرين ، وأرسل سفراء إلى مجمع ليون عمد بعضهم هناك . وكان أخوه تيكودار مسلماً ، وهو أول الایلخانات المغول حكم ستة ١٢٦٢ - ١٢٧٤م ، وعمل على جذب التتار للإسلام واستجاب له كثيرون ، وكان يمنح المؤلفة قلوبهم من العطايا مايستميلهم به ، وكما كان بركة على صلة بالظاهر بيبرس كان هو على صلة بقلادون ، وبينهما رسائل متبادلة نجد فيها وصفاً لأخلاقه الإسلامية^(١) .

وأعظم الایلخانات شأناً فى تشجيع الإسلام هو الأمير غازان (١٢٩٥ - ١٣٠٤) وهو سابعهم فى ترتيب الحكم . وكان أول نشأته بوذياً أحب بوذا وبنى له عدداً من المعابد ، وكان ميالاً للعلم والبحث ، وقد درس الأديان التى كانت شائعة فى عهده فهذه درسه ومناظراته رجال الأديان إلى أن الإسلام هو الدين الحق فأسلم وتحمس لهذه الديانة ودعا لها ، وشجع علماء المسلمين

(١) انظر فى صبح الأعشى ٦٥/١ ، ٢٣٧/٧ - ٢٤٢ . رسالة من الناصر قلاوون إلى السلطان

أحمد القان بايان - رداً على رسالة منه يذكر أنه أسلم وأنه أول من أسلم من ملوكهم ، وفى ص ٢٥٣ رسالة إلى بهادر خان آخر الملوك من بنى هولاکو .

وأسلم معه جنوده وتلاه أخوه الذى تبوأ العرش بعده وتسمى باسم محمد وبذا ساد الإسلام فى بلاد فارس المغولية^(١) .

والحديث عن أعمال هذا الجيش ونشر الإسلام على يديه فى آسيا وأوروبا يطول ، وفى رحلة ابن بطوطة أحاديث شائقة ومستفيضة عنه^(٢) .

والذى أردناه من سرد هذه الوقائع هو أن نضع أمام بعض المبشرين المحدثين صورة تاريخية مسلماً بها عن انتشار الإسلام فى هذه البقعة النائية ، وهى تبيح لهم أن الإسلام لم ينتشر بالسيف بل انتشر رغم مقاومته من أعدائه بالسيف وبما هو أقوى من السيف .

وتاريخ المغول لا يختلف عن تاريخ السلاجقة ولا يختلف تاريخهم فى هذه الأقاليم عن تاريخهم فى الهند بدأوا أعداء للإسلام وبين أعدائه الكثيرين وانتهوا بحسين له مدافعين عنه .

وفى حديثنا هذا نقدر ما كان للمماليك من أثر طيب فى إزاحة الصليبيين وصد المغول كما نقدر ما لمصر من مكانة فى حفظ الإسلام .

٣ - التبشير فى الدولة المغولية :

تاريخ التبشير والإسلام فى هذه الدولة يعكس صورة عجيبة لكلتا الديانتين ، إذ نجد قصوراً أو خموداً من جانب الدعوة الإسلامية ، يقابله نشاط متكرر لا يمل من جانب التبشير المسيحى وبعد هذا كله انتصر الإسلام وأخذ مكانه بين هؤلاء الوثنيين .

وحديثنا عن المغوليين لا ينبغى أن يقف عند الفرع الذى حكم الهند .

(١) اعتنق عازان المذهب السننى قبل ارتقاؤه العرش . وقدم للفرس خدمات كثيرة ، ولكنه كان مدمناً خمر ، وظلت دولته سنية حتى خلفه أخوه «ألتايو خوجانه» ١٣٠٩م ، فتحول إلى المذهب الشيعى فشنجهم وأصله فى بلاد فارس (بروكلمان / ٣٩٢) .

(٢) انظر ج ١ / ١٤٣ / ج ٣ / ٤٠ - ٤٧ .

بل يجب أن يشمل القبيلة كلها وهى قد حكمت لمدة من الزمن هذا الجانب الشرق الآسيوى . فشمّل شرق روسيا والصين والهند ، ورغم تفرع القبيلة وتشتت فروعها كان يربطها رابط العنصر والدم ، وكانت محاولات التبشير توجه إليها جميعاً .

أما روسيا فإنها لم تدخل فى دائرة المسيحية إلا أواخر القرن العاشر الميلادى ، ففى سنة ٩٨٨م تنصر أمير كييف Kiev - وعمد فى مدينة كاثوليكية أغريقية ، وكان هذا بداية دخول الدولة فى دائرة الكاثوليكية وبداية ربطها بالامبراطورية الرومانية^(١) .

وعندما شن جنكيز خان حملاته المدمرة ، لم تكن روسيا دولة واحدة ، بل كان بها عديد من الإمارات تشبه القبائل المتفرقة ، وكان من السهل أن يقضى عليها جميعاً ، ولكنه كان متجهاً إلى البلاد التركستانية حول بحر قزوين ، ولم تكن مدته طويلة لأنه ظهر فى روسيا سنة ١٢١١م ، فعرب بها ماخرب ثم اتجه إلى الجنوب والشرق فاستولى على هذه المساحات الواسعة ومات سنة ١٢٢٧ ، فالمدة كلها لا تتجاوز ستة عشر عاماً .

وفى سنة ١٢٢٢ هوجمت البلاد الروسية وجيرانها من الجنوب بجماعات (الكيم من Cumans) جماعة غير معروفة الأصل ، قادمون من هذا الخزان البشرى الكبير - وسط آسيا - ولم يكونوا يختلفون عن الجماعات السابقة فى طباعهم الخشنة ووحشيتهم الغاشمة ، وقال رجال الدين أنهم نقمة سلطتها السماء عليهم بسبب آثامهم ، ووصفهم أحد القسس بأنهم قوم لا تعرف لهم لغة ولادين ولا أصل ، ولكنهم اختفوا سريعاً ، وفى سنة (١٢٣٦ - ٣٧) عادوا إلى الظهور ، وكان قائدهم فى هذا الزحف هو باتو Batu أحد حفلة جنكيز خان ، وعرف القوم باسم التار ، وكانت أفعالهم أشد عنفاً وأكثر توسعاً ، أخذوا يغيرون على البلاد الروسية واحدة بعد الأخرى مسرفين كل

(١) كتبنا طرفاً من تاريخ المغوليين فى روسيا ، ودولتهم التى استمرت نحو ٢٥٠ عاماً فى كتاب (الشيوعية والشيوعيون) .

الإسراف في سفك الدماء حتى قال أحد المؤرخين لهذا العهد أنه لم تبق عين تبكى على الملكى^(١) ، وامتد هذا الغزو سريعاً إلى بولندا ودخل سيلسيا الحالية وهزم الألمان هزيمة منكرة ، ثم بعد يومين حطم الجيش المغنارى في موقعة قريبة من بودابست ، فباتت البلاد الأوروبية كلها في ذعر وفزع ، وبات غرب أوروبا مفتوحاً أمام هذا الجراد المنتشر ، وبعد عام واحد كان أحد جناحيه قد وصل إلى رأس البحر الادرياتيكي بينما كان الجناح الآخر قد دخل النمسا ، مما جعل الدولة الكاثوليكية تتوقع إخماءها بين وقت وآخر ، ولكن الأقدار تدخلت فمات إمبراطور الجماعة الكبير خان أوجداى Mgedey Ogday ووقع الاضطراب بين الجيش الغازى حتى حارب بعضه بعضاً ثم انسحب ونجت أوروبا ولم يقض على المملكة الكاثوليكية .

وتاريخ هذه الدولة مما لا حاجة لنا به هنا ، وقد كان من آثار ديانتهم الشامانية إيمانهم بأن الخير والشر إنما يأتيان من الأرواح ، وهى تخضع لشامان القبيلة أو كاهنها ، وقد وصفه الشاعر الانجليزى كوليريدج بأنه صانع الشر ، وقد كان جنكيز خان وقييلته يؤمنون بضرورة الدين للأمة ويرون أن كل رجل دين به روح يجب أن تقدر ، وأن كل الأديان يجب أن تحترم ، وكل رجال الدين يجب أن يولوا تقدير وتبجيلا .

ويوصف ذوو خان الكبار من هذه القبيلة بأنهم كانوا ذوى استنارة عقلية تميزهم على الحكام الغربيين ، وكان للكثير منهم نساء مسيحيات إن لم يكن نجحن في تنصيرهم فقد كان لهن أثر واضح في جعلهم أكثر رقة وتعاطفاً مع المسيحيين ، وبهذا أمن الأوروبيون جانبيهم بعد الذى حدث ، ولم يبق أمامهم علو إلا المسلمين ، إذ رأوا فيهم العقبة الوحيدة أمام انتشار المسيحية ، وكان الباباوات والقسس شديدي الطمع في إدخال الخانات المسيحية ، ولهذا تعددت السفارات بينهم ، وقد أشرنا لذلك فيما سبق ونذكر بعضاً من هذه السفارات أو الإرساليات التى كان غرضها الأول هو التعاون معهم على القضاء على الإسلام .

(١) أنظر 20 — Neill PP 113 يهد أن الناس جميعاً فترا - وقال ابن الأثير أنها أعظم كارثة

كانت أول إرسالية بقيادة رجل من الفرنسيين كان وهو جون البلانوى الكاريني John of Plano Carpini - كان معروفاً بحماسة ونشاطه في نشر المسيحية وتعاليم جماعته ، قام في أول سنة ١٢٤٦ من كيف فجال في آسيا الوسطى ، وسمح له بذلك لأنه يحمل رسالات إلى الخان الكبير من البابا أنوسنت الرابع ، وكان هذا الخان هو جويوك Güyük ، وكان باتو حاكماً على الجزء الأدنى من نهر الفلجا ، فامدّ جون وأعوانه بالخيول السريعة والمؤن ليصلوا إلى الخان بسرعة^(١) ، وكانت رسائل البابا تحمل احتجاجاً على ضغط المغول وإساءتهم للمسيحيين ثم شرحاً للأسس المسيحية ، وأخيراً لدعوة الخان وأتباعه إلى دخول المسيحية وعبادتهم المسيح الابن الحق لله الذى يستحق العبادة إلخ^(٢) .

استقبل الخان ورجاله بعثة جون بكثير من الاحترام ، وكان بمجلسه أعضاء مسيحيون ، وكان مباحاً لهم أن يمارسوا طقوسهم في حرية مما لا يدع مجالاً لاحتجاج البابا ، وأكثر من هذا أن المسيحيين الذين في بلاطه ذكروا لرجال البعثة أنهم يأملون أن يدخل الخان الأكبر المسيحية ، لأنه يسهل لهم أعمالهم الدينية ويمدهم بإمدادات كثيرة ، وكان أمام خيمته مصلى صغير وقومه يرتلون أناشيد دينية في الصباح ، وأخلاقه هي أخلاق المسيحية .. ولكن الخان الكبير خيب آمالهم ، فكتب إلى البابا أنه يرفض التعميد الذى عرضه عليه ، وعلى العكس طلب منه أن يتبعه هو والأمراء الذين معه ، وطلب أن يرسل إليه بما يفيدهم أنهم يميلونه هو بوصفه حاكماً منتخباً ، وأنه يتربح حضورهم ليقدموا له الطاعة والخضوع وحيثذ يعترف بهم أتباعا ..

(١) كتب جون وصفاً لهذه الرحلة ، وقال أنه ورثاقه بنلوا رحلتهم من الفجر وظلوا يوالون السور حتى المساء من غير أن يتناولوا طعاماً عدة أيام ، وربما وصلوا متأخرين فأرهمهم السور فناموا دون أن يتطعموا وفي الصباح كان طعامهم هو طعام اليوم السابق وبدأت الرحلة في فبراير ١٢٤٦ من كيف وعادت إليها في يونيو ١٢٤٧ .

(٢) انظر تاريخ الحروب الصليبية واتسيما - من ٤٤٧ وما بعدها .

كانت هذه الإجابة صدمة للجميع ، ولكن البابا لم يأس وظل يترقب فرصة أخرى .

وأرسلت بعثة ثانية بقيادة أحد الدومينكانيين ولكنها كانت أكثر فشلا من الأولى .

أما البعثة الثالثة فهي مما يستحق أن يثر السخرية والأسى ، قادها فلمش وليام الروبروكى : Flemish William of Rubruck ، وسببها أن نبأ غير حقيقى قد انتهى إلى القديس لويس ملك فرنسا ، قيل له إن الأمير سورتاك Sortack ابن باتو قد تنصر ، وأنه سيؤدى طقوس المسيحية بين قومه .

اتجهج الملك وأعد هذه الرحلة ، وكان هدفها أن تنشئ صلة مع المسيحيين فى أواسط آسيا وأن تشجعهم على مسيحتهم ، وأن تقوم هناك لرسالية ثابتة تقاوم الإسلام أو تقضى عليه وقامت البعثة من القسطنطينية فى عام ١٢٥٣ ، فاتخذت طريقها إلى مخيمات باتو ، ثم أرسلت إلى الخان الأكبر فى منغوليا ، كما حدث لبعثة جون الكاريينى من قبل ، ولم تكن الإجابة التى تلقتها خيراً من الأوليين ، وصدّم وليام إذ تبين أن سورتاك ليس مسيحياً بل عارض المسيحيين فى غير موقف ونفر من أرائهم ، ولكن وليام قابل سيده روسية كانت قد أخذت أسيرة فى منغوليا ثم تزوجت من شاب تترى وأنجبت منه فأصبحت ذات مكانة ما ، وكانت مسيحية ، وكان الكبار من رجال الدولة تزوجوا من مسيحيات ، فعرفته بجماعة مسيحيين بينهم قس نسطوريون ، وهم يؤدون طقوساً مسيحية ولكنهم منغمسون فى رذائل السكر والعريضة .

لم يكن الخان الأكبر فى ذلك الوقت هو كويوك السابق ، ولكنه مونجكا Mongka الذى اغتصب السلطة ، وقابله وليام عدة مرات على غير طائل ، ثم عاد بخطاب ملء بهارات التهديد^(١) فى سنة ١٢٥٥ .

(١) جاء فيه : إذا أنت لم تر عقيدتنا اهتماماً عندما تسمعها وتفهمها وهى عقيدة الإله الخالق قاتلاً بلادنا بعنة وجهالنا عالية وبمرنا واسع ثم أردت أن تحضر جيشاً لبحارنا فإننا نعرف ماذا نفعل فإن الله الخالد الأبدى جعل لنا الصعب سهلاً والبعد قريباً يعلم ما يصيحكم .

لم تعد السفارات الثلاث بفائدة ذات قيمة ، ولكنها صادفت الوقت الذي كان المغول يتأهبون فيه لغزو العالم الإسلامي ، فإن بغداد - كما سبق غزيت وحطمت ١٢٥٨م ، وابتهج العالم الأوروبي بهذا الموقف وذهب رجال الدين يقتبسون عبارات من العهد القديم توحى بأن الله انتقم من بغداد تلك المدينة الظلمة التي عاقت سير المسيحية بل وحولت أراضي واسعة منها إلى بلاد إسلامية .

والواقع أن هذا الموقف ليس إلا واحداً من المواقف العديدة التي تعكس الفرق البعيد بين المسيحية والإسلام ، فما كان ينبغي لرجال المسيحية أن يبدوا كل هذه الهجة أو هذه الشماتة إزاء انتصار الوثنية على دين سماوى ، ويوم أن انتصر الفرس على الروم - قبل الهجرة النبوية - حزن المسلمون وغيرهم مشركو مكة ، لأن الرومان أهل كتاب والفرس مجوس من عباد النار ، حتى بشرهم القرآن الكريم بأنهم ﴿ من بعد غلبهم سيفلبن في بضع سنين ﴾ (١) .

ومهما يكن من شيء ، فإن الكنيسة النسطورية أدركت خطأ من النجاح في الشرق ، ولكن لم يكن من الممكن ربط علاقة أو إقامة وحدة بين الكنيسة الشرقية والغربية إذ كان الغرب مفككاً لا رابطة بين أبنائه . ولم يكن بين ملوك الغرب من هو متيقظ لهذه الفرصة غير ملك انجلترا إدوارد الأول ، وكان الخان الثانى فى تبريز - من بلاد فارس - قد أرسل إلى المجلس الذى عقد فى ليون سنة ١٢٧٤م بعثة لمحاولة إحياء وحدة بين الكنيستين ، فتجدد الآن أمل فى هذه الوحدة ، وأبرزت المقادير أشخاصاً وأحداثاً لم تكن متوقعة .

كان وليم الروبروكى William of Rubruck الذى سمي فيما بعد .. الربانى سوما Rabban Souma وصديق له يدعى مارك . قررا القيام برحلة إلى الأراضي المقدسة فلما كانا فقط فى بغداد مات البطريك ، واختير مارك خليفة له باسم ماريابالا الثالث (٢) .

(١) أول سورة الروم .

(٢) انظر Neil 124 .

وعرض للخان الثانى أن يحدد بعثته إلى الكنيسة الغربية فاختار الربانى سوما الذى وصل روما سنة ١٢٨٧ فتصادف أن مات البابا فى هذا الوقت ، ولكن الكاردينالات استقبلوا سوما بحمارة واقتنعوا بكفائته الدينية ، وحققت الرحلة شيئاً من النجاح فى ناحيتها الدينية ، أما من الناحية السياسية وإقامة وحدة بين النساطرة والكاثوليك تقضى على المسلمين فلم تتم ، ولم يكن غير إدوارد الأول من يعنى بهذا الجانب السياسى . وبذا ظل الأمل فى تحالف ضد المسلمين معلقاً .

وتتدخل الأقدار أحياناً فى الوقت المناسب فتأتى بما لا يتوقعه الناس ، وهذا ما حدث فى هذا الوقت إذ مات الخان الثانى أرجون ، وتولى منصبه ابنه نيقولا Nickolas - وهو اسم عمد به من الربانى سوما ، ولكنه فجأة أعلن أنه تخلى عن المسيحية واتخذ الإسلام ديناً ، وطبعاً تلاه أتباعه الكثيرون وفى سنة ١٢٩٤ مات الربانى سوما أيضاً فخسرت المسيحية داعية نشيطاً فى الشرق وسرعان ما تفشت بين المغوليين على طول امتدادهم فى روسيا وبلاد التركستان وفارس تعاليم وأفكار إسلامية ، وبدلاً من أن يقوم حلف بين الأتراك والكنيسة الغربية ضد الإسلام والمسلمين صار الأتراك خطراً على المسيحية وفقد الأمل فى معونة المغول جميعاً .

ولزاء هذا الانقلاب الذى خيب آمال الغرب ، ولزاء التعليقات التى يذكرها مؤرخو المسيحية ييلو أمران يستحقان الذكر .

فمن وجهة نظرنا نحن المسلمين ، ييلو ما حدث فى غير موقف من مواجهة المسيحية والإسلام فى غير مكان ، ما يمتاز به الإسلام من بساطة ووضوح ومنطق ولزاء ما فى المسيحية من غموض وتعقيد وبعد عن المنطق السليم ، وقد شرح هذا سير توماس آرنولد - فى حديثه - عن الديانتين فى سوريا ومصر وأفريقيا - بما لا مزيد عليه^(١) .

(١) الدعوة إلى الإسلام ١٢٥ وما بعدها .

ومن وجهة نظر المؤرخ المسيحي أن هذا يرجع إلى إهمال الكنيسة الغربية ، فقد جاء في رحلات ماركوبولو (١٢٦٦) ، أنه ومن معه أحضروا للبابا خطاباً من قوبلاي خان يطلب إرسال مائة من علماء المسيحية الأتقياء ليشرحوا لعلماء بلاده صحة المسيحية وأنها وحدها الدين الخليق بالاتباع ، ولكن هذا الطلب لم ينل اهتماماً ، ومر عشرون عاماً حتى جاء البابا نيقولا الرابع فقرر في سنة ١٢٨٩م إرسال رجلين اثنين ، فمات أحدهما في الطريق غرباً ، واختير يوحنا الكورفيني John of Mont Cervino لهذه الرسالة ، من جامعة الفرنسييسكان لأن له خبرة بالشرق ، فسافر يجرأ حتى وصل إلى الهند ، فأمضى ثلاثة عشر شهراً ، وقابل عدداً من النسطوريين خصوصاً في جبل القديس توما .. قريباً من مدراس ثم ذهب إلى بكين ، وكان قبلاي قد مات ، فقابل خليفته وعرض عليه الدين المسيحي ، ولكنه لم يقبله وسمح ليوحنا أن يؤسس كنيسة هناك كانت ذات أثر في نشر المسيحية في الصين^(١) فيما بعد .

وتجددت هذه المحاولة أيضاً في عهد الخان توقتاي ، الذي نصب خاناً للقبيلة الذهبية سنة ١٢٩٠م وكان حاكم المنطقة كلها - جنوب روسيا ووسط وشرق آسيا وكان قد تنصر على يد بعض الدعاة الفرنسييسكان سنة ١٣١١م ، بعد تنصيبه خاناً بنحو عشرين عاماً ، وعمد هو وزوجه وأبناؤه الثلاثة وعدد من كبار الرؤساء في دولته ، ولكنه لم يعيش بعد تنصره إلا عاماً واحداً ، ومات سنة ١٣١٢م فما لبث ولداه الكبيران أن أعلننا إسلامهما ، وخلفهما الخان أزبك Azbeg (١٣١٢ - ٤٠) فكان مسلماً مخلصاً في إسلامه ، وكان أيضاً يتحلى بتسامح الإسلام فلم يبد عداً أو مضايقة للإرسالية ، وأقبل أفراد الأسرة الذهبية ومن معهم على الإسلام حتى بدت المنطقة وقد خرجت نهائياً من أيدي المسيحيين ، ونخفضت الهيئة التبشيرية إلى مجرد كنيسة .

كان هذا الموقف شاقاً أليماً على مشاعر الباباوات ورؤساء الإرساليات ،

لأنهم كانوا ذوى آمال كبيرة فى الاستعانة بمخانات المغول على محو الإسلام والقضاء عليه ، فإذا الإسلام هو الذى يقضى عليهم .

وليس فى المراجع التاريخية ما يوجه نحو بداية الفكرة أو الدعوة الإسلامية ، ولا كيف اهتدى هؤلاء القوم إلى الإسلام وكان المتوقع المؤلف أن يكون أبناء أوقتائى على دين أبيهم ، وأن يكون رجاله وخليفته على الدين الذى اعتنقه . فمن الذى شرح لهم الإسلام واستألمهم إليه ؟ ليس للدعوة الإسلامية تاريخ مفصل فى هذه البلاد ، ولكن يبدو أن القلة القليلة التى كانت هناك من المسلمين اجتذبت إلى الإسلام بحسن سلوكها وحسن معاملتها ، ثم طبيعة الإسلام ووضوح عقيدته .

صادف اتجاه البرتغاليين إلى الهند نمواً جديداً لقوى المغول الذين كانوا فى أفغانستان ، ففي سنة ١٥٠٥م كان القائد التركمانى « بابور Babur Or Baber » من حفدة تيمور لآنك - وجنكيز خان - بعد إحرازه نجاحاً فى حروبه مندفعاً إلى التوسع ، فاستولى على سمرقند ، ثم اتجه إلى أفغانستان ونصب نفسه زعيماً لمدينة كابل ، ثم أعلن غزو البنجاب متزعماً لذلك بأن تيمور لآنك كان قد غزاها ولكنه مد نفوذه إلى ما وراءها ، وكانت الهند مقسمة تغرى بالغزو ، وفى سنة ١٢٢٥م استولى على دلهى ، فترك لقبه « سلطان » كابل ليتسمى باسم « امبراطور هندوستان » ، وجاء فى مذكراته أن الهند تختلف عن أفغانستان ومدح أراضيها - ومات سنة ١٥٣٠م وظلت فتوحات المغول بعده تتوالى على مدى ربع قرن^(١) .

ومن أشهر حفدته الملك أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥م) .

وبوجه عام حكم المغول الهند نحو ستة قرون شمل البلاد خلالها وحدة وسادت فيها حضارة متنوعة المظاهر ، واكتسبت عظمة وقوة ولم يشرق عليها إلى الآن فجر حضارة تضارع ما كان فى هذا العهد^(٢) وانتهى عهد المغول

(١) Wells P 576 .

(٢) Ibid P & Neil P 151 — 3 .

كما ذكرنا قبل ١٨٥٨ ، ونجلى في عهدهم التسامح الدينى فى وضوح لابس فيه ولم يكن الأمر كذلك فى عهد الانجليز .

كان الملك أكبر عظيماً فى مختلف تصرفاته ، وكان يتصف بالذكاء والعلم ، وله ولع بالاطلاع على الأديان والمذاهب ، وكان سنى المذهب ولم يعارض الشيعة فى مملكته بشيء ، ونبت فى ذهنه أن يتعرف على المسيحية ، فبعث برسالة إلى كنيسة «جوا» يدعو بعض الآباء اليسوعيين إليه ليتعرف منهم على المسيحية ، وابتهج القوم بهذه الدعوة وأرسلوا إلى رئيس الجماعة فى أوروبا يخبرونه فشملت الفرحة الأوروبيين وطمعوا فى دخول أكبر وحاشيته ثم الهند كلها فى المسيحية .

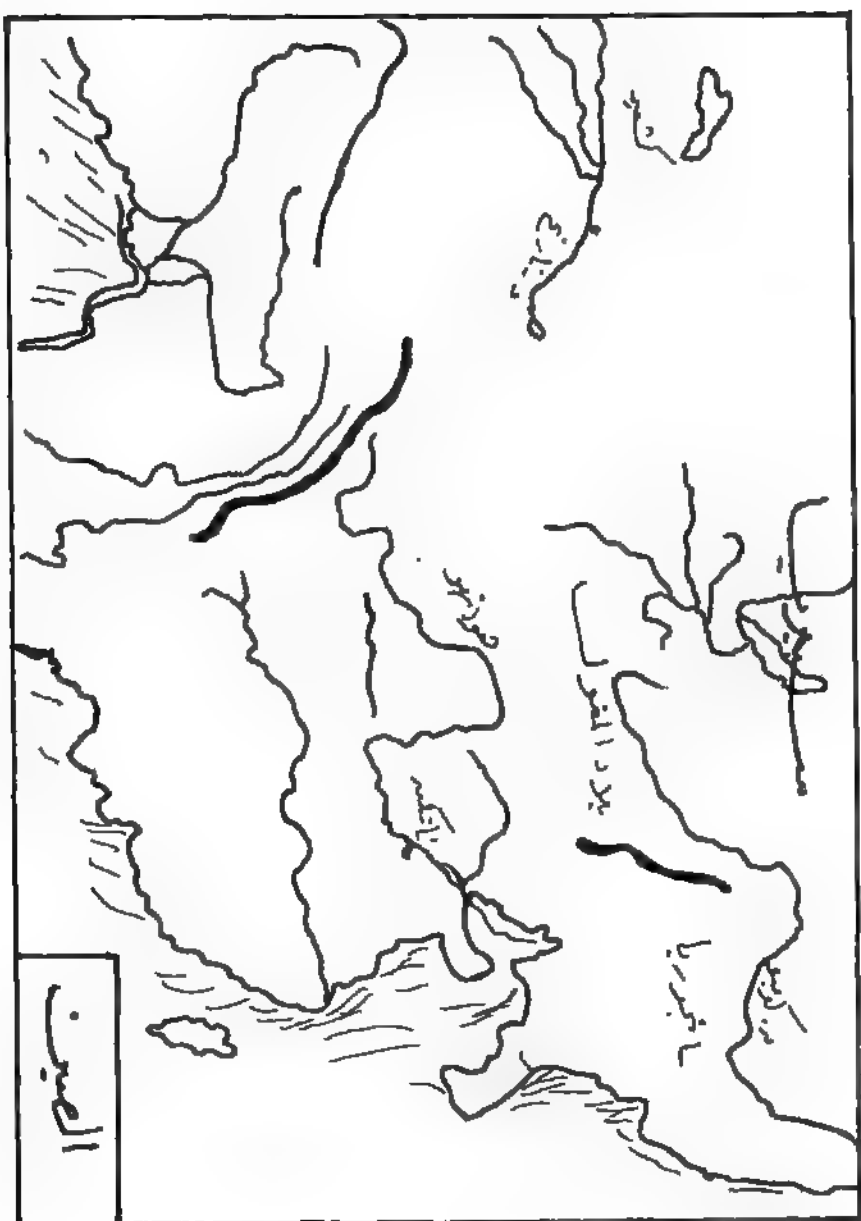
فكونوا بركة جعلوا على رأسها الآب رودولف أكوافيفا Rudolf Aquaviva فوصل بلاط أكبر سنة ١٥٨٠م واستقبل الملك الوفد استقبالاً حسناً ، وجمع له عدداً من رجال الدين لعقد مناظرة ، واحتشد لسماع المناظرة جمهور كبير من رجل الشارع إلى أستاذ الجامعة ومن رجال القصور وحریم الملك إلى السوق الذين يرغبون فى حضور هذا الحفل . وترقب الجميع مايقول المدعون ومايقول الملك . أما اليسوعيون فقد أملوا أن يصلوا فى جنوب القارة إلى مالم يصل إليه الفرنسي سكان فى شمالها . وأبدى أكبر غاية التسامح إذ كان فى الحفل الذى أقامه نار القرايين الهندية ونار المجوس وصلبان المسيحيين وصلوات المسلمين ، وشرح اليسوعيين مذهبهم ، ولم يتأثر به أحد ولم يدخل أحد المسيحية ، ولكن الإرسالية ظلت تتمتع بعطف الملك ، وظل اليسوعيون بعد ذلك على صلة بالملك أكبر وأتباعه ، ولايستريح المبشرون المحدثون إلى تصرفات هذا الملك برغم كل هذا التسامح ويتهمة استيفن نيل بضيق العقل والتفكير^(١) ذلك أنه حين شرح المرسلون أصول دياتهم ، اعترض عليها وأخذ يوجه أسئلة تتعلق بطبيعة المسيح ، وبعقيدة الصلب والفداء ، ولم يجد لديهم إجابة مقنعة ،

وظل في نقاشه واعتراضه حتى وجد الوفد نفسه في حرج فانفض ، ولم تقم مناظرة بينه وبين ذوى الديانات الأخرى ، وكان الحادث ذا أثر كبير على سر التبشير المسيحي ، والكتاب المحدثون يرون أنه فلسفة لم يستطع أكبر أن يفهمها ، وأكبر كان ذا ثقافة وعلم ، ومهما يكن من شأنه فلم يكن أقل علماً ممن استجابوا للسيد المسيح ولا أضعف تفكيراً . ويكفى للدلالة على سعة عقله هذا التسامح الكبير ومنح الديانات الأخرى حرية كافية ، وفي ظل هذا التسامح طمح زافير إلى إدخال المسيحية اليابان ، وقام ببعثة إليها .

للمعلومات التاريخية :

هولاكو حفيد لجنكيز خان من قبل بنائه . وهو أول من تسمى الخان الأكبر سنة ١٣٦٩م ، وكانت سمرقند عاصمته ، ولكنه كان رجلاً وحشياً العادات - أسس إمبراطورية تمتد من شمال الهند حتى الشام ، وأحدث تخريبات واسعة ، وأخذ الجزية من مصر ، وخرب البنجاب واستولى على دلهي وأحدث بها مذبحاً رهيباً ومات سنة ١٤٠٥ - أما تيمور لنك فجاء بعده بنحو ٥٠٠ سنة^(١) .

(١) أنظر : The outline of History. by H. g. Wells.



ثالثاً : في الصين

الصين كما هو معروف بلاد واسعة تمتد على ساحل المحيط الهادى ، وفي العرف القديم كانت تشمل الهند الصينية ، وهى بلاد ذات حضارة قديمة لا تزال أساطيرها تروى ، وكان بها ألوان من الوثنية منها الطوطميات وعبادة الأسلاف ، وأوسع دياناتها انتشاراً هى الكونفوشية - ديانة كونفوشيوس - ثم دخلتها البوذية فزاحت سابقاتها ، ثم دخلها الإسلام ولم تسبقه المسيحية إليها إلا أن يكون ثم أفراد من الوافدين الذين لا تأثير كبيراً لهم . ولم يظهر نشاط التبشير إلا في وقت متأخر ، وليس من موضوعنا أن نتحدث إلا عن الديانتين السويتين المسيحية والإسلام .

١ - ملحة تاريخية :

يمتاز تاريخ الصين بالمحافظة والجمود ، فهو غمط واحد وتيار مستمر لم يتغير طابعه ومظهره إلا في العصر الحديث في القرن التاسع عشر فقط ، ولم تدخل الصين في تيار السياسة العالمية إلا بعد الحرب العالمية الثانية .

وفي تاريخها القديم كانت تقوم على حكمها أسر متتالية يطول عهد الواحدة منها أو يقصر ولكنها في مجملها تجري على نسق واحد في حكمها ، وقد حكمتها أسر من داخلها كما حكمتها أسر من خارجها وفي كل عهودها كانت تقوم فيها الثورات ، وكان للفلاحين بها أكبر الآثار في تولية أسرة وتنحية أخرى لأنها بلاد زراعية وبها مساحات واسعة للمراعى وتربية الماشية وهذه يقوم عليها الفلاحون أيضاً ، فكان بأيديهم جانب هام من ثروة البلاد واقتصاديتها ، وآخر أسرة تولت الحكم بها هى أسرة المانشو التى انتهى عهدها سنة ١٩١٢ م . وكل الأسر التى سبقتها من عهد السادة الخمسة إلى هذه الأسرة تبلغ عشرين أسرة ، والصينيون جميعاً من أصل مغولى ، وبعض حكامهم من الصين وبعضهم من المغول الذين جاءوا من الشمال ، ولم تكن الصين دولة واحدة ، بل كانت

دولاً ، وكانت الصين الجنوبية تقوم بالحروب وتدير الثورات ضد حكومات الشمال ، وربما حدث العكس ، ولكنهم في هذه العزلة كان بأسهم بينهم ، ولا صلة لهم بما وراء حدودهم إلا بقدر ماتقتضى المصالح العارضة .

وكانت أسرة شو - وهي الأسرة الرابعة في القرن الثالث عشر ق.م (١٢٥٥ - ١١٢٢) - هي الأسرة الوحيدة التي حكمت الصين كلها^(١) وتلتها أسرة شين ، وهي جديدة بالذكر لأن عاقلها الأول أراد أن يحصن بلاده ، من الأعداء فبنى حول البلاد صور الصين الشهير الذي يعد من عجائب التاريخ وكانت أسرة متعصبة عملت على محو آثار سابقتها حتى أنها أحرقت الكتب ، فنجت على البلاد جناية فكرية وتاريخية .

ومن الأسر التي لا يهمل ذكرها أسرة - تاي تسنج - Tai - Tsung التي يبدأ عهدها بسنة ٦٢٧م وقد تسمى أسرة تسنج وقد مدت حدود الصين في عهدها وشملت الصين الجنوبية ثم كمبوديا ، وكان بنو الصين الشمالية يعتزون بالانتساب إليها فيقولون نحن أبناء تاي - كما يقول الجنوبيون وانهم أبناء هُن Hun ومآثر هذه الأسرة كبيرة . والذي يعنينا مما حدث في عهدها هو الأحداث الدينية .

ففي سنة ٦٢٨م - أي في عهد النبي محمد - ﷺ - نفسه وصلت سفن تجارية إليها من ينيغ - (وكانت السفن التجارية تأتي من قبل) - وقدم رجال هذه السفن إلى العاهل الصيني أول ملك في هذه الأسرة - مبادئ الإسلام ودعوه إلى قبوله . ويتوقع ويلز H. G. Wells^(٢) أنها رسالة من النبي محمد - ﷺ - كتلك الرسائل التي بعث بها إلى هرقل والمقوقس وكسرى وغيرهم في هذا العام . والواقع أننا لا نجد في المصادر الإسلامية شيئاً عن هذه الرسالة - وإذا صحت فقد تكون عملاً خاصاً من هؤلاء التجار ، ويقول ويلز أن

(١) سن ياتسن (عباس العقاد ص ١٢) .

(٢) Wells 464 .

(٣) الصلر السابق .

الملك الصينى لم يهمل الرسالة كما فعل هرقل ، ولم يهن الرسالة كما فعل كسرى ، بل أكرم القوم وساعدهم على بناء مسجد للتجار المسلمين فى - كانتون - فيما ذكر -- وهذا المسجد لا يزال قائماً وهو أقدم مسجد فى شرق آسيا - وليس فى العالم كله - كما يقول ويلز ، وهو يضيف أن الملك أولى رسالتهم ودينهم الذى رشحوه له اهتماماً .

وبعد ذلك بسبعة أعوام ٦٣٥م وصل إلى الملك نفسه سفير من بيزنطة وبعثة نسطورية من بلاد فارس لدعوته إلى قبول المسيحية ، وقد استقبلهم الملك بتجلة واهتمام أيضاً واستمع إليهم ليشرحوا مبادئهم الدينية ، وأمر أن تترجم قصصهم الدينية إلى اللغة الصينية كى يدرسها ويتفهمها على مهل ، وبعد ثلاثة أعوام سنة ٦٣٨م أعلن أنه وجد الدين الجديد المقنع وأباح التبشير به فى أنحاء الجمهورية كلها ، كما سمح ببناء الكنائس والأديرة وكشف فى العصر الحديث عن حجر مكتوب عليه .. التذكار النسطورى وعليه تاريخ ٧٨١م . فهذه إذن بداية التبشير المسيحى فى الصين . وبداية أخذ الدولة بالمسيحية ونمضى قليلاً مع اللمحات التاريخية ، فنذكر أنه مع الذبذبات الكثيرة التى حدثت فى هذه البلاد . مع اتصالها مرة وانفصالها أخرى ، ومع حكومات وطنية وأخرى وافدة كانت آخر حكومة وطنية هى أسرة مينج فى بكين من سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٤^(١) وتلتها أسرة المانشو الأجنبية التى حكمت من سنة ١٦٤٤ حتى ١٩١٢م حيث قامت الجمهورية .

ومن المعروف فى تاريخ الصين حتى العهد الحديث أن العقائد الدينية تلعب دوراً هاماً فى تاريخها السياسى ، ربما أكبر من دور الشعور الوطنى ، وكان ذوو المشاعر الوطنية يستثرون الناس ببواعث الدين .

من ذلك أن أسرة يوان التى سبقت حكومة مينج كانت أسرة مغولية من أرض الشمال ، ولم يكن الجنوبيون راضين عنها فتكونت جماعة سرية لحربها

(١) هنا ما ذكره ويلز فى غير موضع ، وفى كتاب سن ياتسن أنها بدأت سنة ١٤٠٣م .

- كانت تسمى - « جماعة البشنين الأبيض » ولكنها التحفت ثوباً دينياً ، وكانت على الديانة البوذية ، وأعلن زعيمها أنه تلقى وحياً بأن بوذا عائد بنفسه إلى الدنيا ليقطع جلور الأجنبي الغاصب^(١) .

ولما جاءت دولة المانشو كان من أعمالها أنه مع ما استفادته من كتب الجنوبيين وثقافتهم لم تولهم أى احترام ، بل حرمت على أبناء الشمال أن يتزوجوا من بناتهم أو يزوجوهم من بناتهم وفرضت عليهم إرسال ضفائر شعرهم من خلفهم كما يفعل المغوليون فظلت هذه عادة متبعة طوال ما حكمت هذه الأسرة ، ولما قامت الجمهورية تركت هذه العادة ولكنها زالت الآن نهائياً .

ولكرهه الجنوبيين هذه الأسرة قامت جماعة البشنين الأبيض من جديد واتخذت لها سناداً من الدين ، وكانت المسيحية قد ظهرت في البلاد منذ وفود الإرسالية النسطورية فاتخذ زعيم الجماعة الجديد - هونج - صيغة مسيحية جديدة ، وقال أنه أخو المسيح وأعلن تعاليم كثيرة صالحة منها أنه حرم الأفيون وكان شائعاً جداً في الصين - كما حرم الخمر وجعل عقوبة الزنا هي الموت ، وعرفت دعوته باسم « مملكة السلام السماوية » - ولكن هذه الدعوة لم ترج - فقد نفر منها الصينيون لأنها عابت ديانتهم وعاداتهم ، وعادها المسيحيون الغربيون واعتبروها هرطقة ، ثم ساعدت إنجلترا وأمريكا حكومة البلاد ضد هذه الثورة وقضت عليها .. وكانت هذه في الواقع نكسة في حضارة البلاد وفي تفكيرها^(٢) .

ودخلت المسيحية البلاد أربع مرات : من النسطوريين في القرن السادس ، ومن الفرنسيين في القرن الثالث عشر ثم مع الإنجليز في القرن التاسع عشر ، وكان المبشر الكبير مانيو ريتشى قد اتخذ لنشر المسيحية طريقة

(١) سن باتسن ص ١٣ .

(٢) لم تكن الصين موطن الأفيون ، ولكن الإنجليز جلبوه إليها من الهند ، ووجدوا في تجارتها ربحاً كثيراً ، ومن أجل هذا الزبح عادت مملكة السماء ، وألغت عليها الآخرين .

حكيمه ناجحة إذ اتخذ مظهراً صينياً في كل شيء من الملابس والعادات حتى تسمى باسم صيني هو .. « لي هي ثاي » - وحذق اللغة الصينية وترجم إليها العلوم الكثيرة من الجغرافيا والفلك والرياضيات ، وأباح لهم الطوطميات التي درجوا عليها ، ولم يقل أنه مسيحي ولا مبشر ولكنه غذى عقولهم بالفكر المسيحي ، فتبعه الكثيرون ، حتى قدم اللومينكان أواخر القرن السابع عشر فأنكروا هذه الطريقة ونشب الخلاف بين الجماعتين وأرسلت الكنيسة رسلاً لإصلاح الموقف ، ولكن الإمبراطور -ابن السماء- غضب عليهم جميعاً ، ولم تندثر طريقة ريتشى ولم تبق على ماقام به ، فإن الذين جاؤوا بعده عملوا على الاندماج بالصينيين وتبنى عاداتهم وتعلم لغتهم فنجحوا أيضاً .

٢ - الإسلام في الصين^(١) :

رأينا من قبل أن صلات تجارية حدثت بين الصين والعرب ، والمعرف الشائع أن بضائع الصين كانت تأتي إلى جزيرة سيلان ، وأن تجار العرب كانوا يذهبون إليها وأنها كانت مركز تلاق للتجار من هنا ومن هناك ، وهذا لا ينافي عزلة الصين ، وقد أثار ويلز حول هذه العزلة تساؤلات - ونقولاً مطولة .

جاء فيما نقله أن نقشاً قديماً من نقوش البوشمان مرسوماً على صخرة يفهم أن سفن الصيد الصينية التجارية وصلت إلى جنوب أفريقية في تاريخ غير معلوم ، ونقل أيضاً أن هناك نقوشاً أخرى صينية وجدت في نيوزيلاند وفي

(١) عن هذا الموضوع تجد تفصيلات واسعة في أمهات التاريخ العربية ، وعلى الأخص الطبري وابن الأثير واليعقوبي . وفي الكتابات الحديثة : الدعوة إلى الإسلام والإسلام في القرن العشرين وفي الكتابات الانجليزية كراسة جب .

Bulleten of the school of Oriental studies by. H.A.R.Gibbe

Broomhol: Islam in China

وموسوعة بروم هول : الإسلام في الصين

ومن كتب التبشير : كتب استيفن نيل الذي ترجع إليه في أكثر أحاديثنا .

- وانظر أوروبا العصور الوسطى للدكتور الباز والآخر للدكتور سعيد عاشور والفصل الأول والثاني من كتاب تسن ياتسن للعقاد .

نيوكاليفورنيا إلى جهات أخرى نائية جداً^(١) والذي يعنينا فقط هو صلتهم بالعرب ، ومن المعروف أيضاً أن قوافل التجارة البرية تمر ببلادالعرب إلى الهند والصين ، وبها يحدث تعرف أو صلات . وفي القرن السابع الميلادي كانت مدينة سمراف - على الخليج الفارسي مركزاً هاماً للتجارة ، كانت بها بضائع هندية وصينية ، وكان تجار العرب يذهبون إليها وإذا لم تكن قصة الرسالة التي بعث بها النبي إلى الملك الصيني صحيحة فهي تدل على اتصال وتعارف .

٣ - الفتوحات الإسلامية :

في بداية الفتوحات الإسلامية عندما اجتازت جيوش المسلمين حدود الدولتين الكبيرتين فارس والروم ارتاع كل من كسرى وقيصر ، واستعان كل منهما بملك الصين ، وكانت الأسرة الحاكمة إذ ذاك هي أسرة تانج التي امتد حكمها نحو ثلاثة قرون (٦١٨ - ٩٠٧ م) - وقد بالغ كل من العاهلين في وصف قوى المسلمين وأخطارهم أملاً في استقراز العاهل الصيني لحربهم فجاء تهويلهما بعكس ماأراداه إذ رأى الحاكم الصيني أن من الحكمة أن يتجنب الاشتباك مع قوم لهم كل هذا البأس ، وأن ينشئ معهم صلات ودية .

وكان هذا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وكان الجيش الإسلامي منذ عهد أبي بكر قد دخل العراق وانتهى إلى الحيرة ، وفي عهد عمر دخل البلاد الفارسية واستولى على مدائن كسرى وإيوانه ، ومات يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين في عهد عثمان ، وأقيم ابنه فيروز مقامه ، وكان في موقف ضعيف مهدد ، وتملكه الذعر من حرب المسلمين فلجأ إلى ملك الصين فلم يجد لديه حماية وعونا .

وكانت جيوش المسلمين من الجانب الآخر قد أجلت الروم من سوريا وفتحت مصر ، وظلت تناوش - الإمبراطورية الرومانية في غير ميدان ، حتى

جزر البحر الأبيض استولت على بعضها كلياً وعلى بعضها جزئياً ، فخطر لعاهل الروم ما خطر لعاهل الفرس ، فأرسلوا الرسائل التي ذكرنا ورأى ملك الصين أن يبدأ هو بإرسال وفد للخليفة للتفاوض في علاقات الدولتين ، فأحسن الخليفة استقباله وفي عودته أرسل معه بعض قواده ، ليروا الصين وربما ليختبروا حالها ، وسر الملك بالوفد الإسلامي .

وأكرم بدموره وفادته ، وربما كان الغرض من كل من الرحلتين أن تستطلع كل دولة حال الدولة الأخرى ، لكننا لا نعرف شيئاً عن التقارير التي كتبت أو ذكرت ، هذه الأوصاف .

وفي العصر الأموي تاخم الغزاة المسلمون حدود الصين ، وأثارت انتصاراتهم طموح الحجاج بن يوسف الثقفي إلى فتح الصين فأخذ يغري الشاين المظفرين - محمد بن القاسم - ابن أخيه - وقيية بن مسلم بغزوها على أن تكون حكومتها لمن يفتحها ، ولكن ذلك لم يتم ، - وكان بين قتيبة وملك الصين مفاوضات لم تؤد إلى فتح الصين^(١) ثم مات الوليد وقتل قتيبة ومحمد ابن القاسم في تاريخ معروف .

(١) تذكر الروايات التاريخية أن ملك الصين طلب من قتيبة بن مسلم أن يبعث إليه بعض رجاله فأرسل إليه وفداً احتاره وجعل عليه هبيرة بن مشمرج الكلبي ، فقابلوا الملك ثلاثة أيام كل يوم في رى ، وفي اليوم الثالث كانوا مسلحين ، وقالوا جئنا في أول يوم مطينين في غلاقل يضاء - وهذا ما نلبسه في يوتنا وبين أهلنا ، وجئنا في اليوم الثاني في الوشي وعمائم الحز ، وهذا ما نلبسه في مجالس أمرائنا ، وجئنا اليوم في الملابس التي نقابل بها أعدائنا ثم قالوا له أن أمرنا قد أقسم ألا يتصرف حتى يطاء أرضكم ونختم منكم وتعطوه الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وعرضوا عليه عروض المسلمين الثلاثة الإسلام أو الجزية أو الحرب ، واحتال الملك حيلة ذكية سمح من ذله وخوفه ، وقال نبعث إليه جرباب من أرضنا يطوّه ، وبعض أبنائنا يختمهم ، ونعطيه الجزية التي يريد . والحجة عادة قديمة في العرب ، وتعني وضع علامة قد تكون كياً يبقى على جسم الأسير الذي يطلق فتتم عن ذلته وعن المدى ختمه عليه وقبل هبيرة ما عرضه الملك ورجع بها ثينة إلى قتيبة ، - وكان الملك إذ ذلك هو سوانج تسنج Suen Tsung الذي عاصر الوليد وسنجان وهشاما ، وكان قد علم بخلوث اضطرابات في الدولة فجرد حملة لرحضة قتيبة عن حدود بلاده وأظهر في أول أمره تكبراً على وفد المسلمين وطلب ما كان يطلبه من كل الوفود أن يتحوا راكعين أمامه فأبى الوفد الإسلامي أن يفعل ، وواجههم بالتهديد والإنذار ، ثم كان انتقام سليمان =

وفي عهد هشام بن عيد الملك تجددت صلة الصين بالمسلمين بطريقة ودية وأرسل هشام وفداً آخر إلى ملك الصين .

وفي سنة ٧٥١م كانت هناك معركة كبيرة على نهر طليس في بلاد التركستان ، قضى فيها المسلمون على أكفأ قائد حرى لأسرة تانج ، وعادوا منها بآلاف من الأسرى ، وبذا وقفوا زحف الصين في أواسط آسيا ولكنهم لم يروا أن يتوغلوا في الشرق الأوسط^(١) .

وفي سنة (٧٥٦م) (١٣٣هـ) نجى ملك الصين الذى فاض هشاما عن عرشه وتولى مكانه ابنه سوتسونج Su Tsung ، وكان الثوار قد انتزعوا من أبيه عاصمته (سنيغو - وهونغو) ، فرأى أن يستعين بالخليفة العباسى المنصور ، فأمدّه بجيش أعاد إليه ما فقد وثبت عرشه ولكن هذا الجيش لم يعد بل بقى بالصين ، وتنازل هناك ، وتذكر الروايات لعدم عودتهم أقاصيص يبدو أنها من نسج الخيال^(٢) لكن الحادث نفسه مما لا مرأى فيه ، وبقي المسلمون في بلاد الصين قلة متناكسة ذات بأس مرهوب حتى جاء العصر المغولى فكثرت عددهم . وكان هؤلاء السابقون قد نزلوا بجوار قبيلة تدعى هوى شوى ، فقبلت الإسلام واندججت بهم فصاروا يسمون هوى هوى Hui Hui .

٤ - آثار المسلمين الأوائسل :

عندما دخل المسلمون بلاد السند والتركستان المجاورة للصين وجدوا تماثيل بوذا ، ووجدوا الناس يسجدون لها ويتهيبونها ، ويعتقدون أن من يمسه بسوء تعاجله النعمة وينزل به عقاب لا يستطيع دفعه ، لكن المسلمين حطموا هذه الأوثان

= من الفالدين الكهين لوالانها لأخيه الوليد ، كتنيكه بموسى بن نصر مما أطفأ حية الجيش المخارب ووقف سير الفتح الإسلامى في الشرق والغرب راجع الطيرى ج ٨ / ١٠٠ وما بعدها .

(١) تاريخ أوروبا العصور الوسطى (د . الباز العربى ص ٢١٣) .

(٢) قيل أنهم عادوا فردهم المسلمون لأنهم أكلوا لحم الخنزير ، وقيل عمرووا بأكله هناك فحافوا

شاعة هذه التهمة ويقوا ، وقيل أن الملك هو الذى استبقاهم للاحتواء بهم وهذا أقرب إلى التعليل .

في غير مهابة ، وعجب الناس أنها لم تنلهم بسوء ، - وكان هذا مما زعزع عقائد الوثنيين . وعندما وصلوا إلى ممالك أنام Annam وكمبوديا Cambodia ومدينا والبلاد الأخرى التي حولها وكلها تتصل بالهند وتجاور الصين - فعلوا مثل ذلك وأثاروا دهشة الناس أيضاً ، وامتنازت عاداتهم بالنظافة وطيب الخلق وحسن المعاملة ، وكان الجانب البارز في دينهم هو إخلاص العباداة لله وأن معابدهم تملأ من التماثيل والصور ، وأنهم لا يشربون خمر ولا يأكلون لحم الخنزير ، وبدا تفوقهم الفني في عماراتهم أو بيوتهم التي بنوها ، وقد أذن لهم الملك مضطراً أن يقيموا في « كتن » فاختاروا لهم أميراً وبنوا أبنية تختلف عما ألف الصينيون ، وبدا لهم شيء من القوة ولكنهم كانوا مسلمين لا يعينهم أكثر من حماية أنفسهم ، وعندما أراد أحد الحكام إخراجهم ثاروا به حتى اضطر إلى مسالمتهم^(١) .

وكانت أسرة (تانج) تمنح المسلمين الذين أوفدهم المنصور وأقاموا في « سيانغ » معونة سنوية سخية قيل أنها تبلغ ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف أوقية من الفضة ، وذلك جزاء ما قدموا للملك من معونة . ولم يبق المسلمون محصورين في حيز محدود ، وعدد معين بل اندمجوا بمن جاورهم وأحسن كل إلى الآخر فمما عددهم ، وانساح بعض تجارهم إلى داخل البلاد ، ونزح آخرون مع القبائل الرحل ، كما وفد تجار آخرون بطريق البحر والبر فكانت أقاليم الصين على طول امتدادها تعرف شيئاً عن الإسلام ويوجد بها بعض المسلمين ، وأطلقت عليهم أسماء عديدة بحسب القبائل التي خالطوها ، فسموا في بعض الأماكن بالتانجان ومعناها المتجولون إلى الدين الجديد ، وأطلق عليهم في أماكن أخرى اسم الترك نسبة لقبائل التركستان التي جاءوا منها ، وفي جهة ثالثة يسمون بالنيشاي ، وكل هؤلاء من أجناس غير عربية - صينية وغير صينية - أثرت الإسلام وهيأت له استقراراً وتكاثراً بوجه ما ، ولكن المسلمين ظلوا

(١) أراد حاكم كتل إجلاءهم فأحدثوا ثورة كادت تذهب به . ثم أذن لهم الملك بالإقامة فأقاموا في بلد متعددة وخصصت لهم دور وأراض استقروا بها وانضم إليهم من تأثروا بهم وتزوجوا فكثروا .

قلة في هذه البلاد التي يكون سكانها ربع العالم ، وتكثر فيها الديانات والأجناس واللغات .

أساطير حول بداية الإسلام في الصين :

يحاط دخول الإسلام الصين بأساطير ومبالغات كثيرة ، ويخيل إلينا أنها من صنع المسلمين أنفسهم أرادوا بها أن يحيطوا تاريخهم بهالة من القداسة ، وأن يربطوه بنبي الإسلام أو أقاربه الأذنين . فقد كان في كتنن قبر يعظم لأنه قبر أحد أحوال النبي قيل أنه أول من بشر بالإسلام هناك ، وهي أسطورة أوضح من أن تناقش ، وادعت عشائر الجام في كامبوديا أن أحد أعمام النبي هو الذي نقل الإسلام إليهم ، وقال أهل خستان أن الإسلام نقل إليهم بواسطة جعفر ابن أبي طالب^(١) ، هذا إلى أساطير أخرى لا نرى ما يدعو لعرضها ومما هو مؤكد وطبيعي أن دعاية هؤلاء المسلمين لديهم كانت ضئيلة أو منعدمة ، وأن اللغة كانت حائلاً قوياً دون نشاط الدعوة للإسلام ، وأن الإسلام هناك دخله كثير من أفكار يثته ولست أظن أن القرآن الكريم ترجم هناك في هذا الوقت إلا أن تكون آيات أو فقرات للعبادة ، ويكفى أن يظل الإسلام محتفظاً بوجوده خمسة قرون أو أكثر حتى جاء المغول فأعطوه دفعة قوية أظهرت قوته وأكثرت أتباعه .

• - الفتح المغولي :

كان الهجوم المغولي على هذا الجانب من القارة الآسيوية مثار اضطراب وذعر لما كان في طباعهم من وحشية وعنف ، وامتد هذا الهجوم إلى الصين سنة ١٢١٥م فكان ذا أثر فعال في تاريخ الإسلام والثقافة العربية في الصين فائتاء هجومهم على الهند هاجر الكثيرون من عرب وفرس وأتراك وغيرهم إلى الامبراطورية الصينية ، ثم أن الصينيين هاجروا أيضاً إلى نحو الغرب في البلاد

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٣٤ وبالهامش نقل عن راهب صيني تحول في آسيا بين

سني ١٢٢١ : ١٢٢٤ حتى انتهى إلى فارس .

التي فتحتها الإسلام وبهذا أخذت غارات المغول مزجاً بين الصينيين والمسلمين من مختلف الأجناس ، وظلت رحلات التجار والملاحين متلاحقة إلى سواحل كانتون ، ومنهم من آثر الإقامة هناك ، وانضم إليهم الجنود المحاربون والأسرى ، واندجوا في الصينيين بالتزاوج فتكونت منهم طائفة فقدت خصائصها الجنسية الأولى ، وأصبحت في مجموعتها جماعة صينية ، وانضم إليها من دخلوا الإسلام من سكان البلاد ، ومنهم عدد كبير اشتراه المسلمون من أطفال الصينيين الذين كان يبيعهم آباؤهم بسبب الفقر والجماعة ، فنشأوهم على الإسلام ، وتكون من هذا الخليط المتعدد الجنسيات طائفة مزدهرة لها صفتها الخلقية ، ويدور أن جيرانهم أعجبوا بهم وبتعاليم دينهم فانضموا إليهم وأولى المغول هذه الطائفة عطفهم إلى جانب ما تمتعوا به من معونة من أسرة تالنج جزاء ما عاونوا الإمبراطور « سوتسنج »^(١) .

وخلال القرن الثالث عشر تقلد بعض المسلمين مناصب عالية في الدولة المغولية ، ومن أشهر هؤلاء شخص كان يسمى عبد الرحمن اختير سنة ١٢٤٤م رئيساً على بيت المال وأعطى حق تقدير الضرائب ، وعاصره عمر شمس الدين الذي اشتهر بلقب السيد الأجل وهو من أهالي بخارى الذين نزحوا إلى الصين ، وكان مدير بيت المال العام سنة ١٢٥٩م ، ولما فتحت يونان Yunnan وضمت إلى إمبراطورية الصين كان هو الحاكم عليها فأظهر تسامحاً كبيراً جعل الشعب يتشبث به ويحبه ، وكان يبنى من معابد كونفوشوس بقدر ما يبنى من المساجد ، ومات سنة ١٢٧٠م ، وظلت دعوته باقية في عقبه ، فحصل أحد حفدته سنة ١٣٣٥م على اعتراف من الإمبراطور بأن الإسلام هو الدين الحق الخالص ، وحصل حفيد آخر سنة ١٤٢٠م على إذن ببناء مساجد في العاصمتين سنجافو Si ngan fo ونانكن Nan-Kin وكان للسيد الأجل وما تمتع به من حظوة في الدولة أثر كبير في جذب الهجرات العديدة إلى الصين^(٢) .

(١) الإسلام في القرن العشرين ٧٨ وتقدم حديثه .

وانتهت دوبة المغول وحلت محلها دولة منج سنة ١٣٦٨ - ١٦٤٤ م ، فصادف عهدها استحكام العزلة التي انتهجتها الصين ، وبها أغلقت أبوابها دون الأجانب ، وكان في استطاعة المسلمين أن يدخلوها باسم التجارة ، ولكنه كان دخولاً محدوداً ، وأدى ذلك أيضاً إلى عزلة المسلمين في منج قتل في هذا العهد دخول الصينيين في الإسلام ولكن المسلمين اندمجوا في مجتمعاتهم أكثر بالتزاوج وتبنوا عادات الصينيين التي قد تكون فيها منافاة للإسلام ، واشتد اتصالهم بالمسلمين المجاورين وجاءت دولة منشو سنة ١٦٤٤ م فلم يلق المسلمون في ظلها ما كانوا يلقون قبلها من طمأنينة ، وكانوا قد أصبحوا قوة ، ونفس الأهلون عليهم تميزهم بلغتهم وعاداتهم فضايقتهم ، وقام المسلمون في ولاية كنسو بثورة مسلحة سنة ١٤٦٨ م ، وأشفقت الحكومة من ثورتهم لما كان لهم من صلات بالدولة السابقة فهادنتهم ولكنها لجأت إلى حرب باردة أرادت بها أن توقع بينهم وبين الأهليين من الوثنيين والبوذيين ، فحرمت ذبح الأبقار إرضاء للبوذيين وعباد البقر ، وإلجاء المسلمين لأكل لحوم الخنازير إرضاء لتجارها الصينيين فلم تتحقق الغاية المرجوة ولم تنقطع ثورات المسلمين^(١) وهزمت جيوش الحكومة في عدة معارك فاضطرت إلى مهادنتهم وتهدة الشعب معهم ، فأرسل الإمبراطور ينج تشن إلى كل الولايات منشوراً سنة ١٧٣١ م أبدى فيه عطفه على المسلمين ووصفهم بأنه أبناؤه لا يفرق بينهم وبين سائر رعاياه ، وأثنى على أخلاقهم وأوصى بإعطائهم الحرية في دينهم^(٢) وربما كان الغرض من هذا المنشور تهدئة المسلمين أكثر من تهدئة الصينيين ، لأنه في هذا العام نفسه كان قد حرم لحوم البقر ، وفي سنة ١٨٦٣ حدثت أشنع معركة بين المسلمين والصينيين ، وفيها انتصر المسلمون وقتلوا ألفين منهم ثم ظلت ثوراتهم تنشب بين حين وحين وعاصرتها ثورة التركستان بقيادة التجاني يعقوب حتى قضى على هذه الدولة ، وجاءت بعدها الحكومة الجمهورية .

(١) نفسه ٣٤٥ .

(٢) جاء هذا المنشور بنامه في الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٠ .

٦ - أسباب قوة المسلمين وكثرتهم في هذا العهد :

يتضح من التقارير والتواريخ التي كتبت عن مسلمي الصين أن أهم أسباب قوتهم وزيادة عددهم تنحصر في الأسباب الآتية .

١ - أنهم التزموا حياة سليمة بعيدة عن مصادمة الآخرين ، وبينما تجنبوا نقد الأديان الوثنية تجنبوا إعلان شعائرهم الإسلامية والدعاية لها ، واكتفوا بالصلاة في مساجدهم ، وهذا الحياد كان أدنى إلى العزلة والسلبية ، وميزته أنه ضمن لهذه الجماعة حياة هادئة بعيدة عن التعصب وإثارة عدااء لهم ، فضمنوا بها فقط بقاءهم ، وكان الصينيون يبنون عدااء لليهودية والمسيحية دون الإسلام .

٢ - حرصوا على أن يظهرها بمظاهر الصينيين حتى في بعض المسائل التي لا يقرها الإسلام فلبسوا ملابس الصينيين ، وكانوا يرتدون العمائم في المساجد فقط ، وبنوا مساجدهم على طراز صيني ، ولم يبنوا لها مآذن ، وقبلوا أن يضعوا في كل مسجد لوحة للإمبراطور مكتوباً عليها « عاش الإمبراطور الخالد إلى الأبد » والذين تولوا مناصب عالية تقضى بشعائر وثنية قبلوا أن يؤدوها إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تثير أي نفور منهم^(١) واعتبروا أنفسهم في هذه العزلة مكرهين على هذه الأعمال ، ورأوا ألا ضرر في أدائها مادامت عقائدهم إسلامية .

٣ - التزموا فيما بينهم بالمحافظة على حضور المساجد ، وكانوا ينفون من بينهم من لا يذهب إلى المسجد ، وبهذا ضمنوا بقاء دينهم ، واستمرار جنوثة حية في نفوسهم .

٤ - كانوا ربما بسبب تعدد الزوجة أكثر تناسلاً ، فزاد عددهم مع مر السنين .

٥ - ضمنت لهم معاملاتهم الحسنة نجاحاً في أعمالهم فكانت تجارتهم رابحة جداً وتعاطف الناس معهم وأجورهم - واحتكروا تجارة البقر فكانوا ذوي ثراء منحهم قوة ورخاء في حياتهم .

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ص ٣٤٥ .

٦ - كان أهم ما زاد به عددهم شراؤهم الأطفال الوثنيين ، فقد أدت المجموعات في غير موضع أن يبيع الفقراء صغارهم ، وكانوا يؤثرون بيعهم للمسلمين ويرى المسلمون من واجبهم الإسلامى والإنسانى أن يشتروهم ، وكانوا يحسنون تنشئتهم وتربيتهم على مبادئ الإسلام وفى بعض البلاد بلغ عدد هؤلاء الأطفال عشرة آلاف ، وفى بعضها أكثر .

٧ - بعد أن أطفأ الإمبراطور كين لنج Kin Lung ثورة زنجاريا الخطيرة ، وكان المسلمون قد ساعدوه فى إطفائها ، نقل إليها عشرة آلاف من المهاجرين المحاربين وانتقل معهم أهلهم وأتباع لهم لعمارة هذه البلاد فدخلوا - جميعاً أو معظمهم - فى الدين الإسلامى فزاد عدد المسلمين بهم كثيراً .

٨ - تزوج المسلمون من الصينيات بكثرة وأقبل هؤلاء على الزواج منهم لما ينعمن به لديهم من رفاهية واحترام ، وقد بنوا لهم دوراً وقامت بهم قرى إسلامية صغيرة ، وانتمى إليهم كثيرون تأثراً بهم .

ويمكن إجمال الأسباب التى زاد بها عددهم ونمت قوته فى أمرين هما نشاطهم التجارى وأخلاقهم الإسلامية التى جذبت الآخرين إليهم .

الفكرة الإسلامية بينهم :

لا يبدو أن مسلمى الصين كانوا على حظ من الثقافة الإسلامية ، وقد كانت عزلتهم وعدم استطاعتهم الدعاية لدينهم مما حد معارفهم الإسلامية ، ثم كان ضعف اللغة العربية حائلاً دون فهم القرآن والحديث ، والترجمة التى كانت هناك من أعمال التجار الذين عرفوا اللغتين العربية والصينية . وهؤلاء ليسوا ذوى علم كاف فى الإسلام ، واستطاع بعض الصينيين أن يتعلم العربية وأن ينقل إلى لغته بعض كتب التوحيد والعبادات ، ومنها رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، ومع ظهور صينيين يجيدون العربية وينقلون إلى بلادهم بعض كتبها لاتزال اللغة العربية والمعلومات الإسلامية لديهم ضعيفة ، ووفد على الأزهر أفراد قليلون جداً من الصين .

وحين حُرمت دولة المانشو على المسلمين أن يتصلوا بالعالم الخارجى ، ومنعتهم حتى من الحج لجأوا إلى حيلة الإنابة فكان فقراء المسلمين المجاورين لهم يتخذون من هذه الإنابة مصدر رزق ، ومع أن الحج ساقط عنهم فى هذه الحالة لعدم الاستطاعة ظلوا ينيبون ويتسمى من ينبى عنه شخصاً آخر باسم الحاج .

وبسبب هذا التشديد الذى فرضته هذه الأسرة لجأوا إلى دراسات دينية وعربية أكثر ، وحاولوا حفظ الكثير من القرآن ، وظلوا كذلك حتى قامت جمهورية الصين فرفعت عنهم هذا الحظر لكن النظام الشيوعى عاجل الدولة وضايق الإسلام كثيراً .

هذا مجمل حديث الإسلام فى الصين .

المسلمون هناك الآن قلة ، ومعرفتهم بالإسلام ضئيلة ، وقد طلبوا غير مرة من الأزهر أن يمدهم بمعلمين يجيدون الانجليزية فلم يستطع ، ويقدر عددهم الآن بنحو ستين مليوناً .

٧ - المسيحية فى الصين :

دخلت المسيحية الصين فى القرن السابع الميلادى ، وكان دخولها بواسطة النساطرة الذين كانوا بالعراق ، وبفارس ، وكان وجودهم فى بلاد الفرس قلقاً قبل أن يفتحها المسلمون لما كان بين الروم والفرس من العداء ، فلما استقر الحكم للمسلمين استقر المسيحيون آمنين وثمرت كنائسهم ، وفى العصر العباسى نالوا تقدماً أوسع حتى استطاعوا أن يخترقوا حدود الصين ، وقد كشف حديثاً عن آثار مسيحية يرجع تاريخ أقدمها إلى سنة ٦٨٣م^(١) وهى تنص على

(١) هى كتابات صينية بها أناشيد للتالوث المقدس، وقائمة بأسماء كتب مسيحية كشف عنها فى سنة ١٩٠٨م فى كهوف بمدينة تون هواج Tun Huang - فى شمال غرب الصين ، ومن خلال الإشارات إلى النساطرة وإلى منشورات ملكية تشير إلى سنوات ٦٨٣ ، ٨٤٥ تبديت الشكوك التى كانت تحوم حول بداية المسيحية فى الصين ، وتذكاريات النساطرة تشير إلى سنة ٧٨١م أى العصر العباسى الأول . وانظر إلى تاريخ سورية ج١/ ١١١ . وهذا يعنى أن أول دخول المسيحية كان فى خلافة يزيد بن معاوية الذى تولى سنة ٦٨٣م .

بداية المسيحية إذ تذكر أنه في سنة ٦٣٥ م وصل إلى عاصمة تاي تسنج Tai Tsung وقد يحمل معه دين سوريا «Tarchin» وقد استقبله الإمبراطور بترحاب ، ثم درس الدين الذي جاء به ووافق عليه ، وعارض البوذيون هذا الدين وحاربوه ولكن الكنيسة استمرت طوال قرنين بعد ذلك وحول سنة ٨٢٣ عمده مطران للصين ، وبعد ذلك بنحو عشرين عاماً (٨٤٥) . جاء الإمبراطور وو - تسنج Ww Tsung - وكان يدين بالناوية التي تقوم على تعدد الآلهة ، وكان شديد الحماس لها ، يكره الأديان التي تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، فأمر بإزالة البوذية والمسيحية معاً ، وطرد الرهبان من بلاده ، فأزيلت المسيحية حتى أنه في سنة ٩٨٧ م - أرسلت الكنيسة الكاثوليكية بعثة لاستطلاع بقايا المسيحية في الصين ، فعادت تقرر أنه « لا يوجد كنيسة واحدة في الإمبراطورية » ولا يعرف بالدقة أين ذهب رجال الكهنوت الذين كانوا هناك ولعلمهم رجعوا إلى أرض الرافدين وفارس^(١) .

وقد ذكرنا محاولات المسيحية لثبيت نفسها وللقضاء على الإسلام في العصر المغولي ، وفيه قامت كنائس ودعوة دينية للمسيحية ، ولكن الرغبة في القضاء على الإسلام وفشل المحاولات لهذه الرغبة ظلت تتكرر في ظروف وأوقات مختلفة .

رأينا من قبل رحلة يوحنا المونتكارفيني John of Montcarvine . وكان وصوله إلى بكين حول سنة ١٢٩٤ م ، وكان قوبلاي خان حفيد جنكيز ، قد مات وخلفه تيمور Timur فاستقبل جون استقبالاً حسناً ، ولكنه لم يقبل الدعوة المسيحية ، ولم يمنعه من تأسيس كنيسة ، وبها ثبت نفسه في مواجهة الوثنية ، ووفد دعاة النسطوريين ورجال من أوروبا إلى بكين ، وبهم زاد عدد المسيحيين المنتصرين حتى أنهم كانوا نحو ٦٠,٠٠٠ في سنة ١٣٠٥ م ، وجمع جون نحو ١٥٠ ناشئاً علمهم الإغريقية واللاتينية ودرهم على ترتيب الأناشيد الدينية على الطريقة الغربية .

وابتهج البابا كليمنت الرابع فقرر أن يؤسس في الصين وحدة أو أبروشية كاثوليكية وأن يكون جون هو الأسقف الأكبر The Arshpishop - ولأنه لا يستطيع الحضور إلى روما كي يتلقى تنصيبه من البابا .

ولذلك اختار البابا سبعة من جماعة الفرنسيسكان ذوى حماسة وعلم بالكتب المقدسة فنصبهم قسما ، وفوضهم نواباً عنه في تنصيب جون ، وجهزهم لهذه الرحلة الطويلة إلى بكين فمرض واحد منهم وعجز عن السفر ، ومات ثلاثة في الطريق ، ووصل الثلاثة الباقون ونصبوا جون مطراناً ، فكان أول رئيس لكنيسة لاتينية في الشرق الأقصى بدأ من سنة ١٣١٣م ، وعاش حتى سنة ١٣٢٨م فأحدث موته ضعفاً وتخلفاً في الكنيسة ، وحاولت روما إنعاشها فأرسلت عدداً من الإرساليات ، ولكن لم تستطع واحدة أن تصل إلى بكين ، وفي سنة ١٣٣٥ وصلت واحدة ، فاستقبلها الخان الأكبر تيمور بحفاوة كالتي استقبلت بها الإرساليات السابقة ولكنها في الواقع كانت سفارة - لأجل ولم تكن إرسالية دائمة ، وكان رئيسها يسمى جون المارجنولى فغادر بكين عائداً سنة ١٣٤٦م ، وبقيت الكنيسة في حالة ضعف .

وفي سنة ١٣٦٢م استرد الصينيون بلادهم من المغول ، فعملوا على نشر وثنيهم ، فصدر أمر ملكى بطرد الكاثوليك نهائياً من بكين سنة ١٣٦٩م ، وكانت هذه نهاية الإرساليات الغربية بالصين .

وكما ذكرنا من قبل قامت أسرة منج ، وظلت المسيحية طريفة نحو قرنين ، وفي سنة ١٥٥٧م ، تمكن البرتغاليون أن يشتبوا أنفسهم تجاراً في قرية ماكورو Macoo ، وأقاموا لهم كنيسة كاثوليكية ، ثم وفدت جماعة أخرى نمت بهم القرية لكنها كانت خليطاً من الشرق والغرب ، وغصت بالأوغاد والسفلة ، ولم تستطع المسيحية أن تنفذ إلى جوف الصين ، وكان موقف الصينيين جافاً جامداً ، ويس القسس من قبول الدعوة ومن تنصير فرد واحد ، ثم قدم زفير وبعض رفاقه فبدلوا جهداً ولكن الوضع لم يتغير إلى أواخر القرن السادس عشر .

وأصبح مبشر هو القس الانجليزى متى ركسى Matthew Ricci^(١) الذى بدت فيه مهارة الانجليز وسياستهم ومكث هناك ثمانية عشر عاماً (١٥٥٢ - ١٦١٠) أقام فى ماكو زمنا تعلم فيه لغة الصين وعاداتهم ، وكان ماهراً فى صناعة الساعات ، وهو أول من أدخلها الصين ، كما كان ماهراً فى صناعة الخرائط ، وقد استطاع بحذقه ومهارته أن يصل إلى الإمبراطور ليقدم له ساعتين هدية ، ولم يكن الإمبراطور يقابل أحداً غير طواشييه وحرمة ووزرائه ، فبرز للقاء ركسى وأبدى دهشته للساعة ، وأيقن أن هناك حضارة لم تعرفها بلاده .

استقر ركسى فى العاصمة وأنشأ كنيسة بها ، وكسر الجدار الصلب بين المسيحية وبنى الصين ولكن الذين تنصروا كانوا قليلين جداً ، ووفدت إرساليات أخرى سمح لها ببناء كنائس أيضاً ، وحاولت أن تنشر دعوتها فى آسيا الوسطى ، لكنها واجهت مرة ثانية صدمة أكبر وهى الإسلام .

وفى نظرة أوسع نجد إرساليات عديدة من اليسوعيين الفرنسيين والدومنيكان .. تسابقت إلى منطقة الشرق الأقصى وأواسط آسيا وكانت تمد بمعونات كبيرة ولكنها لم تلق نجاحاً^(٢) .

كانت البرتغال ودول إيطاليا التجارية وانجلترا وفرنسا تعمل على إنشاء مراكز تجارية لها هناك واتخذت الإرساليات التبشيرية وسيلة لها ، ولجأت إلى إنشاء المدارس والملاجئ والمستشفيات لتقدم لهذه الشعوب خدما تكثر حدة كراهتها وعدائها ، ولكنها فى كل هذه البقاع آسيا الوسطى وجزر الفلبين والصين وغيرها وجدت بذوراً إسلامية ومواطنين دخلوا الإسلام لمجرد تأثرهم وانفعالهم بسلوك التجار المسلمين وحسن معاملتهم وأمانتهم . وليس لدعاة

(١) أشهر مبشر كاثوليكي فى الشرق بعد زانير - واستطاع أن يثبت المسيحية ويمدها أكثر منه والكلمة Ricci إيطالية وتنطق رتشى .

(٢) كانت أوروبا تجهل هذه البقاع ، وقد وفدت فى القرن ١٦م بعثة برتغالية تبحث عن إقليم كاتاي لتبشر المسيحية فيه فلم تجده ثم علمت أخيراً أن كاتاي فى اللغة البرتغالية هى الصين .

المسلمين ولا للدعوة الإسلامية تاريخ نعرف به بالضبط بداية دخولها هذه الجهات ، ولكن هكذا نجدتها وجدت هناك قبل المسيحية .

وقبل أن نواصل الحديث عن النشاط التبشيري في الصين نلفت أنظار المبشرين والمستشرقين إلى هذا الموقف ، وهو اصطدامهم بالإسلام في هذه البقاع كلها ، فهنا لا قوة ولا سيف ولا حكومة إسلامية ، أليس في هذا ما يكفي رداً عليهم في اتهامهم الإسلام بأنه نشر بالقوة وحد السيف ؟ إن المسيحية هنا هي التي نشرت أو حاولت أن تتخذ لها موقعاً متكئة على قوة الحكومات وأصابع السياسة .

وفي الصين تنتشر ديانات أقرب إلى المسيحية ، وأنأى عن الإسلام ومع هذا نفر الأهليون منها ، ومع اعتمادها على القوى والمعنونات التي ذكرنا ظلت مجمدة نحو ثلاثة قرون ، ثم ظهرت بدءاً من القرن التاسع عشر - عصر النشاط والامتداد التبشيري في مختلف أنحاء الشرق ، لأنه عصر الاستعمار ، وقد ضمنت الدول الأوروبية المستعمرة حماية الإرساليات وعمت على تبيتها في مستعمراتها لما تمنحني من ثمرات أعمالها ، وكانت تستر دائماً وراء حرية الأديان ، ولكنها من غير أن تنمّر غضب الآخرين تعمل على تقوية الكنائس والإرساليات ، وفي النصف الثاني من هذا القرن كانت الإرساليات تتسابق على أخذ مكانها في الدول الشرقية ، وفيه نالت أعظم نجاحها ، ونجاحها في الصين يسفح أن يراعى ويقدر ، لأن الدعوة المسيحية هناك كانت مجمدة تقريباً ، وكانت الحروب الكثيرة التي نشبت بين الصين وعدد من الدول الأوروبية قد وقفت نشاط الدعاة ، وكان الصينيون يرون في المبشرين الأوروبيين صورة الأعداء المحاربين ، وفي سنة ١٨٥٨م انتهت الحروب بعقد معاهدات أملت على الصينيين شروطاً قاسية ، واتفقت كلها على السماح للغرباء أن ينتقلوا ماشاءوا في جوانب الصين ، وأن تكون الديانة المسيحية مصنونة لا تمس ، وأن يكون للمبشرين حق مزاوله التبشير في كل مكان ، ولا يخص هذا الشرط بالإرساليات الوافدة ، بل يشمل المسيحيين الصينيين ، وكان هؤلاء لا يجرؤون

على التجول بالدعوة المسيحية لأن الحكومة تمنعهم ولكن لأن الشعب لم يكن يطيقهم ولا يتقبل دعوتهم ، وإذن قد حمت الاتفاقيات الدولية دعاة المسيحية ، وأنالهم من الحراسة ما لم يكن لهم من قبل . فانفتح باب الصين واسعاً أمام الإرساليات الكثيرة المختلفة ، وكانت الإرساليات البروتستانتية أنشط وأكثر من غيرها .

وفي سنة ١٨٥٣ - قبل إنهاء الحرب بنحو خمسة أعوام كان المبشر الانجليزى (الأنجليكانى) جيمس هيدسون تايلور^(١) قد وفد على البلاد ، فأقام في حالة انكماش وعكف على درس اللغة الصينية حتى أجادها ، ثم هيات له المعاهدات التى أبرمت أن ينتقل في أرجاء البلاد في حماية القانون وقد أصبح قديراً على مخاطبة الصينيين بلغتهم وتزوج إحدى الصينيات ، وصادق أحد المتصرين ، فرأى أن يستقيل من جمعيته الانجليكانية ولعله أحس أن انتهاءه إليها مما ينفر منه ، وقد عمل على الاندماج في الشعب مستعيناً بزوجه وصديقه ، فلبس ملابس الصينيين ، وتبنى عاداتهم ، وبذا استطاع أن يدخل عدداً منهم في الدين المسيحى خلال رحلاته البعيدة في البلاد ، ثم عاد إلى إنجلترا ، ولكنه لم ينس واجبه نحو الصين . فظل يعمل لنشر المسيحية بها .

ومما يوازن به عمله أنه حتى سنة ١٨٦٥ ، أى بعد وقف الحرب بنحو سبعة أعوام كان بالصين إحدى عشرة مقاطعة . من مقاطعاتها الثمان عشرة . ليس بها إرسالية واحدة بروتستانتية ، أما السبع الأخرى فقد كانت تحت الاحتلال ، ولم تكن الإرساليات التى بها تجاوز الساحل ، وهذا ما يبين أن عمل تايلور لم يكسب الدعوة انتشاراً ولكنه عرف بها .

عاد إلى إنجلترا سنة ١٨٦٠ عليلًا ليس له أمل في العودة إلى الصين ، ولكن مشاعره كانت مليئة بالتفكير في المقاطعات غير المحتلة التى ليس بها

(١) لتايلور هذا عدد من التراجم أكبرها ما كتبه دكتور هاوارد تايلور هو وزوجه & Mr.

إرسالية واحدة ، فعمل على تكوين إرسالية كانت إلى مدة طويلة أكبر جماعة تبشيرية في العالم كله وهي إرسالية الصين الداخلية Inland Missian وامتازت بما وضعه لها من نظم وقوانين هي التي أكسبتها نجاحها وتفوقها ، ومن أهم تعاليمه أن جعلها جماعة مستقلة ، قيادتها من داخلها وتتصرف بوحى من ظروفها ، ولا ترجع إلى الكنيسة الإنجليزية ، وهذا من آثار النزعة البروتستانتية التي خرجت من قبل على الكنيسة الرومانية ، واتخذت هداها من الكتاب المقدس وحده ، ولكنه شدد أن تكون محافظة على تعاليمها الدينية ، وأعطاه حق قبول المسيحيين الذين يريدون أن ينتموا إليها من أى كنيسة إذا قبلوا تعاليمها ، وهو في الواقع فتح الباب لقليل الثقافة أن يتدرجوا إلى المراكز القيادية في الكنيسة ، وأن يوجد من الصينيين دعاة وقس كبار ، ومن تعاليمه الهامة أيضاً أن يندمج المرسلون في الشعب الصينى وأن يلبسوا ملابسهم ويتبنوا عاداتهم ، وبهذا لا يشعر الصينيون بغربة هؤلاء الدعاة عنهم وبذا تزول الفجوة بين الصينى الوطنى والأوروبى الوافد ، وجعل مهمة رجاله أن ينشروا دعوة الإنجيل بين الشعب الصينى وأن يجعلوا هذه الدعوة ذات مكانة أكبر من إلقاء العظات في الكنائس .

وقد واجه صعوبات كثيرة ، من عدم إقبال الصينيين ومعارضة الحكومة أحياناً ، وقلة الدعاة وقلة ثقافتهم ، وقد آلمه أكثر أنه فقد زوجته سنة ١٨٧٠ ، ولكنه كان يعمل على إيجاد إرساليات في المقاطعات سواء كان بها أتباع كثيرون أو قلة قليلة ، واستطاع أن ينشئها في جميع المقاطعات عدا ثلاث منها ، واستطاع أن يجعل لإرسالياته دعاية في انجلترا حتى أن سبعة أشخاص من المثقفين من كمبردج تطوعوا للعمل في إرساليته بالصين ، ومهما يكن من شأن إرساليته فقد تناثرت وامتدت رغم قلة الأتباع ، وفي خلال ثلاثين عاماً امتدت غرباً حتى قاربت حدود التبت ، ويعتبر تساعده إقراراً عملياً على عدم قدرته على منافسة الكاثوليكية ، وفي امتداد دعوته إلى الصين التركستانية واجهت منافساً خطيراً هو الإسلام ، ومع أن المسلمين لم يكن لهم رابطة ولا مركز دعاية كان الإسلام بمبادئه وتعاليمه أكبر عائق تواجهه هذه الإرساليات المنظمة .

وظهر أيضاً في هذه الظروف سنة ١٨٧٠ داعية مسيحي من جماعة الميثوديزم وهو دافيد هل David Hill كان من المحبوبين المقدرين من الإرساليات الأخرى ، ومن مفاخره أنه استطاع أن ينصر أستاذاً جامعياً كان من أتباع الديانة الكونفوشية ، وهو باستور هيزي ، Pastor Hisi وكان من مدمني الأفيون ، فلما دخل المسيحية أقطع عنه ، ثم قام بعمل جليل هو إنشاء ملاجئ لعلاج ضحايا الأفيون ، فكان هذا مما اجتذب الناس إلى المسيحية ، وكان هيزي ذا نشاط مستقل في الدعوة المسيحية .

وشخص بريطاني كبير هو تيموثي ريتشارد Timothy Richard الذي دخل الصين سنة ١٨٧٠م أيضاً ، وعمل بها ثلاثين عاماً ، ولم يكن يعنيه أن يسرع الناس إلى المسيحية ولكنه كان يعنيه أن يث الفكر المسيحي في أذهان المثقفين ، وله أثر في بعث المدينة الأوروبية في الصين ، وأنشأ هناك مجلتين ، هما مجلة الأزمنة ، ومجلة المسيحية - ثم فتحت مدارس لتعليم اللغة الانجليزية ، ثم فتحت جامعات مسيحية وساندتها الولايات المتحدة بالأموال وفتحت جامعة مشيخية Preslay Terian - في كانتون (١٨٩٣) - وبها نمت المسيحية في مكان أخذ الإسلام فيه مكانه من قبل ، وظلت الإرساليات في نمو حتى كانت في نهاية القرن التاسع عشر نحو ١٥٠٠ إرسالية في ٥٠٠ مقاطعة .

ولم تكن هذه الإرساليات محبوبة لدى جمهور الصينيين ، لأنها شغلت بلادهم بمظهر استعماري وعملت على تلوينها بلون غري ، ونمت في نفوسهم كراهة هؤلاء الأجانب ، واعتبروا الإرساليات أسساً للاحتلال والاستعمار . فكانوا يعملون على حربهم وإيذائهم واستمر ذلك نحو نصف قرن لم ينج أعضاء الإرساليات خلاله من الموت إلا بأعجوبة ، وفي نهاية القرن وربما بدءاً من سنة ١٨٩٦ عجزت الإرساليات عن حماية نفسها . ومات الكثيرون في الثورات التي لم تكن تنقطع . والذي أعطى الموقف صورة أشد هو تدخل الامبراطور دواجر Dawager - ذي التمسك الشديد بالبوذية ، فأنشأ حركة الثوار التي سماها الأوروبيون « ثورة الملاك » سخرية بها وإشارة إلى ما لها من عنف وميل

لاستعمال القوة ، وكان شعار الثورة دائماً .. « حطم الأجنبي » ثم صدر في أول سنة ١٩٠٠ مرسوم أميرى بقتل الأجانب ، وحاولت الحكومات في بعض المقاطعات حمايتهم ولكن السفارات في بكين نفسها حوصرت لمدة تقرب من شهرين ، وقتلت أعداد كبيرة من المسيحيين رجالا ونساء وأطفالا .

ولم تدم هذه المذابح طويلا لأن الدول الأجنبية تدخلت بقوة مشتركة لحماية رعاياها ومفوضاتها السياسية ، فما جاء آخر العام حتى اضطرت الحكومة الصينية أن تخضع للقوة المشتركة ، ولم يقف الأمر عند تخلص الأسرى بل فرضت على الصين غرامة مالية تعويضاً للأرواح والممتلكات ، وكان عليها أن تدفعها أقساطاً ، ولكن رجال الإرساليات أبدوا تعففاً ولم تقبل التعويض ، وقد كانت الإرسالية الداخلية أكثر الإرساليات خسارة لكثرة فروعها في أنحاء البلاد ، ولكن مؤسسها هدسون تايلر - صمم على رفض أى تعويض ، واعتبر هذا لونا من الدعاية للمسيحية لأنه أظهر عظمة المسيح وتواضعه ، فحذت حذوه الإرساليات الأخرى وردت أمريكا قسط التعويض الأول ليكون زخيرة لتعليم بنى الصين ، وعادت الإرساليات من جديد لأعمالها وتكاثرت حتى كانت في آخر هذه المدة نحو ٥,٤٦٢ إرسالية من البروتستانت ، بينهم ١,٦٥٢ زوجة .

ولم تدم حال السلام في الصين طويلا ، فبعد عشرة أعوام قامت الثورة من جديد وأنزل الإمبراطور من فوق عرشه وقامت الجمهورية ، ونصب سان يت سن Sun-yat Sen رئيساً مؤقتاً للجمهورية ، وكان مسيحياً تلقى تعليمه في مدرسة إرسالية في - هونولولو - ولذا فإنه عندما سئل عن أسباب نجاح الثورة أرجعه إلى المسيحية وبركة المسيح .

وبعد كل هذا المجهود ، وبعد الإغراءات المادية والحروب الدامية ظلت المسيحية قلة ضئيلة جداً في الصين ، وبصعوبة يمكن أن يصل عدد المسيحيين إلى ١٪ من مجموع السكان ، وعندما فرضت الشيوعية وقامت بدعاياتها ضد الأديان دخلها بعض المسيحيين اقتداء بمسيحيى روسيا ، وأصر المسلمون على إسلامهم ولما اختلفت الصين في شيوعيتها عن روسيا ، وجد المسلمون في

إباحة الصينيين شيئاً من الملكية مشجعاً على إصرارهم ، ودليلاً على أن مبادئ دينهم مما لا يمكن التخلي عنه .

وموقف القلة القليلة في الصين من المسلمين الآن هو موقفهم في مختلف الأنحاء النائية عن العالم الإسلامي من الحاجة إلى الدعاة والمعرفين بالإسلام .

ولا يعاني الداعية الإسلامي ولا المبشر المسيحي في الصين ما قد يلاقيه الواحد منهم في روسيا . ويوجد الآن حول الصين جاليات إسلامية فقى اليابان وكوريا وهونج كونج جماعات إسلامية ، ولكنها كلها في حالة ضعف منظر لقلة المعلومات عن الإسلام وعدم وجود معلمين ، وعدم معرفتهم اللغة العربية وهم مع كل ذلك محاربون .

٨ - محبة الإسلام في الصين :

مع ماتعرض له المسلمون في الصين من مواقف كثيرة حرجة تعارض دعوة الإسلام وتعاليمه - لم يواجهوا اضطهاداً وعنفاً كالذى واجهوه على يد الحزب الشيوعى ، وهو في الواقع اضطهاد يذكر بما أصاب المسلمين في أسبانيا ، أو هو صورة منه في كثير من الأعمال ، الخديعة والإبادة وإحراق الكتب الدينية والإكراه على ترك الإسلام .

فعندما عقد الحزب الشيوعى مؤتمره السادس سنة ١٩٤٥ ، أعلن الرئيس ماتسنج أنه بعد تغطية الشيوعية أرض الصين كلها فإن شعوب منغوليا والتبت والتركستان الشرقية لهم حق تقرير مصيرهم ، وأنهم يخبرون بين الاستقلال التام إذا فضلوا ذلك ، أو أن يكونوا جمهورية فيدرالية إذا أراد أن يعيشوا في إطار الصين الفيدرالية . وكان وعداً مبشراً أشبه بالوعود التى وعد بها فرديناند لمسلمى أسبانيا ، فبعد قبضه على زمام الحكم أعلن أن التركستان الشرقية تقف دائماً حجراً صلباً في طريق وحدة الصين التى لا تقبل التجزئة وأن هذا موقفه حتى قبل تحرير الصين ، ولكن يجب ألا يكون ثمة أدنى شعور أو أمل في تقسيم الصين إلى ستة جمهوريات فيدرالية ، وكان هذا نكوصاً عما وعد به .

وفي ديسمبر سنة ١٩٦٠ صدرت نشرة تقول أن في جمهورية الصين الشعبية أقليات وأن حظ الصينيين من مجموع الشعب هو ٩٤٪ ، وأنه يجب أن تصهر هذه الأقليات في الشعب الصيني حتى تتكون له وحدة خالصة ، والسبيل إلى ذلك هو المزيد من الزواج بين الصينيين والأقليات التي بينهم .. وطبقاً لهذه القاعدة شجع ماو السياسة التي تقضى بهضم مسلمي التركستان الشرقية وإذابتهم في الشعب الصيني ، وبدت سمات ومبادئ هذه الإذابة في نظم الثقافة والاقتصاد والدين التي مارسها ماو في التركستان الشرقية ..

وأول خطوة اتخذها لإصراره على استئصال الخط العرقي الذي كان أبناء هذه البلاد يستعملونه منذ ألف عام أو مايزيد عليها ، وفرض عليهم استعمال الحروف اللاتينية التي رأى أنها أقرب إلى الصوت الصيني ، ولكي يقطع أبناء التركستان الشرقية عن ثقافتهم القديمة أمر بإتلاف كتبهم بالحرق أو الإغراق ، فأيد ٣٧٠,٠٠٠ ثلاثمائة وسبعين ألف كتاب عرقي ، وبعضها كان ذا قيمة كبيرة جداً . وتعللاً بتكوين نظام اقتصادي جديد أجبر التركستان على الانتقال إلى أماكن أخرى كي تمحى الروابط الأسرية من بينهم ، وهذه كانت ذا قداسة لديهم ، وبهذا أيضاً قضى على الروابط والقوميات والعادات الدينية . ولكن حملته ضد الدين كانت أشد وأعنف لأنه كان يريد القضاء على الإسلام بسرعة وألا يبقى له أثر ، لهذا جمع نسخ القرآن وكتب الحديث وكل الكتب الدينية الإسلامية وأبادهها نهائياً ، ثم أمر بإغلاق جميع المساجد وتحويلها إلى مخازن وصالات للحفلات ، واصطبلات للحيوانات أو مذابح ودور للحوم وما إلى ذلك ، فلم يكشف بأن حرم المسلمين من أماكن عبادتهم بل ازدهرا أيضاً وأهانها ، وكان دور علماء المسلمين أقسى ، فقد قبض عليهم وأودعوا المعتقلات ، حيث سيموا فيها سوء العذاب ، واستعملوا أيضاً عمالاً كالعبيد واختبرت لهم الأعمال المهينة ، بعض كلف بتنظيف المجارى وآبار الفضلات ، وبعض كلف برعاية الخنازير وأجبر على أكل لحومها ، وهكذا اختبرت لهم

الأعمال التي لاتناسب عقيدتهم . - وهم ليسوا مجرد مسلمين بل أئمة يعلمون الإسلام .

والإحصائيات التي ذكرت عن المسلمين تحمل أرقاماً مزعجة ولعلها مع ذلك أقل مما هو حقيقى :

٣٦٠,٠٠٠ قتلوا -- بمختلف وسائل القتل .

١٠٠,٠٠٠ فروا هارين إلى روسيا . باعتبارها أقرب مكان لهم ، وهم طبعاً يائسون من بقائهم على دينهم - إلا ماتكن ضمائرهم .

٥٠٤,٠٠٠ أجبروا على الذهاب إلى خيام الأعمال الشاقة - وهى تسعة عشرة جماعة أو محال مخصصة للأعمال الشاقة المهينة فشغل المسلمون وحدهم عشرة منها وبقي تسع للمجرمين والمسجونين الآخرين .

وإذن فنحو مليون مسلم أصيبوا بما لا يطاق ، وغمر القتل الذين نفذ فيهم الإعدام سقط كثيرون موقى أيضاً تحت وطأة التعذيب .

وبعد موت ماو رأى القادة الذين قبضوا على الحكم بعده أن من الحتم أن يقرروا بعض الأعمال التى قام بها ضد المسلمين ، أو على الأصح أن يتمموا أعماله الخسيسة ، وكذلك فعلوا . ففى شهر أكتوبر سنة ١٩٧٨ أعلن أن الأقليات الإسلامية أكرهت على إحراق موتاهها ، وأن تأكل لحوم الخنازير وأن يربوها على الرغم منهم ، وأن بعضاً آخر منهم منعوا من مزاوله الأعمال التى يتقدم بها اقتصادهم وحوربوا فى الأوضاع المختلفة ، وأصر هؤلاء الحكام على إفتاء كل شئ من ثقافة المسلمين وأفكارهم الدينية ، ولكن الظروف اضطرتهم بعد ذلك أن يقدموا لهم بعض المعونات أو أن يخففوا عنهم وطأة هذا الاضطهاد، فقد رأوا أنهم بهذه الأعمال أضروا ببلادهم وحرموها من مجهودات نافعة، كان هؤلاء المسلمون يقومون بها ، ولم تكن مساعداتهم شيئاً ذا بال ، ولكنهم حصروا الضيم الذى يمسهم فى جوانبه المعروفة الثقافة والاقتصاد والدين وبعض الحقوق السياسية فرأوا أن يدخلوا عليها شيئاً من التحسين ، ففى عهد ماو كانوا

مجرى أن يعيشوا على الشعور ليسدوا به رمق حياتهم وليس لهم أى ممتلكات فسمح هؤلاء لهم بممتلكات صغيرة خاصة يزرعونها ، كما سمحوا لهم بممارسة بعض الأعمال التجارية لترفع مستوى حياتهم المهيّن - ثم جعلوا أجورهم بدءاً من سنة ١٩٨٠ م ٨٠ ين أى مايعادل ٥٠ دولاراً . وكانت أجورهم فى عهد ماو مجمدة ، فأخذ خلفاؤه بمبدأ من يعمل أكثر ينال أجراً أكثر ، وكانت البلاد قد انجهدت إلى التخلص من النظام الشيوعى الذى يحرم الملكية الخاصة ويجعل الممتلكات كلها للدولة ، فأباحت الملكيات الخاصة وأباحت للزراع أن يبيعوا إنتاج مزارعهم للدولة ، وجعلوا الأثمان التى تدفع لهم مقبولة أو معقولة ، ولكن لم يأخذ التركستان حقوقاً كافية ، فهم يطلبون فقط استقلالاً ذاتياً ، ولا يبدو أن هناك اتجاهاً من الدولة أن تمنحهم هذه الحقوق ، وحكومة البلاد فى قبضة رجل شيوعى ماكر .

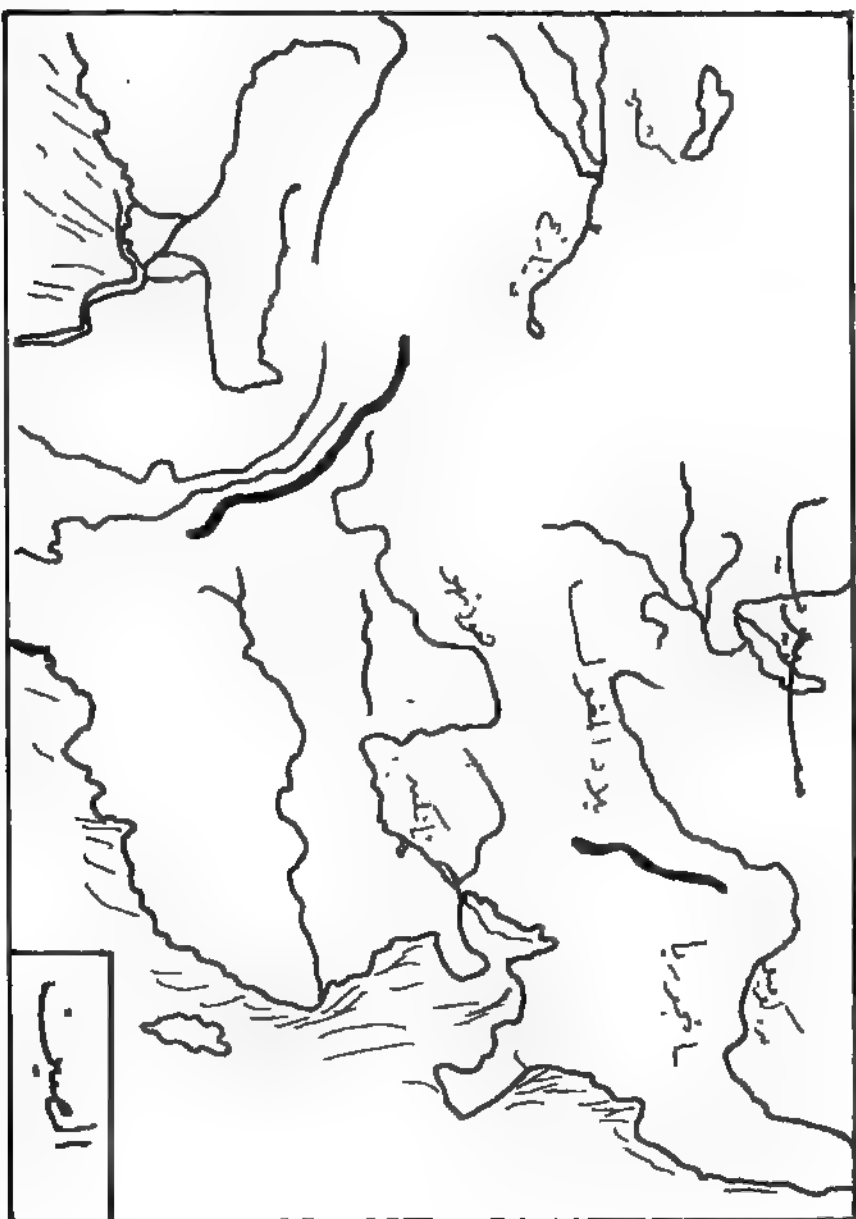
وأعلنت الدولة حرية الدين ، ولكن تعليم الإسلام فى المدارس محرم ، ومنذ سنة ١٩٥٥ كان يوجد معهد إسلامى لتدريب العلماء - ولكن طلبة هذا المعهد يختارون بدقة بمعركة الحزب الشيوعى ، هذا مع ملاحظة أن التعليم الإسلامى فى مدارس خاصة أو بواسطة معلمين متطوعين غير مباح .

واللغة العربية لا تدرس فى مدارس التركستان ولا تعلم حروفها ، وحتى الذين يستطيعون قراءة الحروف العربية لا يستطيعون أن يفهموا كلماتها ، ولذلك إذا قرأوا القرآن لا يفهمون من معانيه شيئاً ، وقد ترجم القرآن إلى لغتهم - لغة اليوجر Uigur - ونظراً لأنهم هجروا التهجية العربية واستعملوا الحروف اللاتينية منذ مايزيد على عشرين عاماً لا يستطيعون أن يقرأوا أو يفهموا القراءة العربية ولا يحسنون نطقها - ويسمح بقراءة القرآن وحفظ شيء منه فى المسجد حيث تدرس نظريات التكوين الاجتماعى ونظريات الاقتصاد وقواعد الشيوعية ونظرياتها الاقتصادية وعقيدة ماو ، وما إلى ذلك ، فهو لا يقرأ أو يدرس لأجل العبادة وإنما هو عرض لنظريات دراسية .

وعند قيام الشيوعية في الصين كانت المساجد ٢٩,٠٠٠ مسجد في التركستان الشرقية ولما نالها من النظام الشيوعى ماذكرنا من تحطيم وتغيير ، بقى إلى الآن نحو ١٤,٠٠٠ من المساجد الصغيرة التى لا يؤبه لها ، ويوجد فى المنطقة كلها الآن نحو ٢٦,٠٠٠ من رجال الدين الإسلامى ، وقبل قيام الثورة الشيوعية كان الأئمة نحو ٥٤,٠٠٠ وهؤلاء الذين أفلتوا - مع ماناهم من التحسن بعد موت ماوتسج Mao Tsang يعيشون عيشة متواضعة جداً وفى مستوى ضئيل ، وبلاد التركستان الشرقية إلى جانب ماتغل من محصولات الزراعة والصناعة التى تتسلمها الحكومة بها الآن ثروات طبيعية من البترول واليورانيوم والذهب والفضة .. وهذه كلها تحتكرها الحكومة المركزية ، وليس للمسلمين سكان البلاد الحق فى معرفة شىء عن هذه الثروة التى تستخرجها الحكومة المركزية من بلادهم .

وهناك شىء آخر يضايق التركستان المسلمين من ناحية الاقتصاد والحياة الاجتماعية العامة وذلك أن الحكومة المركزية فى الصين تتخذ التركستان منفى كما تفعل روسيا فى اتخاذها سبيرا منفى للمجرمين وغير المرغوب فى إقامتهم فى مدنها ، والمسجونون المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة يرسلون إلى هذه البلاد ، وهم يضايقون المسلمين فى معيشتهم وفى أوضاعهم الاجتماعية ، إذ هم منحطون أخلاقياً وعادات ، وقبل سنة ١٩٤٩ كان يوجد هناك نحو ٢٠٠,٠٠٠ صينياً ، وهم الآن يزيدون عن خمسة ملايين والذين تنتهى مدة سجنهم لا يعودون إلى مواطنهم إن كانوا مسلمين ، والآخرون لا يسمح لهم أيضاً بالعودة إلا إذا كانوا من منظمة الحزب الشيوعى الوطنى الذى يشبه وحدات الحزب الاشتراكى ومقاره . والكثيرون لذلك بعد قضاء مدة السجن المحكوم عليهم بها يظلون فى خيامهم حتى يموتوا ، ومع تدفق المنفيين والمُسجونين أعلن سكرتير الحزب الشيوعى أن البلاد تستطيع أن تستوعب مائتى مليون - وهذا ضيق على المسلمين فى أراضيهم . والذين لا يسمح لهم بالعودة إلى أهليهم يسمح لأهليهم أن ينتقلوا إليهم .

أما المساواة بين المسلمين والصينيين فهي معدمة نهائياً ، فالمسلمون المسلمون الراضون بوضعهم المحزن لا يتولون إلا الوظائف الأقل رتبة وراتباً حتى الدرجات التي يستعملونها لا بد أن تكون متواضعة من الدرجة الثانية بينما تخصص الدرجات الممتازة للصينيين .



رابعاً : في أندونيسيا والملايو

١ - تعريف وتقديم :

أندونيسيا مجموعة من الجزر العديدة^(١) تقع في المنطقة الاستوائية عند التقاء المحيط الهندي والمحيط الهادى بين الجنوب الشرقى لقارة آسيا وشمال قارة استراليا ، وتنحصر بين خطى ١٠ شمال وجنوب خط الاستواء وإلى جانبها الشمال الشرقى تقع جزر الفلبين ، وكانت المجموعة كلها حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية تسمى جزر الهند الشرقية ، وهو وصف أضيف إليها تمييزاً لها عن الجزر الأمريكية التى كان يظن كولمبو وأتباعه أنها من الهند ، فلما تبينوا حقيقتها وصفوها بالغربية وبقي لها اسم الهند كما سمي سكان أمريكا الأصليون بالهنود .

هذه المجموعة من الجزر دائمة الأمطار غنية بالمحصولات الزراعية العديدة ولكنها اشتهرت أكثر بالأباريز ، والتوابل ، والبقول ، وكانت هولندا وقت استعمارها لهذه الجزر تسمى بقال أوروبا لما تحصل عليه من نتاج هذه البلاد وتنقله إلى بلادها وإلى الدول الأوروبية الأخرى .

وأكبر هذه الجزر وأهمها هى جزر سومطرة وجاوة وبورنيو وسليبي ، تليها جزر سولو ومالقا وفلورس ، وهناك جزر أخرى ليست صغيرة ، وحديث التبشير والإسلام في هذه المنطقة كلها مما بهم الداعية المسلم وما تحتم دراسته ، لأنها الآن ميدان صراع بين الإسلام والمسيحية ويولها التبشير أهمية لأنها ذات أهمية لدى الأوروبيين ، وكانت هولندا قد أولت التبشير أهمية أكبر فقسمت جاوة إلى مناطق وجعلت في كل منطقة كنيسة ومدرسة ، وجاء في تقرير للمبشر « أدوين بلس » أن عدد الذين تنصروا سنة ١٧٤١م بلغ نحو مائة ألف ، بينما كان عدد النصارى في سيلان سنة ١٧٢٢م وكان أيضاً تحت

(١) يزيد عدد الجزر الأندونيسية على ١٣,٠٠٠ جزيرة .

حكم هولندا قد بلغ نحو ٤٢٤,٠٠٠ ، وذكر التقرير أيضاً أن المسلمين كانوا قلة بها فزاد عددهم كثيراً^(١) ولكنه لم يذكر عدد المسلمين .

ومن أوائل الستينيات في هذا القرن وضعت خطة تبشيرية لتنصير اندونيسيا كلها في نصف قرن أو نحوه ، وقررت البداية تنصير جاكارتا - عاصمة جاوه - في عشرين عاماً ثم تنصير الجزيرة كلها في مثل هذا الزمن ثم يكون تنصير سائر الجزر أمراً هيناً ، وقد مر على هذه البداية أكثر من عشرين عاماً ولم تتم الخطة ولا جاءت النتيجة المرجوة ، ولكن نال التبشير كسباً واسعاً .
ونرجىء حديث التبشير قليلاً حتى نعرض حديث الإسلام .

٢ - الإسلام :

وتاريخ دخول الإسلام هناك وانتشاره غامض إذ لم يعن أحد بتلويحه ولا كانت له أحداث ووقائع تهم المؤرخين ، فالغزو الإسلامي كما هو معروف وكما ذكرنا من قبل لم يتجاوز غرب الهند ، والحروب المغولية لم تنحدر إلى الجنوب ، ولكن الفكرة الإسلامية حبت تدريجياً إلى تلك البلاد وبواسطة التجار المسلمين عرباً وغير عرب فشملت كل هذه البلاد حتى لا تخلو منها جزيرة من هذه الجزر التي تعد بالمئات والألوف ، والإسلام هو الدين السائد فيها جميعاً ، ولا ينقص الإسلام هناك إلا الثقافة الإسلامية ومعرفة الإسلام معرفة كافية ، وموقف الإسلام في هذه البقاع كلها يحمل أبلغ رد على المبشرين والمستشرقين الذين يكررون دائماً فرية انتشار الإسلام بمجد السيف وقهر الفاتحين ، فهناك لا حرب ولا فتوح ولا فرض لغة ولادين ، وقد توالى الدول الأوروبية المستعمرة على هذه البلاد منذ عرفوها في القرن السادس عشر ، قرن الكشوفات ونشر المسيحية في الشرق ، وكانت هذه الدول كلها تحارب الإسلام وترى فيه علواً يجب القضاء عليه ففضى عليها هي واحدة بعد الأخرى وبقي الإسلام ، وفي هذا الموقف درس أبلغ للمسلمين الذين اغضوا عن رسالتهم ولم يولوها ما تستحق أن تناله من اهتمام .

(١) الفارة على العالم الإسلامي ١٣ .

وقصة الإسلام في هذه البقعة كلها تدعونا إلى أن نرجع إلى الماضي البعيد لترى صلة العرب الأقدمين بهذه البلاد وكيف تمت هجرة من هاجر منهم إليها .

فمن قديم جداً كان في جنوب الجزيرة العربية موانئ ومراكز تجارية ترتبط ببلاد الهند وكانت السفن ترد إليها محملة بالتوابل والسيوف والملابس ، وفي القرن السابع الميلادي قبيل ظهور الإسلام كانت جزيرة سيلان - سرالانكا - مركزاً تجارياً نشيطاً يتلاق فيه تجار العرب والتجار الوافدون من الهند وماوراءها ، ولم يكن ثم - فيما يبدو - تمييز بين أبناء إقليم وآخر ثم امتدت رحلة العرب بعد الإسلام حتى نجدهم في القرن الثاني الهجري - الثامن الميلادي - يتجاوزون الهند إلى الصين فيقيمون في كانتون ويرتبطون بالأهلين هناك ، وظل العرب سادة التجارة ومديريها في هذا الجانب الشرقى حتى عصر الكشوفات البحرية في القرن السادس عشر وقد كان الملاح العربي ابن ماجد هو مرشد فاسكودى جاما إلى الهند .

ولعلم وجود مراجع ملونة عن دخول الإسلام هذه الجزر ، وإحاطته بالغموض كثرت الأساطير والمبالغات من جانب ودس عليه بعض ما يشوهه من جانب آخر ، ولكن الاستنتاج غير شاق ، لأن - الواغليين في أطراف الهند حين يصلون إلى أرخبيل الملايو لا يد أن يتصلوا بهذه الجزر ، وخط السير الذى استقر عليه رأى الباحثين هو أن الإسلام انتقل من الهند إلى جزيرة سومطرة قربها ثم انتقل منها إلى جاوه ثم إلى الملايو ، ثم إلى الجزر الأخرى^(١) .

أما رسل الدعوة فهم التجار أولاً عرباً وهنوداً فقد كونوا لهم مراكز استقروا فيها ، وكانوا مثلاً حسناً للتعامل وحسن السيرة ، وامتازوا بالنظافة ورقى المعيشة ، فاستهوا السكان ، وكانوا دمثى الأخلاق ذوى قابلية للاندماج بالأهلين فأصهروا إليهم ، وأسلم النساء الذى تزوجن من المسلمين وأنجبن ذرية مسلمة أسهمت في زيادة عدد المسلمين هناك ، وفعل المسلمون الأوائل ما فعل

(١) وليس هذا ترتيباً زمنياً عسداً .

المسلمون في غير قطر من شرائهم الأرقاء والأطفال ، وتنشئهم تنشئة إسلامية ، ثم كانت لهم مساجد وكونوا وحدات إسلامية امتازت بالرق وحسن التربية ، وبرزت هذه الوحدات في جزر الفلبين ، حيث تكون حزب إسلامي اختيرت له رئاسة متوارثة في أسرة خاصة ، وساعد ثراؤهم التجارى أن يتدخلوا في شئون الحكم ، وظلوا على صلة حسنة بالأسر العريقة في البلاد فجنّبهم ذلك الاشتباك معهم والتعرض لعداوتهم ، فظل عدد المسلمين في ازدياد ، ولعل هذا أصدق وأصح ما عرف عن دخول الإسلام هذه البلاد .

ونذكر أن المبشرين المسيحيين الآن يسلكون هذه الطرق من حسن التعامل والاندماج بالأهلين والإصهار إليهم لاجتنابهم إلى المسيحية ، وهم الآن في هذا أنجح وأرق من المسلمين .

وبعد أن مهد التجار المسلمون الأوائل لظهور الإسلام والتعرف عليه ، ظهرت وسائل أخرى ذات آثار معروفة ، فهناك جماعة الحجاج ، وهم جماعات أدوا الحج واختلطوا بوفود المسلمين فعادوا مقتنعين بوجوب شيوع الإسلام في بلادهم ، وعملوا على نشره في كثير من الجند والإخلاص ثم هناك المعلمون والفقهاء ، وهؤلاء كان أثرهم أكبر لما كانوا يثبثونه من ثقافة الإسلام وأحكامه ، ولا يقل عن هؤلاء دعاة الإصلاح من أتباع الدعوة الوهابية والسنوسية بل لعلهم كانوا أكثر فاعلية وتأثيراً .

ولا يزال في ألدونسيا إلى الآن وثنيات ، وهناك أيضاً البوذية ، وهي قوية في جزيرة بانى وبها المعهد الرئيسى وهي أيضاً في جب وجاكارتا . وهم يحافظون عليها تراثاً ، ولكن التنافس بين المسيحية والإسلام فقط ، وأكبر الظن أن التجار الهنود هم الذين قادوا الإسلام إليها ، هذا لقدم الصلة بين الهند وهذه الجزر ، وقد كان في الدكن مركز تجارى للعرب يختلطون فيه بالهنود ، ونقلوا إليه الإسلام ، وكان للهنود صلة أكثر بسومطرة ، وهناك قصة ذكرها -أرنولد- مع شيء من التحفظ تذكر أن داعية يسمى « عبد الله عارف » وفد على هذه الجزيرة منتصف القرن الثانى عشر الميلادى وقام بعده تلميذ له

يدعى برهان الدين بنشر الإسلام على الساحل الغربى ، وفى أوائل القرن الثالث عشر ١٢٠٥م كان ملك سومطرة هو جيهان شاه ، وهو داعية إسلامى قدم إلى الجزيرة فتبعه الكثيرون وأجلسوه وتزوج منهم ، وبلغ من حبيهم له أن نصبوه ملكاً عليهم ، فإذا كانت القصة كلها من نسج الخيال فإن لها دلالة على أن هناك قوماً كانوا يحبون هذا الدين ويحبون رجاله ، وقد جاء فيما كتب الرحالة العربى ابن بطوطة والآخر الإيطالى ماركوبولو وصفاً لسكان هذه الجزيرة بالوثنية وتأخر المظهر الحضارى ماعدا جزءاً صغيراً كان يدين بالإسلام ويمتاز أبناؤه بالنظام والنظافة وحسن الأخلاق . وكلا الرجلين زارها فى القرن الثالث عشر وبعده ، وجاء فى كلام « ماركوبولو » إن سكان المدن وحدهم كانوا مسلمين لأن تجار العرب « كما ينبغي أن يعلم » قد بلغ من كثرة تردهم على هذه المملكة أنهم أدخلوا الأهالى فى شريعة « محمد » وبسبب وفود التجار المسلمين على الموانئ الغربية انتشر الإسلام بها بينما تعثر فى الداخل وعلى المرتفعات حيث كان السكان لعزلتهم جامدين على وثنياتهم الموروثة .

وفى القرن الثانى عشر نفسه أرسل شريف مكة بعثة لإرشاد أهل سومطرة إلى الإسلام وكان يقودها إمام يدعى الشيخ إسماعيل فوصلت إلى بلدة باسورى Pasuri فاقتنع السكان بدعوته ثم مضت البعثة شمالاً على الساحل حتى الجانب الآخر من الجزيرة ، وقد قابلوا فى شمال جزيرة سمدره (سومطرة) ملكها فاقتنع بدعوة الإسلام وتسمى باسم الملك الصالح .

وكانت دعوة الشيخ إسماعيل ذات نجاح كبير ، فبسببها انتقل الإسلام من الساحل إلى داخل الجزيرة ، ويصف ابن بطوطة حاكم سمدره عندما زار هو الجزيرة سنة ١٣٤٥ بأنه كان مسلماً سنياً غيوراً على دينه ، وقد حارب هذا الملك الوثنية وكان بلاطه مأوى الشعراء والفقهاء ، وكان مولعاً بعقد المناظرات بين رجال الدين^(١) .

(١) سمدره هى سومطرة ، وراجع رحلة ابن بطوطة ج ٨٩/٤ وما بعدها وج ٦٦/٥

ونظراً لأن البلاد كانت تعيش على نظام قبلى ، وكانت القبيلة القوية تكون مملكة ، فإن أثر هذه القبائل الكبيرة أو الممالك فى نشر الإسلام أو تعويقه كان ذا أثر بالغ . ونذكر من هؤلاء قبيلتين فى سومطرة .

أولاهما قبيلة منانج كاباو^(١) التى امتدت مملكتها على الساحل الغربى بين خطى ٢ شمالاً ، ٢ جنوباً من خط الاستواء ثم توغلت فى الجزيرة حتى وصلت الساحل الشرقى ، وكانت تحارب الإسلام لتأصل الهندوكية فى نفوس حكامها ، ولكن الشعب فى الداخل وعلى السواحل أحب هذا الدين وآمن به فاضطرت الأسرة الحاكمة والدولة كلها إلى اتخاذه ديناً .

والقبيلة الثانية التى لم تسرع إلى الإسلام هى قبيلة البت^(٢) والإقليم أيضاً يسمى باسمها وهو فى شمال الجزيرة ، وقد أثر حاكمها البقاء على وثنيته لكن السكان الذين كانوا يجاورون المسلمين فى انجيه^(٣) أحبوا الإسلام واتخذوه ديناً ، وفعل فعلهم جماعة آخرون من سكان الجبال وفريق ثالث على الساحل الشرقى ، فظل الإسلام ينمو ويمتد بينهم ، وأغلبتهم الساحقة الآن مسلمة وبينهم قلة ضئيلة جداً وثنية وقلة أخرى مسيحية ، وبينهم مراكز تبشيرية قوية اكتسبت كثرة من الوثنيين خصوصاً القرييين من جاكارتا .

وبدل كل شئ فى هذه الجزيرة - وهو أمر متبع أيضاً فى غيرها - أن سكانها لا يخضعون إلى العنف ولا يقبلون الدين إلا اقتناعاً وطوعاً ، ففى أوائل القرن الرابع عشر كانت أسرة بدرى Padri المسلمة المتعصبة تحاول فرض الإسلام على البت^(٢) ، فحاربوهم وقتلوا منهم كثيرين وخربوا بلادهم فلم يستجيب لهم أحد ، ولما جاءت الحكومة الهولندية ، وقفت هذه الحركة ، فبدأ أبناء البت^(٢) يتعرفون على الإسلام وأخذ الإسلام يتسلل بينهم ، واستقدمت الحكومة الهولندية موظفين من الملايو كانوا مسلمين ، فدعوا إلى الإسلام

. Minang Kabau (١)

. Batak (٢)

. Atakeh (٣)

بقولهم وبسلوكهم فامتدت موجته ، وأكثرت القوم الآن كما قلنا مسلمة ، ويبدى آرنولد تعليقات لهذا التغير الكبير ، منها أن الاستعمار الهولاندى أزال نعرتهم القومية ، أى أنهم كانوا يعتبرون فرض الدين عليهم من آل البدرى نوعاً من الإخضاع والإذلال ، وقد ذلوا جميعاً للمستعمر الأوروبى ثن رأوا أن التفهم وبحث الحقائق أولى من الإصرار على الباطل ، ومنها أن الإرساليات المسيحية أشاعت نوعاً من الثقافة به جنح القوم إلى التفكير والبحث المنطقى فأثروا الإسلام عن علم وتفكير ، حتى أن قريتين من البتك كانتا قد هجرتا الوثنية إلى المسيحية فلم تلبثا إلا قليلاً حتى دخلتا الإسلام بأسرها ، ومنها أن أئمة الإسلام - بما للإسلام من سماحة وحب للمساواة والعدل - اقتربوا من نفوس القوم فجعلوهم يميلون إلى الإسلام ويحبونه ، ولعل هذا أقرب قبولاً ، وأصدق دليلاً .

وهناك أسر كبيرة أخرى لها مثل هذا الموقف ، وتقدم الإسلام على أى حال فى هذه الجزيرة وبقية الجزر لم يأت إلا فى القرن السادس عشر وما بعده ، وقد ظل ينمو ويمتد حتى جاءت الإرساليات التبشيرية بمؤثراتها المادية وأساليبها الحديثة فضارته كثيراً ، وقابل نشاطها فتور من جانب الدعاة المسلمين ، وبدأت أخيراً وفود مسلمة تتجه إلى الأزهر ، وكنا نود أن تجد الغذاء الروحى والدينى الكافى ، ولكن أخذ القليل يخرج من ترك الكثير .

ودخل الإسلام الجنوب الأقصى للجزيرة ، ومملكة بنتم^(١) على الساحل الجنوبى الغربى لجزيرة جاوه عن طريق جزيرة سومطره التى لا يفصلها عن بنتم إلا مضيق ضئيل ، وعلى أى حال كانت الموانىء والمراكز التجارية هى الأمهات التى استقر فيها الإسلام ثم انتقل منها إلى ما سواها .

وليس تاريخ الإسلام فى جاوه أقل غموضاً ، ولكن ترجع بدايته فيما يقال إلى نهاية القرن الثانى عشر حيث حاول ابن لأحد الملوك على الشاطئ الغربى

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ص ١١٠ .

أن يث الإسلام في مملكة أيه فلم يفلح ، فهرب إلى باطن الجزيرة ولم يظهر بعد ، ولكن يبدو أن دعوته تركت أثراً لدى بعض الأفراد .

وفي النصف الأخير من القرن الرابع عشر جددت حركة دينية نالت حظاً من النجاح على يد داعية جديد كان يدعى « مولانا ملك إبراهيم »^(١) يرجع نسبه إلى علي زين العابدين ، ولعله من شيعة الفرس وقد استطاع أن يضع بنور الفكرة الإسلامية بوجه ما على الساحل الشرقي ، ثم وفد أحد أقربائه وكان يدعى « راجاتشرمن » ومعه بعض أعوان له ، فبذر للإسلام بذوراً أخرى ، وكان يطمع في أن يستميل للإسلام مملكة هندية تدعى « ماجاباهيت » فلم تنل دعوته لديها نجاحاً ، ولكنها تركت أثراً أكبر في نفوس الآخرين ، ثم كان توالى التجار ونمو الفكرة يدفع الأهلين إلى الدخول في الإسلام تدريجياً ، فلم يمض قرن حتى كان عدد المسلمين قد كثر وأصبح لهم تدخل في شئون البلاد ، لأن هؤلاء الأهلين في البقعة كلها يربطهم الجنس واللغة ووقد عليهم أيضاً مسلمون من الصين بقصد الاستيطان فكانوا شريانياً ثالثاً - بعد العرب والهنود - لتفدية الدعوة الإسلامية .

ويوجد في جاوه عدد من مقابر الدعاة الأولين تحمل كتابات عربية ، وأشهرها قبر « إبراهيم »^(٢) على الساحل الشرقي من قرية جريسك Grisik وقبور الأولياء التسعة في « سورابايا » وجنوب جاكارتا .

وحسبنا هذه الصورة عن وفود الإسلام وتأصله في تلك البلاد .

السياسة ودعوات السدين :

عرف الرحالون في القرن الخامس عشر هذه البلاد ، وكانت البرتغال - أميرة الغزو البحري - أول من استولى عليها قبل نهاية هذا القرن ، فاستفادوا من خيراتها كثيراً ولم يقدموا لأبنائها خدمة ما ، وأجلاهم الهولنديون بعد

(١) له قبر يزور في مدينة سورابايا Sorabaya .

(٢) أخبرنا بعض الأندونيسيين أن اسمه المشهور بينهم هو سونان جيري Sunan Geri .

مائة عام تقريباً فرحب أهل البلاد بهم لما كانوا يحملونه للبرتغاليين من بغض وأملوا في هؤلاء خلاصاً مما عانوا ، ولكن الهولانديين الذين توددوا إلى الأهليين أول ما قدموا مالبوأ أن خضعوا لجشع تجارى أضر بالبلاد ، فكان لهم عديد من الشركات التجارية رأوا أخيراً أن يجعلوها شركة واحدة سموها « شركة الهند الشرقية الهولاندية » على نسق « شركة الهند الشرقية » الانجليزية التى مكنت للاستعمار الانجليزى فى الهند ، وأثناء الحروب الأوروبية على عهد نابليون استولت فرنسا على جزء من أملاك هولاندا ، واستولى الانجليز على جزء آخر ، وكانت هولاندا وانجلترا معاً تتفقان ضد نابليون ، فلما هزموه معاً فى « واترلو » استردت هولاندا أملاكها فى جزر الهند الشرقية ، وبقي للانجليز جزء منها ، وظل الأمر كذلك حتى نالت البلاد استقلالها حين تقلص الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ .

كان الحكم الهولاندى مسيئاً للأهليين ، بدت فيه دسائس الاستعمار بإثارة التنافس والعداوات بين السكان ، وضرب بعض القبائل ببعض ، وحاربت هولاندا دعوة الإسلام طوال ما حكمت لأنها رأت فيها عدواً يقض مضجعها ، ومع ذلك اتهمها المبشرون بأنها تعين الإسلام ضدهم .

كانت روافد الدعوة الإسلامية تأتى من الحجاج ، وقد عاصر هذا العهد قيام الدعوة الوهابية ، فافتتح بها حجاج أندونيسيا وعادوا بها إلى بلادهم يحاربون عادات الوثنية الموروثة هناك .

وصادفت دعوتهم قبولاً لدى الكثيرين ، وأعرض عنهم كثيرون أيضاً ، ومن منهجها أنها كانت تدعو إلى التحرير من أى سلطان إلا سلطان الخالق ، وكان هذا المنهج مما يضايق الدولة المحتلة ، وكان عند الحجاج يزداد عاماً بعد عام ، فلجأت الحكومة الهولاندية إلى الحد منه برفع أجور الحج - وبالحد من التصريحات التى تسمح للحجاج بالخروج ، وبذا قل عدد الحجاج جداً ، ومع مرور الزمن ضعفت الدعوة الوهابية وقل نشاط القائمين بها فلم يعد الحجاج يحملون بمكة هذا الغداء الثائر الحار الذى كانوا يحملونه من قبل ، وتنشيطاً لحركة الحج تكونت مراكز فى عدد من الجزر تساعد الراغبين فى الحج .

وامتدت إلى أندونيسيا دعوة الإصلاح التي نادى بها مدرسة الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا ، وبها قامت وحدة ثقافية تربط المسلمين برباط فكري من غير احتكاك بالسياسة ، وكان تفسير المنار وكتب الشيخ رشيد رضا تقرأ هناك ويقبل عليها المثقفون ، ثم أنشأ المسلمون جماعة إصلاحية سموها « شركة إسلام » أي الجماعة الإسلامية ، فما لبث أن نمت وانضمت إليها جماعات أخرى كانت أقل عدداً وسموا أنفسهم « مجلس سيجورو مسلمين أوندنيسية Madjlis Sijuro Muslimin Indonesia » (وهو يعنى مجلس شورى مسلمي أندونيسيا) .

وأدى عامل اللغة هناك دوراً آخر فإن الهولانديين جعلوا اللغة الملايوية هي اللغة الرسمية في البلاد عدا مدينة جاكرتا ، فحدث هذا وحدة بين الجزر الأندونيسية ، كما ربطها بالملاويين في ماليزيا والهند الصينية ، كذلك قضى على اللهجات المحلية المتعددة ، إذ كان لكل مجموعة من الجزر أو جزيرة كبيرة نسبياً لغة خاصة ، وكان يوجد بالجزيرة الواحدة الكبيرة عدد من اللغات بحسب القبائل التي بها . وكان المسلمون يعرفون اللغة الملايوية أكثر من غيرهم ، وقد استقدمت الحكومة الهولندية عديداً منهم للقيام بأعمالها الرسمية في مختلف الجزر والمدن ، فكانوا دعاة إسلاميين ناجحين ودخل الإسلام بسببهم عديد من أبناء أندونيسيا ، وهذا ما جعل المبشرين يتهمون الحكومة بمساندتها للإسلام .

أما الانجليز فقد فرضوا لغتهم لغة رسمية على الجزر التي كانت تحت أيديهم ولكنهم من جانب آخر عملوا على إحياء اللهجات المحلية وأبجديتها ، ولعل ذلك من أصابع السياسة الانجليزية التي ثبتت لغتها من جانب وقرت بين أبناء البلاد من جانب آخر ، وكان ذلك عائقاً للحركة الإسلامية .

ومنذ القرن التاسع عشر قامت نهضة إسلامية كادت تشمل الجزر كلها ، وبها أخذت اللغة العربية مكاناً وكثرت الأسماء العربية حتى نجد للولد إسماعيل يختلف في نطقه العربي عن اسم أبيه الأندونيسي . ويوجد من الأندونيسيين الدارسين الآن طلاب في العديد من الجامعات والمدارس العربية ، ولكنهم

لا يوازنون بدعاة المسيحية ، لأن معاهدنا الشرقية الآن ضعيفة في مناهجها ولى تكوينها الدراسى ، ولا يستفيد منها الوافدون لغة عربية قوية ، وقد رأيت الطلبة الذين يدرسون فى الجامعة الأمريكية وفى بعض مدارس الاستشراق يفيدون من اللغة العربية أكثر مما يفيد طلاب المعاهد العربية ، وهذا مؤسف حقاً .

ويوجد فى أندونيسيا الآن جمعيتان إسلاميتان كبيرتان - هما « جماعة نهضة العلماء » أسسها الشيخ هاشم أشعري سنة ١٩١٢ ، وهى تعنى بتعليم الفقه على الطريقة المذهبية ، والمذهب السائد هو المذهب الشافعى ، والجمعية الثانية هى الجمعية المحمدية أسسها الحاج محمد دحلان سنة ١٩٢٦ ، وتعنى ببيت العقيدة السنية وتعاليم المذهب الروافى ، ولا ترى شدة التقسك بالفقه المذهبى .

وهناك الحزب الإسلامى ، وهو حزب سياسى أعضاؤه من هاتين الجمعيتين ، وهو الذى ورث جماعة ما شومى ، وقام بجانب كبير من أعمالها بعد أن حلها الرئيس سوكارنو سنة ١٩٦٠ ، وكان قيام هذا الحزب فى عهد الرئيس سوهارتو . هذا يجعل ما يذكر عن الإسلام فى تلك الجزر ، وموقفها الحالى يدعو إلى الرثاء للإسلام والمسلمين ويهيب بالمسلمين فى كل بلد أن يؤدوا واجب العمل للإسلام هناك .

٣ - نشاط التبشير :

يبدأ النشاط التبشرى فى هذه الجزر بالقرن الثامن عشر ، ولم تكن البلاد خالية من المسيحية قبل ذلك ، فقد كانت الحملات الكشفية تصطبح معها القسس ليسرروا بالإنجيل ، ولكن الدعوة لم تحرز تقدماً خلال حكم البرتغاليين ، وأثناء حكم هولاندا فى القرن السابع عشر أرسلت بعثة هولاندية لكل من أندونيسيا وماليزيا ، كان القسس فيها يقومون بأعمال مدنية ، ومهمتهم الأولى هى العناية بالجانب الروحى فى حياة الموظفين الهولانديين ، ولم يعلنوا أنهم مكلفون بتنصير الوثنيين ، ولكن - الحكومة كانت قد خصصت مكافآت سخية يتسلمها كل مبشر فوراً عن كل شخص يدخله المسيحية ، مما

جعل القسس يفتنون في استمالة الأهلين إليهم وإدخالهم في حظيرة الإنجيل ، وعومل المسيحيون معاملة ممتازة في الرواتب وأولية المنفعة واعتبروا طبقة أرقى فكان ذلك حافزاً آخر لدخول المسيحية ، وأولى رجال السياسة أعمال الدين ودعائه رعاية خاصة فكثرت الإقبال على هذا الدين حتى أعلنت الحكومة الهولندية آخر القرن أنه يوجد في مدينة يافا Java ١٠٠,٠٠٠ مسيحي و ٤٠,٠٠٠ في مدينة اميون . ولم تكن هولندا حتى هذا الوقت قد استولت على جميع الجزر وكانت اللغة حاجزاً بين القسس والأندونيسيين .

وفي سنة ١٦٨٨ ترجم العهد الجديد إلى اللغة الملايوية ، وكانت هذه أول ترجمة إلى هذه اللغات الشرقية ، إذ لم يترجم قبلها إلى أى لغة منها ، - وفي سنة ١٧٣٤ أى قبل منتصف القرن الثامن عشر - عصر النهضة التبشيرية - ترجم الكتاب المقدس كله إلى اللغة الملايوية ، وكتب بحروف لاتينية ، ثم كتب بحروف عربية سنة ١٧٥٩ م ، وهذا يعنى أن اللغة العربية كان لها كيان في هذه الجزر لم تستطع اللاتينية أن تحل محله . وفي سنة ١٧٧٦ كان يوجد في أندونيسيا كلها ٢٢ قسيساً رئيساً Minister بينهم خمسة فقط يعرفون لغة البلاد ، وفي هذا القرن (الثامن عشر) تم استيلاء هولندا على البلاد كلها ، فازدادت حركة التبشير نشاطاً واتساعاً . وتحاشى الهولنديون أخطاء أسلافهم البرتغاليين ، فقد انهمك هؤلاء في التجارة ، وظلوا تجاراً غرباء عن البلاد ، ولكن الهولنديين عملوا على تكوين شركة موحدة ، وأنشأوا لها مركزاً أو مراكز مستقرة جعلتهم أصحاب حق في البلاد وفي الإقامة ، على نحو ما فعل الانجليز في الهند ، وما اتخذ في الصين ، وكان التجار المسلمون قد فعلوا ما هو أعمق وأثبت إذ توطنوا في البلاد .

وفي سنة ١٨١٩ م أسس الانجليز مدينة سنغافورة^(١) وثبتوا بها نوعاً من سيادتهم في منطقة الملايو ، وهى منطقة ذات قيمة في نظر المبشرين لأنها وصلة

(١) جزيرة صغيرة في الجنوب الغربى وحولها جزر أخرى ، وقد اتخذها الانجليز قاعدة لهم . شعبة

بمدن مستعمرة التاج البريطانى ، وسكان سنغافورة الآن يبلغون نحو مليونين ونصف المليون من جنسيات -

إلى الصين ، وحقاً ما كادت الصين تفتح حتى وثبت إليها إرساليات من الملايو فاستقرت في هونغ كونج وسواحل الصين ، والذي يعنينا في هذا الموقف هو أن التبشير انتقل من سنغافورة إلى جزيرة بورنيو ، ويرز في هذا رجلان كبيران من رجال التبشير هما جيمس بروك James Brook ، وتوماس مكدوجل Thomas McDogall أما بروك فكان رجلاً محظوظاً وسياسياً لبقاً استطاع أن يصل إلى منصب ولقب راجا ، وكان يسمى «الراجا الأبيض» لمدينة سرواك^(١) فعمل على استقدام إرساليات إلى بورنيو ، واستجابت له جماعة برلين الألمانية فبعثت إرساليتين ، كان مكدوجل على رأس واحدة منهما ، وهو طبيب وقسيس ، وهو من رواد التبشير ذوى الشخصيات القوية ، وكانت هذه البعثة سنة ١٨٤٧ وواجهت صعوبات كثيرة ولم يستجب لدعوتها إلا قليلون جداً ، ولكن بشيء من الجرأة والرغبة في تثبيت الإنجيل ، وحيث تلقى مدداً جديداً لتقوية دعوته قرر في سنة ١٨٥١ افتتاح خمس كنائس هي أول ما أسس هناك ودعا المنتصرين الجدد إلى العشاء الرباني ، وأثبتت الإرسالية رغم الصعوبات نجاحاً جعل البابا في كلكتا يعلن أنه لا يوجد على وجه الأرض إرسالية تعادل إرسالية بورنيو ، ثم عين مكدوجل بابا لمستعمرة بريطانيا في بورنيو التي سميت بعده باسم سرواك .

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر كانت هولاندا بعثت بإرسالية إلى جزيرة سيلبس ، ثم عززتها بعد ذلك إرسالية مشتركة من شرق الأنديز وهولاندا معاً ، وكانت قد صادفت أول أمرها ما تصادفه كل الإرساليات البائدة ، ولكن

= متعددة ، بينهم ٤٠٠ ألف مسلم . وبها نحو ١٠٠ جماعة إسلامية ، ويشرف عليها المجلس الإسلامي السنغافوري - وهو يطالب بحقوق المسلمين لدى الحكومة ، ويشرف على جمع الزكوات وتوزيعها . ويعين رئيس المجلس بقرار جمهوري ويمولونه المفتي و ١٢ عضواً ، ومن وظائف المجلس أن يرد على ما يثوره الميثرون من شبهات ضد الإسلام . وهو يعلن حاجته إلى مدرسين من الأئمة .

الأهرام ١٩٨٣/٦/١٠

عند نهاية القرن كانت أكثرية الجزيرة قد تنصرت ، وسرعان ما صادفت العقبة الكبرى وهي دعوة الإسلام وجماعة المسلمين ، ففي المنطقة الإسلامية عز على المبشر المسيحي أن يكسب ما كسب في غيرها من الأنصار ، وكان يزيد الدعاة الإسلاميين قوة مافهم من دماء ومسالمة وحسن إخماء ، بينما كان الأهليون يضيّقون بدعاة المسيحية ويشعرون دائماً أنهم مستعمرون يريدون أن يملكوهم وينتزعوا بلادهم منهم .

وفي مستهل القرن العشرين كانت الإرساليات تشغل كل جزيرة لها حجم ، وكانت الأسبقية والأكثرية للبروتستانت بمختلف فروعهم ، وظفر جماعة الميثوديزم بنتيجة أقوى من حيث العدد والمعونات المادية ، وتخلّفت الكنيسة الكاثوليكية إذ لم يكن لها في منتصف القرن التاسع عشر إلا نحو ثلاثين كنيسة ، وكان عملها ضئيل الأهمية لأنه كان مقصوراً على الأوروبيين وفي الجهات التي يكثر فيها . وأكبر نجاح صادفه التبشير هناك جاء بسبب تعاون الكنائس والأقطار فكما رأينا كانت هولاندا وأمريكا والألمان يساند بعضها بعضاً في إرسال البعثات والإنفاق عليها . وحين اتخذ قرار الستينيات الماضية بتتصير البلاد وضع له برنامج أهم خطوطه هذه الأعمال :

١ - بذل عناية من جانب المرسلين للمسيحيين فهم يقدمون في المدارس وفي العلاج الطبي ، ولا يحرم الآخرون من هذه المعونات ولكن يؤخرون ويشعرون بتقديم المسيحيين كي يدفعهم ذلك إلى الدخول في المسيحية .

٢ - الإكثار من المدارس والمستشفيات لهذا الغرض ، ومدارسهم ذات تعليم راق جيد يهيئ لمستقبل حسن ومستشفياتهم أكثر عناية بالمرضى وأوفر آلات وأرق استعداداً .

٣ - الإصهار إلى الأندونيسيين بالزواج منهم وبتزويجهم أوروبيات مسيحيات ، وفي كلتا الحالتين يكون الأولاد مسيحيين ، وقد أقبل الأندونيسيون على الزواج من الأوروبيات ، ومن ينشئن أولادهم تنشئة مسيحية .

وموقف الإسلام إزاء هذا كله هو موقفه في كل مكان يقبل عليه من يقبل لما له من مبادئ ويعرض عنه من يعرض لعدم المعرفين به ، ودعاة الإسلام مع قلتهم ينقصهم الثقافة .

والمسلمون الآن هم الأكثرية الساحقة ويلهمهم البوذيون ثم المسيحيون ثم الهندوك ، وتوجد وثنيات أخرى ضئيلة جداً ، وعلى هذا النشاط الهائل والنفقات الطائلة ارتفع عدد المسيحيين الآن إلى نحو أربعة ملايين أو نحو ٥٪ من مجموع السكان ، ولم ينص الدستور الأندونيسي على أنها دولة إسلامية ولا على أن الإسلام هو دينها الرسمي ^(١) ولكنه نص على حرية الأديان ، وتلعب الأديان دوراً هاماً في الشؤون السياسية ، وتحرص الكنائس العديدة على إبراز المسيحية وترسم في خططها تدخل المسيحيين في تيارات السياسة ، وقد اختير بعض منهم فعلاً عضواً في البرلمان واعتبر هذا نجاحاً كبيراً للديانة بكل كنائسها ، ومع تخلف الخطة التي رسمت من تنصير جاكرتا في خلال عشرين عاماً لم يمس الدعاة ولم تفتقر حركة التبشير وأكثر ما تتميز به هو تقاى المبشرين في التنصير وقد ترجم الآن الكتاب المقدس كله إلى اللغة الأندونيسية ، واستطاعت بعض الكنائس أن تمهد قسماً من الوطنيين ليكونوا أقلر على دعوة إخوانهم ، وهو المنهج الذي تجرى عليه الكنائس المختلفة منذ زمن غير قريب .

ويقول المبشر البروتستانتي « أدوين » أن عقيدة الإسلام هناك سقيمة لأن أهل هذه البلاد كلها (جزر الملايو وأندونيسيا) لم تسلم على يد علماء ، ولم تعرف الإسلام إلا في القرن الثالث عشر فمزج أهلها به شيئاً من عقائدهم ، ثم اقتبسوا شيئاً من الكاثوليكية في العصر المغولي ، ومن البروتستانت في العهد

(١) كان مفروضاً أن يتم هنا عند إعلان هذا الدستور ، وكانت الجماعة الإسلامية قد عقدت مجلساً انظمت فيه هذا القرار ، ولما لم يتضمنه الدستور عند إعداده وإعلانه رأوا من الحكمة ألا يثبثوا حوله ضجة ، وعملوا من قبلهم على تشييط الدعوة الإسلامية « وحزب » الماشوس « أي مجلس الشورى الإسلامي » ويسمى بالأندونيسية *Parti Persatuan Pembanyunan Tudonrsia* .
أي حزب اتحاد نهضة أندونيسيا .

خامساً : في جزر الفليين

٩ - تعريف :

جزر الفليين مجموعة من الجزر تزيد على سبعة آلاف ومائة جزيرة وأكبرها كما يبدو في خريطةها جزر لوزان وفيزان ، ومندناو وسولو .

وكان الملاح المخاطر البرتغالي الأسباني ماجلان أول من عرف هذه الجزر في رحلته الطويلة المعروفة ، وقتل في جزيرة ماكتان وجعل لحمه طمة للكلاب ، وعرفت أسبانيا منذئذ هذه الجزر^(١) فجردت لها حملات متتالية ارتكبت جرائم فظيعة مع الأهليين ، وأطلق عليها اسم الفليين نسبة للأمير فيليب الذي كان ولي عهد أسبانيا ثم صار ملكاً لها ، وهو فيليب الثالث الذي قضى على بقايا المسلمين في أسبانيا ، قتل منهم من قتل ورمى بالآخرين في البحر ، وسميت أيضاً جزر البهار لما وجد فيها الأوربيون من البهارات والبقول ، ولم تكن كل هذه الجزر مجتمعة تحت وحلة حكومية أو سياسية ، ولكن كان رؤساء القبائل القوية يحكم كل واحد منهم مجموعة صغيرة أو كبيرة من الجزر ، واتصال بعضها ببعض عن طريق القوارب ، وصلة الأهليين هي صلة الجوار وتبادل المنافع ، وكانوا يعيشون حتى وقت الكشف الحديثة على الزراعة والرى والصيد وهم - شأن البلديين - مهرة في الرماية ذوو خشونة وعنف تغلب عليهم نزعة الاستقلال ولا يقبلون سيطرة الأجنبي عليهم .

(١) كان ماجلان برتغالياً ، ولقضيه الملك مانويل عليه تهمس بالجنسية الأسبانية في عهد الملك كارلوس الأول سنة ١٥١٤ ، وبعد خمسة أعوام قام بمحلة مكونة من خمس سفن و ٢٧٥ بحاراً ليحيط حول الأرض ، وهو أول من عبر المحيط الهادى ، وبعد نحو مائة يوم من مغادرة رأس العلاء جنوب أمريكا الجنوبية وصل إلى جزيرة جوارم ، واستقبله سكان الجزر التي مر بها استقبالا حسناً ، ولما طلب من ملك مقتان تقديم الولاء لملك أسبانيا ودفع جزية له غضب الملك ، وقتله وبعضاً من جنوده - ثم دعا الذين في السفن للطعام وأخذ جيهورات وهدايا لملك أسبانيا ، فحضروا عناء اثنين وبعض العمال - وكانت مجرد مقدمة إذ قتلوا جميعاً ، وعاد الاثنان الباقيان - بسفينة واحدة وصلت أسبانيا سنة ١٥٢٢ ، وكل الذين بقوا من الرجال كانوا نحو ١٨ رجلاً ، - وأقيم لماجلان عثال في مقتان وأطلق اسمه على مضيق ماجلان جنوب أمريكا لأنه أول من كشفه وعلى خليج مجانب مقتان أيضاً .

والسكان يتمون إلى الفصيلة الملايوية ولم يكونوا حتى عهد كشف بلادهم يُخالطهم أجناس أخرى إلا أفراداً قلائل من النازحين ، وكانت الجزر الجنوبية - التي أكبرها مندانا وسولو - على اتصال قوى بجزيرة برنيو الأندونيسية وما حوفا من الجزر ، وكان هذا الاتصال يقوم على تبادل التجارة والمنافع الأخرى وكانت لهم ديانات وثنية لا تعرف حقيقتها لأنها كانت تختلف بين جزيرة وأخرى ، ولم يكن أحد بتلوينها .

٢ - دخول الإسلام :

تسرب الإسلام إلى الجزر الجنوبية على أيدي التجار الذين كانوا يذهبون إلى الجزر الأندونيسية والملايو ، والمعروف عن هؤلاء التجار أنهم كانوا يتخذون لهم أماكن ومواطن إقامة ، وأنهم كانوا يصهرون إلى الأهليين ، وكانوا في كل هذه الجهات يستهرون الناس بحسن معاملتهم ، ودماثة أخلاقهم وعفتهم ، وبهذا اجتذبوا الكثيرين إلى الإسلام ، وقد ذكرنا شيئاً عن هؤلاء - التجار في الحديث عن الهند وجزر أندونيسيا - وهذه التجارة كانت مزدهرة في هذه الأقاليم الشرقية خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وكانت فتوحات المسلمين في العهد الأموي قد أعطت فكرة عن الإسلام والمسلمين ، وتبع هذا الاتصال التجاري هجرات من العرب ومن غير العرب ، إذ كانت هذه البلاد كثيرة الخيرات قليلة السكان ، كذلك رحل إلى هذه الجزر دعاة متطوعون من محبي الإسلام ومن أرباب الطرق الصوفية ، ووجد في تاريخ الإسلام هناك أسماء تنتمي إلى الحسن والحسين ابني علي ، وقد يكون ذلك أمراً حقيقياً وقد يكون غير حقيقى على نحو ما رأينا في تاريخ الصين ، ومن الأسماء المشهورة من هؤلاء الشريف إبراهيم الأكبر جمال الدين الحسيني وله الآن هناك مسجد ومزار ، وهو أول من أقام حكومة إسلامية هناك سميت « سلطنة سولو الإسلامية » وسولو جزيرة كبيرة تتبعها عدد من الجزر الصغرى ، وجزر أكبر نسبياً ، منها « مندانا » و « باسيلان » التي بها الآن مقر الجماعة الإسلامية ، وتاوى تاوى ، و « بالاوان » وبورنيو الشمالية ، ونحت السياسيون لهذه المنطقة اسم

« منسوبالا » « Minsupala » بأخذ حرف من أول إسم كل جزيرة كبيرة ، وأرخبيل سولو ملء بالجزر الصغيرة ويسمى المسلمون أيضاً « مورو » وهى كلمة جاءت من الأسباب تعنى « المسلمون الصغار أو القلائل »^(١) .

وواضح أن دخول الشريف إبراهيم كان بعد أن عرف الإسلام واعتقه الكثيرون ، وكان العامل الروحى والسلوكى وشرف النسب فيه أكبر المؤثرات فى التفاف الناس حوله وحرصهم على تنصيبه ملكاً عليهم ، وبتولى ملكهم أصبح هناك إقليم يتسم بالإسلام حكومة وديناً ، ولم يشمل كل الجزء الجنوى ولكنه شمل جزءاً كبيراً ، ولم تكن الأجزاء الشمالية منبته عن الجنوب ولا عن بورنيو ، فمن المعروف أن صلة مصاهرة كانت قائمة بين أمراء مانيلأ وأمراء بورنيو فضلاً عن الرابطة العرقية القديمة .

وفى أوائل القرن الخامس عشر . بسبب ازدهار التبادل التجارى قدم من سومطرة إلى سولو جماعة من التجار المسلمين من الشعب الملايوى ، وينبو أنهم كانوا ذوى حماس لنشر الإسلام ، وأنهم هم أنفسهم كانوا دعاية طيبة بحسن معاملاتهم وأخلاقهم الإسلامية فكانوا سنداً طيباً للشريف ابراهيم ، ففى هذا القرن وقبل ورود الأسباب بنحو مائة عام . كان الإسلام قد أحرز انتشاراً مرموقاً ، فأقيمت المساجد العديدة ، ودلف إلى جوف الجزر متخطياً المناطق الجبلية ، وكان قبل ذلك مع التجار على السواحل ، كما دخل الجزر الكثيرة ، وأصبحت سولو عاصمة إسلامية قوية ولم يكد القرن الخامس عشر الميلادى

(١) كلمة مورو Moro أطلقها الأسباب على المسلمين منهم ، وعلى الشمال الغربى لأفريقية ، وهى تعنى العرب الصغار أو المغاربة الصغار ، والكلمة ذات أصل لاتينى ، إذ كان الرومان يسمون سكان غرب أفريقيا مورى Mourى و يسمون الإقليم موريتانيا Mouritania أى الشرق والانجليز يسمون مور Moor من الأصل اللاتينى ، وتطورت الكلمة الأسبانية فصارت إسماء لكل المسلمين هناك وفى الشمال الغربى لإفريقية ، ومن هنا سمى الأسباب مسلمى جزر الفلبين مورو ، وظلت الكلمة تستعمل بعد ذلك ، وتسمت بها الجماعة الإسلامية التى تقوم بالدعوة الآن فى هذه الجزر .

ينصرم حتى كانت الجزر الجنوبية كلها تقريباً تعرف الإسلام وتدين به أغلبية سكانها الساحقة .

والذى لا ينسى هؤلاء الرواد الإسلاميين أنهم أدخلوا على البلاد نوراً ثقافياً لم يكن بها من قبل ، فقد علموا الأهليين القراءة والكتابة ، ولم يكونوا يعرفون شيئاً عنها ، والتجار العرب كانوا قد فعلوا ذلك من قبل في أنلونيسيا ، فلما رحل تجارها إلى الفليين كانوا يعرفون الخط العربى ومعهم بعض الكتب العربية ، ومن الدعاة المشهورين في سولو «توهان مقبلو» توفى أوائل القرن الرابع عشر ووجد عند مقبرته كتابة عربية تفيد أنه ليس من البلاد^(١) واسمه كما ترى ليس عربياً .

وظلت الوفود تزداد على هذه الجزر ، بعضهم مجرد دعاة وبعضهم صوفيون .. وأكثرهم تجار وينبؤ أن خصوبة البلاد وكثرة خيراتها مما كان يجرى بالنزوح إليها ، وقد أحدث شيوع الإسلام بينهم رابطة قوية امتازت بأنها تقوم على المحبة ، وأنها تخلو من مظاهر الضغط والإرهاب ، وأن الناس كانوا يخلون الإسلام مندفعين بعاطفة التقدير والإجلال لهذا الدين .

وسرعان ما صارت منطقة سولو مركز إشعاع إسلامى إذ انطلق الدعاة منها إلى الجزر الأخرى جهة الشمال ، وكان أتباع «توهان مقبلو» وشخص آخر يسمى «توان شايخة» يقومون بهذا النشاط ، ولم ينقطع بعد دخول الاستعمار الأسباني .

والتاريخ التفصيلى لدخول الإسلام كل جزيرة من هذه الجزر قد يطول ، ولكن الظاهرة العامة فيه أنه كان إقبالاً مستمراً ، وربما كانت كراهية المستعمر الأوروبى مما زاد في هذا الإقبال .

(١) عثر على حجر عند مقبرته مكتوب عليه : « قال النبى عليه الصلاة والسلام : « من مات غربياً فقد مات شهيداً » توفى المرحوم السيد الشهيد توهان مقبلو في التاريخ شهر الله العظيم رجب عظم الله روحه سنة عشرة وسبعمائة .

٣ - دخول الأسبان :

ظلت حملات الأسبان بعد ماجلان تتوالى على هذه الجزر ، ولم يكن سكانها ذوى حصون تمنعهم من المغيرين ، ولم يكن لهم أسلحة غير النبال ، وكان الأسبان ذوى قوة فاستولوا على ما وصلوا إليه من الجزر ، ولم يكونوا يعرفون كل الجزر ، ولا كل جزيرة نزلوها استولوا على كل أجزائها وكانوا قد نزلوا في الشمال وبدأ زحفهم يمتد للجنوب فاصطدموا بالمسلمين ، وكانت شرارة الحرب الأولى سنة ١٥٦٥م ، إذ اعترض الأسطول الأسباني سفينة تجارية للمسلمين ، وأصر المسلمون على المقاومة وأصر الأسبان على إبادة المسلمين والاستيلاء على أراضهم ، فاستمرت هذه الحروب حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وفي سنة ١٨٩٨ كانت الاتفاقية بين أسبانيا وأمريكا وبمقتضاها سلمت أسبانيا جزر الفلبين كلها للولايات المتحدة بما فيها الجزر الجنوبية - جزر مورو - ولم تكن لأسبانيا عليها حكومة في يوم من الأيام ، وهكذا وفجأة وجد المسلمون أنفسهم أمام علو جديد يشن عليهم حرباً جديدة .

٤ - السياسة الأمريكية :

أصر الأمريكيون على الاستيلاء على جميع الجزر الفلبينية لأنهم اشتروها من أسبانيا ، وأنى المسلمون - المورو - الاستسلام لأن أسبانيا لم تكن حاكمة لهم ولا علاقة لها بأراضهم ، وبينما استسلم الفلبينيون - سكان الشمال - ظل المسلمون في الجنوب يناضلون نحو أربعين عاماً ، ثم كانت الحرب العالمية الثانية التي شغلت أمريكا ، واضطرتها إلى تحويل عدد كبير من جيوشها إلى استراليا وبعض الجزر الأندونيسية ، بينما وجه اليابانيون ضربات إلى أمريكا في شمال الفلبين .

في خلال هذه المدة (١٨٩٩ - ١٩٤٠) عمل الأمريكيون على فتح مدارس تبشيرية وأقامة مستشفيات وأسبوا عديداً من الكنائس الإنجليزية ، وكانت الكنائس التي أسستها أسبانيا كنائس كاثوليكية ، واعتبروا سولو محافظة عينوا لها حاكماً أمريكياً ، كما استطاعوا أن يعقدوا مع رئيس الجزيرة

المسلم معاهدة سلام أو هدنة لم يكن معظم المسلمين راضياً عنهم ، ولكن طول الحرب جعلت السلطان «جمال الكرامى الثانى» يقبلها ، وأهم نتائج هذه المعاهدة بالنسبة للأمريكان هو أن الجزر الفلبينية كلها أصبحت دولة واحدة ، وأن أمريكا لها نوع من السيادة عليها جميعاً ، وفى ظل المعاهدة وحرية الأديان كثرت الكنائس والإرساليات فى جزر المورو ، ومع ما أسرفت فيه أمريكا من سفك الدماء كان لها طريق أكثر نجاحاً ، وهو تشويه الإسلام فى نظر الفلبينيين وتبغيض المسلمين إليهم حتى أصبحت الجزر قسمين متنافرين بعضها لبعض عدو ، بل بعض عدو لأمريكا كل العداء وبعض موال لها كل الولاء ، وكان لأمريكا وزارة خاصة لحكم الجنوبيين ، فسمتها «مكتب شئون القبائل غير المسيحية» فسوى بين المسلمين والوثنيين والبوذيين ، واستكثر هذا المكتب من المدارس التبشيرية ولم تكن دراستها دينية بحتة حتى أن بعض الأمريكان اعترض عليها لإشاعتها نور الثقافة الحديثة بين المسلمين ، بينما كان المسلمون يرونها مدارس تكفير لما تبثه فى دروسها من طعن الإسلام وتفجير العقول منه .

كان موقف أمريكا فى حربها ومعاهدتها وتنفيذ سياستها هو موقف القوى الذى لا يبالى بما يوجه إليه من اعتراضات ، ولا يعبأ بتقضى ما اتفق عليه ، فأعلنت ضم الفلبين كلها إلى الكومون ويلث الأمريكية رغم احتجاجات المسلمين ونكرانهم هذا القرار - ثم لجأت أمريكا إلى سياسة الانحياز فعينت عميلاً من أبناء الفلبين على الكومون ويلث ، فمن ناحية أعجبه المنصب وأغراه ، ومن ناحية أخرى أصبح ذا سيادة على أعدائه المسلمين ، وعاد المسلمون من جديد إلى الحرب واستبسلوا حتى قال بعض الأمريكان : إني لأستطيع أن أحارب قوماً يرون الموت شرفاً يتسابقون إليه .

• - أثر الحرب العالمية الثانية :

كان اليابانيون كما ذكرنا يحاربون أمريكا فى جزر الفلبين ، ولم يقبل الفلبينيون ولا المسلمون أن تخضع بلادهم لهذا الغزو ، وكان المسلمون مدفوعين بحمية الوطنية والدين معاً ، وقد أبلوا فى كل ذلك بلاء مشكوراً .

وفي سنة ١٩٤٤م جلا الجيش الياباني وعاد الجيش الأمريكي ، فوجد بلاد المسلمين قد تغيرت تغيراً واسعاً ، وأهم ما في هذا التغير أمران :

١ - أن عدداً كبيراً من المسحيين هاجروا إلى الجنوب طلباً للرزق إذ أن البلاد الجنوبية أكثر نتاجاً وأوفر حاصلات ، وطلباً للأمن لأن الجهات الشمالية كانت أكثر خطراً لقربها من اليابان .

٢ - أن المسلمين بسبب هذه الحرب أصيبوا بكثير من الدمار والوهن ، فأصبح غزوهم أو ضربهم أسهل من ذي قبل .

واستفادت أمريكا من الأمرين معاً ، فضمت بلاد المسلمين إلى الفلبين قسراً ، متذرة بأنها لم تعد بلاد المسلمين ، وغير مبالية بهم لضعف شوكتهم ، - وفقد المسلمون مالهم ورجالهم ودمرت بيوتهم وفوق كل ذلك أو لكل ذلك ضعف روح المقاومة لديهم .

أما الفائدة الوحيدة التي استفادوها فهي أنهم عرفوا وسائل الحرب الحديثة ودربوا على استعمالها ولكنهم الآن لا يجلبونها لأنها لا تصنع في بلادهم ، ثم أنها تطورت تطوراً أوسع بعد ذلك .

وموقف الفلبين المسلمين هناك هو موقف الفلسطينيين أزاء اليهود في فلسطين .

استقلال الفلبين :

أعطت أمريكا جزر الفلبين استقلالها بعد أن نصبت عليها أحد عملائها رئيساً مقره في «مانيلا» وظل موقف المسلمين على ما هو عليه ، إذ أن الحكومة المحلية مفروضة عليهم أيضاً كما كانت الحكومات السابقة ، ولا فرق بينها وبين حكومات الأسبان والأمريكان ، والعداء بين الحاكم الفلبيني وبين المسلمين مستمر ، والمعارك بينهم وبين الجيش الفلبيني مستمرة ، ويجد الجيش الفلبيني مدداً من قبل أمريكا بالأسلحة وبغير الأسلحة ومنذ سنة ١٩٤٦م التي منحت

فها الفلبن استقلالها إلى الیوم والمناوشات والحروب الباردة والحازة مستمرة ، غیر أن قوی المسلمین أصبحت بادية الضعف ولجأت الحكومة الفلبينية بمساندة القوی الأجنبية إلى حیل مكشوفة ، الغرض منها :

١ - مضایقة المسلمین فی الجنوب فی أراضیهم ، فالذی لا یملك وثیقة فی عهد الأسباب تؤید ملكیته للأرض لاحق له فی امتلاكها ، وهو نهج نهجه الأمريكان من قبل ، وكان الأمريكان یملكون الأراضی لغیر المسلمین . ولم یسع المسلمون إلى توثیق ملكیتهم عن طریق الأمريكان لأنهم یرونها أرضهم وقد انتقلت بلادهم من الأسباب إلى الأمريكان بغیر وجه شرعی ، ولم یكن لأى من الدولتین حق تملكهم .

٢ - توسیع هجرة الشمالین إلى منطقة سولو ، لأن أرضها أخصب وسكانها أقل وهؤلاء یملكون الأراضی من قبل الحكومة ، ثم یهذه الهجرة لم تعد البلاد أرضاً إسلامیة خالصة .

٣ - حشیت مناهج التعلیم - وهو تعلیم إجبارى فی المرحلتین الأولین - بأقاصیص وأكاذیب تشوه الإسلام تاریخاً وعقیده ، وتغض من المسلمین ، بیما هی تضيف على المسیحية بهاء وروعة .

٤ - كثرت الإرسالیات التبشیریة من مختلف فروعها ، فلم تقتصر على الكاثولیکیة والانجليکانیة ، بل أصبح هناك الفرنسیسكان والیسوعیون ، ومدارس نوتردام والأدفنتست ... وكلها تبذل وسائلها لتتصیر المسلمین .

والمؤسف حقاً أن مسلمین کثیرین تنصروا ، لأن الجبل الجدید لم یتقف ثقافة إسلامیة ، ولم یعرف عن الإسلام إلا ماسمع من والیدیة أو غیرهما . - وهی - كما یقول بعض المستشرقین معلومات باهتة من السهل إضعافها ولذاتها .

وهناك شئ آخر یصوره الأستاذ عبد الباقى أبو بكر تصویراً محزناً - هو

آثار الهزيمة النكراء أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧ ، فقد أضرت أعداء المسلمين وجراحتهم عليهم من ناحية ، وجعلتهم يتخذون منها دليلاً على أن الإسلام دين غير صحيح من ناحية أخرى ، ثم هي - دون سبب - شغلت المسلمين بأنفسهم عن مساعدة الآخرين ، وعلى أثر هذا الحادث عملت حكومة الفلبين الأمريكية على اقتطاع جزيرة صباح وضمها إليها .

٧ - تخطيطات إجرامية :

وجدت في العهد الحديث أعمال إجرامية تستدعى أن يتدخل فيها الأمن الدولي ولكن الأمريكان والدول الأخرى لم تعرها اهتماماً .

١ - نشأت منظمة تسمى « منظمة إيلاجاء » وهي منظمة مسيحية معظم أعضائها من المهجرين ، وهي مجموعة إرهابية تقوم بالمذابح البشعة ضد المسلمين خصوصاً الذين في الجهات النائية - وهي منظمة تشبه الألوية الحمراء في إيطاليا .

٢ - خدعت الحكومة الفلبينية أبناء المسلمين من سولو - فنقلتهم إلى الشمال ليتدربوا على الأعمال الحربية ، وأوهمتهم أنها تدرهم لينخرطوا في سلك الجيش الوطني للبلاد ، ثم طلبت إليهم أن يتوجهوا إلى « صباح » لإحداث أعمال تخريبية هناك ، ورفض المسلمون تنفيذ هذا الطلب الذي لم يدربوا له من قبلهم ، ولأنه يناقض تعاليم الإسلام ، فما كان من الحكومة إلا أن أمرت بضربهم بالرصاص وتشويه أجسامهم ، - ورفضت تسليمهم لأهلهم .

ولهذه الأحداث - وخصوصاً الحدث البشع الأخير - قامت الآن « جبهة تحرير مورو » أي تحرير المسلمين ، وهي تبذل أقصى جهد تستطيعه ، والعالم الإسلامي كله مستول أن يجد لها يد العون وهي تمثل فلسطين الثانية أو أسبانيا الرابعة .

٨ - خطوات التبشير :

قلنا من قبل أن سفن الكشوف الأوروبية كانت تحمل معها دائماً القسوس المبشرين ، وقد حملت سفن أسبانيا في حملاتها المتكررة دعاة المذهب الكاثوليكي ، ولكن دعوتهم لم تصادف قبولاً ، بل صادفت إعراضاً شديداً ، وبطبيعة الحال لم يكن بها أى فرع من الفروع البروتستانتية ، ورأى المبشرون الكاثوليك أن الأمر يدعو إلى إقامة أساقفة وطنيين ليكونوا أقدر على دعوة الآخرين ، ولكن المجلس البابوى لم يسمح ، وخاطر أحد الآباء بإنشاء كنيسة مستقلة ، وكون لها مجلساً دخله بعد ذلك فرع أمريكي وآخر أنجليكاني .

وبعد عقد اتفاقية سنة ١٨٩٨م ووضع الجزر كلها تحت يد الأمريكان انفتح الباب على مصراعيه - للكنائس البروتستانتية المختلفة ، ثم تبعهم الميثوديزم ، ثم كل أنواع الدعاة الأمريكان ، وكانت هذه فرحة كبيرة للكنيسة الأمريكية ، لأنها لم يسبق لها أن تتخذ مكاناً بين الأقاليم التى يسودها المذهب الكاثوليكي ، وهى قد دخلت الفلبين بقوة غازية وبوعود بمنح الحرية الدينية والاستقلال ، وإذ بدا لهم أن أهل الفلبين يميلون إلى الاستقلال ، رأوا أن يعملوا على إيجاد كنائس مستقلة وظل الوافدون من أمريكا أصدقاء لهم وأعوانا ، ولا يمنع ذلك أن يكونوا معلمين ، وجاء مبشر كبير كان من كندا ثم توطن أمريكا وكان ماكراً جداً فرأى أن يعلن نفسه مجرد صديق تابع للقسس الفلبينيين ، وعقد صداقة مع رجال الكاثوليك ، وكون مع الجميع قوة تتجه إلى الجنوب لتتصير الذين هناك ولل قضاء على المسلمين ومات هو سنة ١٩٢٨ بعد أن وضع الطريق للدعاة بعده ، وبأعمال بطولية خارقة استطاع أن يقيم فى جبال لوزون كنيسة ، ولكن مقاومة المسلمين التى لم تعرف الهزيمة قط ظلت مصرة على عدم الانقياد للكنيسة^(١) .

وفي سنة ١٩٤٨ عقد مؤتمر جامع في مانيتا جمع القسس من كوريا حتى باكستان وكان على صلة بمراكز الدعوة في إنجلترا وأمريكا وروما ، واعتبر لدى الجميع بداية الانطلاق الحديث ، وفيه اتخذت الخطوات والوسائل التي يمكن أن يقضى بها على المسلمين ، إذ هم أكبر عقبة في طريق التبشير المسيحي .
مراجع الحديث :

١ - بحث للأستاذ عبد الباقي أبو بكر الأمين العام للعلاقات الخارجية لجهة تحرير مورو الوطنية .

٢ - الإسلام في القرن العشرين .

٣ - The History of Christian Missionary .

سادساً : في سيلان

١ - تطور تاريخي :

سيلان التي تعرف الآن باسم سريلانكا - جزيرة صغيرة قريبة من حدة الهند وإلى الشرق منها قليلاً ، ولا يفصلها عنها إلا مضيق ضئيل ، وأكبر مدنها « كولومبو » في الشرق وكندى في الوسط ، وفي وسطها جبال عالية ، وسكانها من الجنس الهندي ، وكان للعرب اتصال بها منذ زمن قديم إذ كان مركزاً تجارياً ذا أهمية يمثل حلقة اتصال بين الجزيرة العربية والبلاد الواقعة في الشرق وكان للعرب بها مراكز تجارية حين كانوا هم المسيطرين على التجارة في المحيط الهندي وظلت هذه الصلات التجارية إلى عصر الإسلام .

ودخول الإسلام في هذه الجزيرة غامض لا يمكن التهدي إلى بدايته إذ ليس له تاريخ مدون - ولا يعنو أمره أن يعتمد على الاستنتاج والاعتداد على أحداث التاريخ العام ، ويكاد يكون من المتفق عليه أن التجار المسلمين هم الذين نقلوا الإسلام إلى تلك الجزيرة ، إذ لم تصلها فتوح إسلامية . وحين قام الحكم المغولي في الهند واستقر به الإسلام في مواضع كثيرة ، كان من سوء الحظ أنه لم يصل إلى هذه الجزيرة ، ولم يشمل هذا الساحل الهندي ، ولكن كثرة فاشية من سكان الجنوب الهندي أقبلت على الإسلام كما هو معروف ، ولا بد أن موجة هذا الإقبال وصلت إلى سيلان لقرب المسافة ودوام الاتصال بين الجانبين .

ويروى بعض المؤرخين أن جماعة من الحجاج كانوا قد وفدوا على هذه الجزيرة لزيارة أثر هناك يقال أنه قدم آدم^(١) وقد يكون هؤلاء الحجاج سبق

(١) كان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ، انظر الدعوة إلى الإسلام ٤٩٦ - ٧ وأثر آدم هو انطباع قدم على جبل هناك ، وهذا يرجع إلى أسطورة في الكتب الإسرائيلية ونقلها السيوطي في الدر المنثور - نقول أن آدم أول ما هبط من الجنة نزل بالهند ، وأول ما لمست قدمه الأرض كانت على هذا الجبل - راجع تفسير الآية ٣٨ من سورة البقرة ، وانظر Indo Arab Relation P 55 .

دعاة إسلاميين إلى جنوب الهند ، وإذن فلا بد أنهم نقلوا الإسلام إلى الجزيرة التي جاعوا أصلاً لها ، ولا يمكن القطع بأنه لم يكن موجوداً قبلهم ، ومن المعروف عن التجار العرب أنهم كانوا ذوى وداعة وألفة وأنهم كانوا يندجون بسكان البلاد التي ينزلونها وأن يتزوجوا منهم وقد حدث هذا في سيلان وأندونيسيا وبلاد أخرى ، فهذا أيضاً رافد آخر من روافد الإسلام إلى هذه الجزيرة .

وبعد غزو المغول المحيط الهندي صارت سيلان مملكة منفصلة مستقلة .

وخلال القرون الثلاثة المتتالية زاد عدد المسلمين بالتنازل وبدخول الوثنيين الإسلام ، ومنذ العهد المغولي لم تعد سيلان مركزاً تجارياً كما كانت من قبل ، ولم تنل الدعوة الإسلامية حظاً من الدعاة ، ولم يفد عليها ولم ينشأ منها معلمون ، وقصارى ما كان هناك أن أبناء الجزيرة الذين كانوا يذهبون إلى الحج أو لزيارة البلاد الإسلامية لسبب ما ، كانوا يعودون يصبص من الأفكار الإسلامية ، ولكن الفكرة الإسلامية كانت آخذة في الذبول ، وقدم دعاة الشيعة أفكاراً ومبادئ أكثر من مذهبهم الشيعي ، فسهلوا ذبول المذهب السني . ولكن من الجميل حقاً أن أطرافاً من دعوات الإصلاح الحديثة وصلت إلى مسلمي سيلان - السنوسية والوهابية ودعوة الشيخ محمد عبده ومدسته ... ثم حركة الإخوان المسلمين ، وكل هذا واضح الدلالة على أن الجزيرة ليست بمعزل عن العالم الإسلامي .

ويوجد هناك الآن جماعتان إسلاميتان كل منهما منفصلة عن الأخرى ، وبينهما شيء من التنافس وجميعهم ينقصهم معرفة اللغة العربية ، فهم ما يزالون يستقون معلوماتهم الإسلامية عن طريق اللغة الانجليزية .

٢ - الزعيم أحمد عرابي :

وتحدث الزعيم أحمد عرابي في مذكراته عن مسلمي سيلان ، فذكر أنه يوم أن وصل هو ورفاقه في ١٠ يناير سنة ١٨٨٣م كان رصيف الميناء مزدحماً أيما ازدحام بالإخوة المسلمين من أهل الجزيرة وأهل جاوه والهند والملايو ،

وأعيان الديانات الأخرى^(١) وذكر عن أهل الجزيرة أنهم كانوا ثلاثة ملايين تقريباً ، منهم مائتان وخمسون ألفاً من المسلمين ، وذكر أن الماهراجا سلطان مملكة جاهور الهندية زاره هناك ، وأنه من الشيعة وله محبة كبيرة لآل البيت ، وكان من أجلها يسمى « كَلْبَ عَلَى » وهذا مما يبنىء أن لدعوة الشيعة مكاناً في الجزيرة ، كما أن لورد لوزيرى زاره وأجرى معه محادثة عن الدعوة المهدية في السودان ، ووضح أن الزيارة كانت للدواع السياسية ، وجاء في الحديث عن المهدي أن ستين مليوناً من المسلمين في الهند يعتقدون أن مهدي السودان يجمع شتات المسلمين تحت رايته ، - ولا بد أن تكون هذه الدعوة قد وصلت سيلان ، فلا يمكن مع كل هذه الضجة أن تكون بعيدة عنها ، غير أن دعوة المهدي لم تكن ذات منهج إصلاحى خاص .

كان عراى والوفد الذى معه قد أنزلوا في كولومبو - وهى مدينة رديفة الجو لأن الجبال تحجب عنها الرياح ، وقد زاروا عدداً من المدن والقرى حولها ورأوا مساجدها ، مما يدل على أن الإسلام كان منتشرأً بوجه ما ، وساءت صحة الوفد في المنفى لسوء الجو في كولومبو فنقل إلى كندى فكان سكانها عشرين ألفاً منهم عشرة آلاف مسلمين ، أى نصف السكان في هذه المدينة .

وذكر مسجدين أحدهما به ضريح السيد « شهاب الدين » وهو حرم المدينة وأكبر أماكن العبادة فيها ، ووصف ثغر كولومبو بأنه يحوى ١٥٠ ألف نفس منهم ٢٠ ألفاً من المسلمين ، وبه سبعة مساجد ، وبوجه عام هذه الجزيرة ترتبط بالهند ارتباطاً قوياً ، وهى التى يمكن أن تتغذى منها بالثقافة الإسلامية ، ولكن الهند بدورها ليست ذات مقدرة كافية للقيام بالدعوة الإسلامية ، لأن المراكز الإسلامية هناك ينقصها الإمكانيات الكافية فضلاً عن أنها تواجه صعوبات ومعاكسات من الهندوك كثيراً ماتراق فيها دماء المسلمين .

(١) انظر الجزء التالى من مذكرات عراى ص ١٧٠ ومابعدها ط دار الهلال ، وراجع فصل

والديانة الغالبة في هذه الجزيرة إلى الآن هي البوذية ، والديانة الرئيسية فيها بعدها هي الهندوكية ، ثم المسيحية والإسلام - والبوذية والهندوكية من الديانات المسالمة ، وإن كانت البوذية تقوم لنفسها بدعاية غير ضعيفة ، وبهذا يبقى الصراع بين المسيحية والإسلام .

وغلبة البوذية ترجع إلى قدمها هناك ، وفي أيام سلطاتها وعزتها فرضت اللغة السنهالية هناك لغة قومية ، وظلت كذلك حتى الاحتلال الانجليزي ، ولغة التخاطب الآن هناك هي الانجليزية .

٣ - التبشير :

وصلتها الدعاية التبشيرية عن طريق إرساليات كاثوليكية رومانية ، وبهذا اختلفت عن أندونيسيا التي وصلتها أولاً إرساليات بروتستانتية . ولكن عندما استولت هولاندا على سيلان تحول الكثيرون إلى المذهب البروتستانتي ، ويرجع ذلك إلى نشاط دعاته وإلى أنه مذهب الدولة الحاكمة .

وأول إرسالية من قبل «جمعية التبشير الكنسية» كانت سنة ١٨١٧ ، فأنشأت أكثر من مائتي معهد و ٦٢٣ مدرسة ، وبلغ عدد تلاميذها نحو ٢٣ ألف تلميذ ، وجل ما يصبوا إليه المبشرون وهو التحكك بالمسلمين - خصوصاً سكان مقاطعة «كندي» وماحولها لأن هؤلاء يظهرون العداء للمبشرين ويرسلون أولادهم إلى مدارسهم الخاصة التي أسسوها لأنفسهم^(١) .

وبدخول إنجلترا سنة ١٨٩٥ تقلصت حركة البروتستانت ثانياً ، وتقدم المذهب الانجليكاني وتوالى وصول الجماعات التبشيرية - من جمعيات مختلفة منذ العهد الهولاندي ، من جمعية لندن من ١٨٠٤ - ١٨ ، وجمعية البابويين من سنة ١٨١٢ ، والميثوديزم ١٨١٤ ، والمرسلين المسيحية ١٨٠٧ ، ثم جماعة المرسلين الأمريكيان ، واستقرت في الجزء الشمالي - وهو يتكلم اللغة التاميلية Tamil . : وقامت بنشاط أوسع واعتمدت على التعليم ونشر اللغة الانجليزية .

(١) الفارة على العالم الإسلامي ص ٨٤ .

وعادت هذه الإرساليات الكثيرة بنفع مادي كثير للجزيرة بسبب ما فتحت من مدارس وأنشأت من المستشفيات ، وبخدمتها للنساء الحوامل والمرضعات ، وقد صادفت هذه الإرساليات صموداً كبيراً حين وصولها مما جعل إرسالية لندن تغلق أبوابها بعد أربعة عشر عاماً وبما جعل الآخرين يفكرون في طريق يجتذب الأهليين ، فلهجأوا إلى الإكثار من المدارس والمستشفيات ولا يزال أنصار البوذية يبدون مقاومة كبيرة للدعوة المسيحية ، برغم ما تقدم من خدمات اجتماعية .

ومن بداية القرن التاسع عشر أو ربما قبلها بقليل كانت الإرساليات قد فكرت في تعديل النظام التعليمي لبعثاتها ، ورأت باديء ذي بدء أن تقوم في بعض الأقطار جامعات مستقلة على نسق الجامعة الأمريكية في بيروت ، ثم أنشأت مدارس لتعليم المكفوفين ، والصمم والبكم والعجزة وهذا النوع الذي لم يكن معروفاً في الشرق أحدث أثراً كبيراً في نفوس الناس وجذب الكثيرين إلى المسيحية ، وفي ١٨١٩ وصل إلى سيلان طبيب أمريكي يسمى جون سكيودر John Scuder بينما وصل إلى الهند وإلى البلاد الأخرى أطباء ماثلون ، وسيلان لصغرها كانت تتبع الهند ، وتصلها إمدادات التبشير التي ترسل إليها ، ولكنها اختلفت عن الهند في إعلانها أنها دولة ذات دين ودينها هو البوذية ، هذا بينما أعلنت الهند أنها دولة لا دينية فكانت سيلان أقرب إلى بورما التي أعلنت نفسها بوذية الدين ، وهي الآن أهم مراكز البوذية ، ولكن موقف التبشير والدعوة الإسلامية يواجه مصاعب ومشكلات ، وهما معاً في ميدان المنافسة أحدهما أعزل والآخر مسلح .

يبلغ عند المسيحيين الآن في سيريلانكا (سيلان) نحو ١٠٪ على أكثر تقدير منهم ١٪ فقط من البروتستانت ، ومع كل ما يبدل من الإغراءات والمساعدات المادية كان مبلغ تقدم المسيحية هو هذا الحد ، وقد ذكرنا أن بها أربع ديانات ، واللغات التي بها ثلاث هي : السنهالية Sanhalisi والتاميلية والانجليزية ، ومنذ ستين عاماً تقريباً - أي في أوائل العشرينيات من هذا القرن

- ظهر هناك جنوح شديد إلى توحيد اللغة والدين في الجزيرة كلها ، على أن تكون اللغة هي السنهالية ، والدين هو البوذية ، واستولت الحكومة على معظم أو رُبما جميع المدارس التبشيرية ، أما في الجامعة فتدرس البوذية والمسيحية والإسلام ، تحت عنوان - الفلسفة الشرقية ، وهذا هو المنفذ الوحيد الذي يعرف به شيء من الإسلام ، ولا ندرى كيف تدرس هذه المادة ، ونظراً لعدم وجود اللغة العربية تعتمد دراسة الإسلام على المراجع الانجليزية وما تكتبه عن الإسلام لا يجلو حقائقه ولكنه يعطى فكرة مشوهة ، وبهذا يرجع مصير الدعوة الإسلامية إلى الجمعيتين اللتين ذكرنا ، وإلى ما يحصل عليه الحجاج والتجار من معلومات عن الإسلام .

ومنذ سنوات معدودة بدأ المسلمون يتعلمون اللغة العربية فساعد هذا على الإلمام بشيء منها ، ولكن لا نستطيع أن نقول أن المدارس التي تعلمها تهيب دراسات يتكلمها المتعلم أو يفهم كثيراً من تراكيبها خصوصاً التراكيب الكلاسيكية ، أو لغة القرآن والحديث والمصادر الإسلامية الأخرى .

ونعود أخيراً فنذكر أن هذه هي مهمة الأزهر الشريف ، ولعل الله أن يسر له السبيل لعمل شيء ينفع الإسلام والمسلمين في تلك الجزيرة الطيبة ، ولا ينبغي أن يتحمل الأزهر وحده كل هذه الأعباء ، بل أن الجهات الإسلامية الأخرى مسؤولة أيضاً عن هذا الواجب الإسلامي .

الفصل الثاني
في
أفريقية

أولاً : شمال أفريقية

١ - مصر :

كانت مصر أول بلد أفريقى شرفه الله بالإسلام ، فتحها عمرو بن العاص ، كما هو معروف سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) وكان قبط مصر يسامون سوء العذاب من الحاكم الرومانى ، وكانوا يترقبون مجيء العرب المسلمين لاستنقاذهم ، وتنفسوا الصعداء بدخولهم ، إذ قضوا على التعصب الدينى ، - وأزالوا الاضطهاد الذى عانوه ، كما أزالوا ما كان الشعب يعانیه من كبت الحرية وزيادة الضرائب وقلة العناية بمرافق الدولة ، .. وإزاء هذا كله ألقت مصر بنفسها فى أحضان الإسلام ، فأقبل أبناؤه عليه بكثرة واندفاع وبحمى لم يعهد مثلها فى أى بلد فتحه المسلمون ، وسرعان ما صار مسجد عمرو مدرسة نشيطة متنوعة الدروس ، وأراد عمرو وخلفاؤه أن يمدوا الإسلام إلى الجنوب فلم يجلوا ذلك عملاً هيناً ، وعقدوا مع سكان النوبة معاهدة^(١) اكتفوا بها واتجهوا بجيادهم إلى الجانب الغربى^(٢) .

٢ - شمال أفريقية :

(١) البربر :

كانت الحرب فى شمال أفريقية شاقة^(٣) ولم تكن سهلة كفتح مصر ، وكان أشق ما فيها حرب البربر ، وهم جماعة من الحاميين البيض تتولى عليهم كاهنة

(١) كانت بلاد النوبة فى هذا العصر تشمل السودان ، ومستحدثت بعد عن مدى انتشار الإسلام

فى الجنوب ،

(٢) كان يتبع مصر فى العهد الرومانى مدن ختة على ساحل البحر الأبيض تعرف بالمدن الخمس

سيأتى ذكرها .

(٣) كان عبد الله بن أبى سرح قد أخضع جزءاً من أفريقية ، وكانت قرطاجنة تدفع له الجزية ،

واعتبر الخليفة عثمان بن عفان البربر الوثنيين من المؤلفلة قلوبهم فعاملهم معاملة الكنايين وأعطاهم المال وبعت إليهم معلمين . انظر ابن عبد الحكم ١٨٣/٢ وابن عثارى ٢/١ .

لم يعرف اسمها ، وقد استعصت هذه الجماعة من قبل على الرومان ، وانتصر عليهم عقبة بن نافع انتصاراً جزئياً وأسس مدينة القيروان (٥٠ هـ) ٦٧٠ م ، وبنى بها مسجداً واتخذها قاعدة حربية يوجه منها حملاته ضد البربر واستشهد سنة ٦٣ هـ على مقربة من مدينة بسكرة في إقليم الجزائر الحالي ولا يزال قبره هناك ، وكان الرومان يشنون هجمات بحرية على المسلمين ، فاضطربهم بعد موت عقبة إلى التراجع ، واستشهد خلفه زهير بن قيس البلوى ثم جاء القائد الأمين حسان بن النعمان فاستولى على المنطقة ، وطرد البيزنطيين نهائياً من قرطاجنة عاصمة الإقليم ، وقتل الكاهنة^(١) ، ثم جاء موسى بن نصير فمد حدود الفتح إلى طنجة ، وهكذا امتدت الفتوح الإسلامية غرباً من الشاطئ حتى المحيط ، وبعد ذلك امتدت من ساحل المحيط جنوباً ، ولم يكن من اليسر ولا من المتوقع أن يحاول المسلمون الاتجاه جنوباً في أعماق الصحراء ، ولا وراء الجبال .

وكان من العجيب حقاً أن أقبل هؤلاء البربر الوثنيون على الإسلام ، وعلى اللغة العربية حتى كان الجيش الذى فتح به موسى بن نصير بلاد الأندلس من البربر وكان طارق بن زياد مولاة ورسوله إلى هذه البلاد من البربر أيضاً .

ليس في التاريخ ما يدل على أن المسلمين استعملوا شيئاً مثل الذى استعمله الرومان لإكراه البربر على الدخول في الإسلام ، وواضح جداً أن الرغبة الجامحة وحب الإسلام هو الذى أسرع بالبربر إلى تعلم اللغة العربية في وقت قصير ، والأسباب الحقيقية هي حسن المعاملة من الحكام ، وحسن العدالة من قانون الإسلام ، وليس من الحق أن نقول أن البربر استهواهم رقى العرب لأن الرومان كانوا أرقى من العرب ولم يستطيعوا جذبهم للمسيحية ، وقد خصص الخلفاء علماء وفقهاء لتعليم القرآن والحديث واللغة العربية وتفهمهم قواعد الإسلام وقوانينه ، وكانت عناية الفاتحين بنشر الإسلام عظيمة ، فكان موسى بن نصير يشتري الأسرى والأرقاء من المال المخصص للدولة ويعتقهم مقابل إسلامهم ،

(١) تنبأت بهزمتها وأرسلت أبنائها لينضموا إلى المسلمين ، وآثرت لنفسها القتل .

وأرسل عمر بن عبد العزيز مع واليه عشرة من الفقهاء لتعليم المسلمين هناك^(١) والذي يبدو أنه من العوامل الفعالة جداً للإقبال على الإسلام عنصر الديمقراطية وشعور الأهليين بمساواتهم بالعرب الفاتحين ، ومهما يكن من شيء فإن البربر وغيرهم من الأجناس الأخرى أقبلوا على الإسلام إقبالاً يبدو في نظر التاريخ عجبياً ، ولكن هذا لا يعنى أن جميع أفرادهم كانوا مسلمين .

ومما تجدر ملاحظته أن دخول هؤلاء السذج في الإسلام لا يعنى أنهم أُلوا بكل قوانينه البارزة فقد دفعتهم عاطفتهم إلى اعتناقه وكان لابد لهم من زمن طويل يعرفون فيه العربية ويعرفون قواعد الإسلام ، وقد وجد الفقهاء الذين بعث بهم عمر بن عبد العزيز من البربر من يشربون الخمر ولا يعرفون أنها محرمة ، وظل الذين لم يسلموا يتقاطرون إليه قليلاً وكثيراً ، حتى جاءت دولتنا المرابطين والموحدين فاستوعبتهم الدعوة الإسلامية أو كادت . أما الذين كانوا على حواف الصحراء والواحات التي كانت تتناثر داخلها فكان بعضهم يأتي إلى الحواضر الإسلامية ليتعلم ويعود ليعلم الآخرين وكان الدعاة المخلصون ينتقلون إليهم أحياناً ، وبهذه الجهود الفردية حبا الإسلام إلى داخل القارة .

(ب) الأدارسة :

ولما قامت دولة الأدارسة في المغرب انضمت إليهم قبيلة أوزية اندفاعاً عاطفياً مع آل البيت النبوي^(٢) فوسعوا دائرة الإسلام فيما حولهم ، ثم قامت دولة الأغالبة في أفريقية الصغرى «تونس»^(٣) فملت الإسلام في جزر البحر

(١) انظر فتح الطيب ٢٥٣/٨ .

(٢) مؤسس دولة الأدارسة هو إدريس بن عبد الله من حفدة الحسين بن علي ، وكان قد أثار تمرداً على العباسيين في المدينة سنة ١٦٦ هـ فهزموه في موقعة فح ، ففر إلى المغرب ، وأنشأ دولة استمرت نحو قرنين كانت عاصمتها فاس (انظر بن خلدون ج ٤/ ١٢ - ١٤) .

(٣) مؤسس هذه الدولة هو إبراهيم بن الأغلب الذي عينه هارون الرشيد والياً على أفريقية فاستقل بها وأبدي هو وخلفاؤه من بعد نشاطاً كبيراً في مد الإسلام ، وكان من وزرائهم أسد بن الفرات المالكي المذهب صاحب المدونة في الفقه المالكي وفتح صقلية ، ومنوته انقبست من مدونة الإمام ومن ابن القاسم وقد ذكرنا حديثه في فتح صقلية في كتاب الاستشراق .

الأبيض كما مدته أيضاً إلى الجنوب وهم الذيم جددوا مسجد عقبة في القيروان وأقاموا به مدرسة إسلامية أكبر وأنشط مما كان به ، وكانت القيروان في عهدهم تلى المدن الثلاثة مكة والمدينة وبيت المقدس ، وفي هذا العهد بحيث الآثار اللاتينية والمسيحية من أفريقية نهائياً ، وصارت منذ ذلك العهد إقليماً إسلامياً بحتاً ، ثم زالت هذه الدولة بعد قرن أو ما يزيد عليه قليلاً ، وحل محلها الفاطميون ، وكانت تقاليد هؤلاء الشيعة تستهوى الكثيرين ، ولكن الإقليم كله كان قد اصطبغ بالصبغة الإسلامية السنية من قبل ، واقتضت سماحة الإسلام أن تبقى قلة ضئيلة من المسيحيين وبعض اليهود الذين هاجروا إلى تلك البقاع فراراً من قسوة الرومان ، منهم من جاء من فلسطين ومنهم من جاء من أسبانيا .

(جـ) دولة المرابطين :

ولما قامت دولة المرابطين كان من آثارها أنها وحدت المغرب الأقصى والأوسط ونشرت الإسلام على الساحل الغربي للقارة الأفريقية^(١) وأدخلت عديداً من البربر إلى الإسلام وهم الذين أنشأوا مدينة مراکش (١٠٦٢م) ٤٢٥هـ .

وبعد أن دخل البربر والزنوج الإسلام أهدوا نحوه حماسة ورغبة ، وكانت قبيلة صنهاجة ذات الفروع والبطون العديدة^(٢) قد آثر أكثر بطونها الإسلام ، وتشتهر بينهم وفي تاريخهم قصة عبد الله بن ياسين ، هذا العابد التقى الذي يرجع له الفضل الأكبر في نشر الإسلام هناك ، وحديثه ذو أهمية لأنه يوضح طريقة نشر الإسلام بين تلك القبائل دون أى إكراه ، كما يوضح نشأة المرابطين .

(١) ينسب المرابطون إلى دير كان في جزيرة في بلاد السنغال السفلى ، ظهرت دولتهم في القرن الخامس على يد أحد المسلمين الأتقياء ، أسس أولاً جماعة دينية ، فالتزم إليها أعناد من قبيلة ليجونة - فرع من صنهاجة - وكانوا ينفطون وجوههم بثلثم فسموا أيضاً المثلثين ، وكانوا قوى بدادة وحسب للجهاد فمدوا سلطانهم إلى الشمال الشرق ، وكان رئيسهم يوسف بن تاشفين الذي هزم الفرنجة في موقعة الرلافة بالأندلس ، ولم تعمر دولتهم طويلاً .

(٢) انظر عنها ابن خلدون ١٨١/٦ .

ففى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى كان يحيى بن ابرهيم شيخ قبيلة صنهاجة عائداً من الحج وكان يبحث فى المراكز الدينية فى شمال أفريقية عن معلم يرشد قومه ويعلمهم ، وكان يائساً أو شبه يائس من شيخ يترك رسالته التعليمية فى بلده ويغوص مخاطر الصحراء ، حتى استجاب عبد الله بن ياسين - لهذه الرسالة الشاقة ، فوجد البربر هناك على غير ما يرضى الإسلام ، واضطره تقصيرهم وعدم استجابتهم أن يلدجاً إلى جزيرة فى نهر السنغال بنى بها مع بعض تلاميذه رباطاً للعلم والعبادة ، فعاد إليه البربر يستسمحونه ويتلقون عنه ، وأقبل عليه السودانيون أيضاً بكثرة ، فلما كثر أتباعه أمرهم أن ينطلقوا إلى ماحولهم لنشر الدعوة واعتبر هذا الجهاد شكراً لله تعالى على هدايتهم للإسلام وقال لهم « اخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فإن تابوا وأنبأوا ورجعوا إلى الحق وأقنعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا ذلك وتمادوا فى غيهم ولجوا فى طغيانهم ، استفتنا بالله تعالى عليهم ، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا ، فانطلق كل واحد من أتباعه يدعو عشيرته ، وكان القوم مجوسيين ، وفهم وثيون ومات عبد الله هذاسنة ١٠٥٩ م (٤٢١هـ) ولم تمت دعوته ، بل انضم إليها كثير من قبائل البربر الوثنية ، واعتبروا الإسلام قضيتهم التى يجب عليهم الدفاع عنها ونشرها ، وانسابوا إلى شمال أفريقية ثم عبروا بأسطولهم إلى الأندلس لإنقاذ ابن عباد ، فمدوا حياة الإسلام هناك أربعة قرون أخرى^(١) .

ودولة المرابطين - كدولة الموحدين التى خلفتها - لم تكن تخلو من خشونة وتعصب دينى ، لأن كلتا الدولتين تتصف بحفاوة البدو والانقياد العاطفى للدين ، ولهذا لم تتسع عقولهم لهضم الفكر الفلسفى ، وفى عهد على

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٥١ - ٣ عن هذا وعن انتشار الإسلام فى أفريقية ١٧ - ١٩ ،

وانظر ابن خلدون ١٨٣/٦ وقارن .

ابن يوسف بن تاشفين ومن بعده وضعت مؤلفات الغزالي في القائمة السوداء ، وأحرقت كتب فلسفية في أسبانيا وفي المغرب^(١) .

ومؤسس الدولة هو يوسف بن تاشفين ، وكان شجاعاً عادلاً ، وهو الذى اختط مدينة مراكش سنة ٤٦٥ هـ (١٠٦٢ م) - وكان موضعها مكمناً للصوص ، دانت له بلاد المغرب ، ورغب في العبور إلى جزيرة الأندلس ، فأعد أسطولاً لذلك ، وهاهيه ملوك الأندلس وأرادوا مقاومته ولكنهم خافوه ، وكان ملوك الفرنجة أيضاً يقدرون بأسه ، لأن قوة المثلثين كانت قد تجلت في قهرهم بنى زناته ، وتشاور المسلمون مع المعتمد بن عباد لأنه أكبرهم دولة ، فاستقر رأيهم أن يستعطفوه أن يعرض عنهم فاستجاب لهم ، ولكن الأذفونش (فرديناند) صاحب طليطلة ، كان قد تهددهم وطمع في بلادهم ، ففزع المعتمد إلى ابن تاشفين يستنجده ، وهو يدرك خطورة دخوله بلاده ، ولمنه قال كلمته المشهورة : لأن يرعى أولادنا جمال المثلثين خير من أن يرعوا خنازير الفرنج .

واستجاب ابن تاشفين ، فاستدعى الأذفونش بدوره ملوك أوروبا ، وكانت موقعة رهيبة عند الزلاقة ، سميت الموقعة باسمها . وفيها هزم الفرنجة على كثرتهم^(٢) .

وتنسم هذه الحرب بأنها حرب دينية أكثر منها سياسية ، وقد تهدد الأذفونش ابن تاشفين وقال له أنا رئيس النصارى وأنت رئيس المسلمين ، وأنتم تقولون إن الواحد منكم يغلب عشرة منا ، وأجابه رئيس المسلمين على نحو ما أجاب الرشيد نقفور إذ قال له : الجواب ما ترى لا ما تسمع .

(١) جاء في وفيات الأعيان ١١٣/٧ ، أن بر المغاربة الجنوى كان لقييلة زناته ، وخرج عليهم المثلثون من البلاد المتاخمة للسودان يقودهم بكر بن عمر ، وكان رجلاً ساذجاً غير الطباع ، فخر مبال إلى الرقاهية ، وكان ولاية المغرب من زناتة ضطاء ، فأخذ المثلثون البلاد من أيديهم من باب تلمسان إلى المحيط بقيادة بكر بن عمر ، ثم استخلف عليها يوسف بن تاشفين ورجع .

(٢) انظر تفاصيل الموقعة في المرجع نفسه نقلاً عن آخرين .

وفي موقعة الزلاقة أمر يوسف بن تاشفين بعبور الجبال ، ولم يكن أهل الجزيرة قد رأوها من قبل فرهبوها ونفرت منها خيولهم . وقد تهدد يوسف بن تاشفين الأذفونس في رسالة له وعرض عليه - على نحو ما كان يفعل المسلمون الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب ، ثم كتب له النصر على جميع الفرنجة الكثيرة^(١) .

وعف ابن تاشفين عن غنائم المعركة وتركها لمسلمي الأندلس ، ولكن الحرب بين الفرنجة والمسلمين في أسبانيا كانت مستمرة الدوران ، وعبر ابن تاشفين إلى أسبانيا ثلاث مرات ثم أسر المعتمد ونقله إلى أغمات في المغرب حتى مات هناك .

كانت مراكش عاصمة المرابطين بالمغرب ، وكانت أشيلة عاصمتهم في أسبانيا ، وظل حكمهم هنا وهناك ما يقرب من ستين عاما ، ثم عدا عليهم الموحدون .

آثار المرابطين الدينية :

قلنا إنها كانت دولة خشنة ذات عاطفة دينية جامحة ، ولم تخل معاملتها من تعصب ، وقد دخل الإسلام في عهدها كثيرون ، وقد تطيع الأسبان بخصائصهم الإسلامية ، فكانوا يتسمون بأسماء غربية ويختنون ، وأحيانا يتكلمون العربية ، ورسخت هذه الصفات فيهم حتى بقيت بعدهم نحو قرنين من الزمان رغم تعصب الفرنجة . وترجمت أجزاء من الكتاب المقدس بقسميه إلى اللغة العربية ، وكانت النقود تسك باللغة العربية ، وبعض الملوك الفرنجة لم يكونوا يعرفون إلا اللغة العربية .

وأنشأ المرابطون في أسبانيا عدداً من المساجد ، وحولوا الكاتدرائية التي أنشأها

(١) كانت موقعة الزلاقة في سنة ٤٧٠هـ ، ومات يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ انظر الكامل

لابن الأثير ج ١٠ حوادث سنة ٥٠٠هـ .

القوط من قبل قريباً من غرناطة إلى مسجد ، وفي القرن الثاني عشر عومل المسيحيون واليهود بشيء من العنف والشدة ، لأنهم عملوا جواسيس للفرنجة ، ونفى كثيرون إلى مراكش ، ولكن هذا الاضطهاد يعد شيئاً ضئيلاً إذا وازناه بالاضطهاد الذي قوبل به المسلمون من قبل المسيحيين بعد زوال الحكم الإسلامي ، وسنذكر بعضاً منه بعد ، وتقديم بعض آخر .

وأفضى الملك بعد يوسف بن تاشفين إلى ولده علي ، وكان ذا صلاح وعدل ، وكان شديد التعصب للمذهب المالكي ، وهو الذي أشار يقتل الفتح ابن خاقان ، صاحب كتاب قلائد العقيان - وكان قد ألفه باسم أخيه ابرهيم ابن يوسف^(١) - وتلا علياً ابنه تاشفين ثم حفيده ابرهيم ، ثم أخوه إسحق - وهو الذي قتله قائد الموحدين عبد المؤمن سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م) .

ويجدر بنا أن نتذكر أن سبب هوان المرابطين واستخذائهم أمام الموحدين هو انغماسهم في الترف والملذات ، وأنهم لأصلهم البلوى وبعدهم عن مظاهر الترف ألقوا بأنفسهم في أحضان الملذات المادية ، وقد عاب يوسف بن تاشفين على المعتمد بن عباد ما كان ينغمس فيه من لهو ومتع ولكن أتباعه انغمسوا أكثر فضعفت شوكتهم وزالت دولتهم بسرعة .

كلمة عن تسمية المرابطين والملثمين :

أطلق اسم المرابطين على هؤلاء القوم ، لأنهم - كما سبق - كانوا يعيشون في مكان متقطع شبيه بالأربطة التي كان يربط فيها جنود المسلمين ، وأول من أطلق عليهم هذا الاسم هو يوسف بن تاشفين ، ربما ليثبت فهم روح الدفاع وحمة الحرب .

أما اسم الملثمين فهو أسبق ، لأن هذه الجماعة - من أسلم منهم ولم يكن أسلم - كانوا يتخذون ألثمة تحفي وجوههم ، وفي سبب هذه الألثمة أورد ابن خلكان نقلاً عن آخرين عدة أسباب .

قيل أنهم سلالة عربية حميرية ، وحمير كانت تنقي الحر والبرد بالثام ، وظلت هذه العادة فيمن تفرع منهم حفاظاً على تقاليد القبيلة .

وقيل أن قوماً من أعدائهم كانوا يترصدون غيبة الرجال ، فيسقطون على المنازل ينتهبونها وينهبون النساء أيضاً ، واحتال الجماعة لذلك ، فألبسوا النساء زى الرجال وبعثوا بهم إلى الخارج ، ولبسوا هم الأثمة حتى لا يعرف أعداؤهم أنهم رجال ، ولما هجم أعداؤهم قاموا هم عليهم بالسيوف فقتلوهم . وتفاءلوا بذلك فظلوا يلبسون الثام بعد ذلك .

وهناك رواية ثالثة نقلها ابن خلكان عن الحافظ عز الدين بن الأثير ، وهي أن جماعة من لمتونة . خرجوا للإغارة على عدو لهم ، فانتبه العدو خروجهم وأغار على بيوتهم وليس بها إلا الشيوخ والنساء والصبية ، فنبهوا ماشعوا ، واحتال بنو لمتونة ، فألبسوا النساء ثياب الرجال وأثمة الحرب وجعلوهن يحطن بالبيوت وأمامهم الشيوخ والصبيان ، وبقي الرجال بعيداً قريباً من ماشيتهم ، ولما جاء الأعداء ظنوا النساء رجالا ، فرأوا أن يبعثوا عن المنازل وأن يستاقوا الإبل ، فهجم عليهم الرجال وهم يجمعونها ، فقتلوا وأكثروا فانتحلوا الثام من ذلك الوقت سنة يلازمونه ليلاً ونهاراً ، وشيوخاً وشباناً ، فلا يعرف الشيخ فيهم من الشاب .

ومما قاله فيهم بعض الشعراء ، من حسن التعليل :

قوم لهم درك العلا في حمير وإن اتموا صنهاجة فهم همو
لما حورا إحراز كل فضيلة غلب الحياء عليهم فثلموا

ويروى البيت الأول :

وإذا دعوا لمتونة فهمو همو

(د) دولة الموحدين :

وتلت دولة المرابطين دولة الموحدين التي قامت أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، وكان مؤسسها ابن تومرت داعية مخلصاً ، وهو بربري من قبيلة مصمودة ، وتاريخه لا يخلو من مبالغة ، وقد مات حوالي سنة ٥٠٨ هـ (١١٣٠ م) . بعد أن مهد السبيل لكبير أتباعه عبد المؤمن بن علي أن يقيم دولة الموحدين .

وكان ابن تومرت من ذوى العلم والورع والسنية والمحافظة الشديدة التمسك ، نشأ على العبادة وملازمة المسجد ، وكان يلقب بالضياء لكثرة ما كان يشعل من المصابيح بالمسجد^(١) ، وكانت صفاته وأخلاقه مما يدعو إلى الاستجابة له ، فهو شريف يرتفع بنسبه إلى الحسين بن علي ، وجده إدريس الأكبر مؤسس دولة الأدارسة . وهو ذو علم ، جال في تحصيله جولة واسعة في الأندلس والشرق فزار الاسكندرية وسوريا والعراق ، ويقال أنه قابل أبا حامد الغزالي وأطلعه على ما كان في نفسه من إقامة دولة إسلامية بالمغرب وأنه وافقه على رأيه ، وقد قابل علماء الأشاعرة فأعجب بآرائهم في تأويل التشابه ، فأدخل هذا المذهب المغرب ، ومن أجله سمى جماعته الموحدين تعريضاً لأهل المتونة الذين لم يقبلوا التأويل ، فاعتبرهم غير موحدين وأنهم يجعلون لله أعضاء ، وكل ما يؤخذ عليه أنه كان يقول بعصمة الإمام كالشيعة^(٢) .

أما خليفته عبد المؤمن - مقيم هذه الدولة - فكان شجاعاً . قضى على دولة المرابطين بقتل آخرهم إسحق بن علي وكون أكبر دولة عرفتها مراكش امتدت على ساحل البحر المتوسط من المحيط إلى مصر ، وكانت ذات قوة وشهرة وذات تأثير على القبائل الوثنية المجاورة لها .

(١) حتى من ٧٠٩ كان أبوه يوقد مصابيح المسجد .

(٢) يبدو أنه لمراسم المتونة لم يلتزم بمذهب واحد - فأخذ من أهل السنة ومن المعتزلة ومن

الشيعة ، ومن المذاهب الفقهية المختلفة أيهاً ولذا استساغ تأويلات واسعة .

وابن تومرت هو صاحب الفضل الأول لنشاطه العلمى .

كان قد تسمى باسم محمد المهدي ، وعمل على تقريب الإسلام إلى البربر فترجم النصوص والفقه إلى لغتهم وجعلها لغة عبادة ، وأمر أن يكون الأذان باللغة البربرية^(١) ولم يسلم البربر جميعاً في هذا العهد ، بل ظلت قلة منهم على وثنيها حتى القرن الخامس عشر .

وأورد ابن خلكان نقلاً عن آخرين غرائب وأعاجيب لعبد المؤمن ، قد تصدق وقد تكذب ، لكن الذى لا مرية فيه أنه كان متشدداً صارماً في دعوته الدينية ، لا يرى منكراً إلا أسرع في تغييره ، فكان قريب الشبه في هذا من ابن تومرت .

وقد أخذنا معاً في العمل على تقويض دولة المرابطين منذ عهد على ابن يوسف ، وكان أهم ما استأهل بنى مصمودة إلى دعوتها ما كانا عليه من تقشف وزهد ، وحمية دينية ، وهذه الصفات كثيراً ما استهوت الناس وجعلتهم يلتفتون حول القادة .

ومات عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م)^(٢) محمود السيرة محبوباً مقدرأ .

وأشهر الذين جاعوا بعلمه حفيده أبو يوسف يعقوب الذى تلقب بالمنصور ، ومع أنه ابن أمة مسيحية كان ذا عاطفة إسلامية نبيلة ، وله آثار

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٥٣ - نقلاً عن ابن أبي زرع - وانظر ترجمة ابن تومرت في وفيات الأعيان ج ٥/٤٥ - وانظر تاريخ ابن خلدون ٢٢٥/٦ وما بعدها ومن صفاته أنه كان ضعيف الجسم دميم الخلقة متشكفاً مترمناً عارض الموسيقى وشهد العقوبة على شرب الخمر .

(٢) كان والد عبد المؤمن خزانةً يصنع الآنية من الطين ، وظهرت لعبد المؤمن هذا غرائب لفت الأنظار إليه - إن صححت - وقد ولى مدة ٣٣ سنة وأشهرأ ، ومات شيخاً تقى البياض ، وكان محتل القائمة عظيم الخامة أشعل المنيين كث اللحية شثن الكفين ، قيل ولد سنة ٥٠٠ هـ وقيل سنة ٤٩٠ هـ وعهد بالأمر إلى ابنه محمد ولكن الشعب علمه بعد شهور قليلة وولى بعده ألعاه يوسف . (وفيات الأعيان ج ٣/٢٣٩ .

إسلامية معمارية لاتزال باقية في مراكش وأسبانيا ، وكان قد بنى قريماً من أشبيلية جامعاً كبيراً استغرق بناؤه خمسة وعشرين عاماً ، ولعله أراد به مقابلة المسجد الكبير في قرطبة ، وهذا المسجد حول الآن إلى كاتدرائية ، وبنى في مراكش مستشفى كبيراً وله آثار معمارية أخرى .

كانت دولة الموحدين جادة في حروبها الدينية ضد الفرنجة في أسبانيا ، ولكنها صادفت عهد تفرقة المسلمين وتجمع أعدائهم ، وكان الروح الصليبي مسيطراً على المشاعر الأوروبية كلها ، فكانت موقعة العقاب سنة ٦٠٧هـ (١٢١٢م) موقعة حاسمة استسلم المسلمون بعدها بعامين . وكان آخر حكامهم هو محمد الناصر بن المنصور الذي هزم أمام جيش أوروى كثيف يقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة سنة ٦٠٩هـ . وكان هذا الجيش يضم جنوداً من عدد من الممالك وجماعة من الصليبيين الفرنسيين ، وبعد هذه الهزيمة صارت أسبانيا فريسة للتاج المتحد على ما ذكرنا قبل^(١) .

كانت مدة الموحدين كما رأينا أطول من مدة المرابطين ، وأيضاً أفادت الإسلام أكثر .

كان ملوك المرابطين يتسمون باسم أمير المسلمين ، وتركوا لقب أمير المؤمنين للخليفة العباسي إذ كانوا يقرون بسيادته الروحية ، وهذا نفوذ كان قد انقطع منذ قيام العهد الأموي في أسبانيا ، ولكن الموحدين تلقبوا بلقب أمير المؤمنين^(٢) وعندما كان صلاح الدين الأيوبي يجمع قوى المسلمين لحرب

(١) كان جيش الناصر ستة آلاف نجا منهم ألف واحد ، وفر هو إلى مراكش فمات بعد عامين ، وخلفه تسعة من سلالة عبد المؤمن ، ثم قضى عليهم بنو مرين ، وهم فرع من زناتة وبدا دالت دولة الموحدين (حتى ٧١٣هـ) .

(٢) أول من تلقب به هو يوسف بن عبد المؤمن ، قال الحافظ ابن كثير ، أن عبد المؤمن لما مات حله ابنه ميتاً إلى مراكش على أنه مريض ، ولما وصلها أظهر موته فزاه الناس وباهوه على الملك باسم أمير المؤمنين (بداية النهاية ج ٢٤٦/١٢) وقارن هذا بما سبق من قول ابن خلكان .

الصلبيين استعان بالمنصور الموحدى فأرسل إليه هدايا مع أحد بنى منقذ ، وهو ابن عم لأسامة ابن منقذ ، ولم يوجه الخطاب إليه بتأسم أمير المؤمنين رعاية لمكانة الخليفة العباس ، الذى كان صلاح الدين تابعاً له ، فخاطبه بأمر المسلمين ، ولم يسترح المنصور لهذا الخطاب ، فتردد ، ولكنه أثر أخيراً نصر الإسلام ، فأرسل مائة وثمانين سفينة لتجارب مع المسلمين .

وحرب هاتين الدولتين - سواء في أسبانيا أو أفريقيا يكسوها الروح الدينى ، وقد دخل الإسلام على عهدهما كثيرون من المجوس والوثنيين وأيضاً بعض المسيحيين .

(هـ) القرن السادس عشر الميلادى :

وفي القرن العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى - انبعثت حركة نشيطة للدعوة الإسلامية على هذا الساحل وكانت ذات أثر في إدخال الإسلام في جوف القارة ، وكانت ترجع إلى أمرين مختلفين ، أولهما ضغط الفرنجة في أسبانيا على المسلمين وطردهم إلى أفريقية مما دفع بعباد الأربطة إلى الخروج للجهاد ونشر الدعوة ، وثانيها انتصار صلاح الدين على الصليبيين ، فقد بعث الأمل في نفوس المسلمين لسيادة دينهم ، فقد دخل الإسلام في مصر نحو خمسة وعشرين ألفاً من المسيحيين ودخله عدد أيضاً من الذين كانوا في المدن الصليبية في الشام عقب جلاء - الصليبيين^(١) وهزت سمعة الانتصار أعداداً كبيرة من الزنوج في الصحراء الكبرى ، فأقبلوا على الإسلام يتعرفون عليه ويدينون به ، في الوقت نفسه مدَّ البربر الإسلام إلى غانا حتى دخلت كلها الإسلام وظلت مسلمة وعملت على مد الإسلام فيما حولها ، وإلى جانب غانا كانت مملكة صنغاي ، التي دخلت الإسلام في سنة ٤٠٠ هـ تقريباً - أى القرن العاشر الميلادى وقد كان هذا القرن عصر امتداد الإسلام في أفريقية وآسيا .

هذا موجز سريع عن استقرار الإسلام في الشمال والشمال الغربى لأفريقية ومنه نفذ إلى جوف القارة السوداء ، ولكن طريقه الأيسر والأكثر

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٥٣ .

فاعلية هو طريق النيل الذى يربط مصر والسودان ، ثم طريق نهر النيجر والكونغو ، هنا عدا الطرق التى سلكها من شرق القارة .

وطوال العهود التالية كان الجامع الأزهر فى القارة قد ورث جامع عمرو فى الفسطاط والمدارس الأخرى التى كانت قد أنشئت فى عهد الأيوبيين ، وكان طلاب الدراسات الإسلامية والعربية يفتنون إلى الأزهر من مختلف جهات القارة ثم يعودون لتعليم الإسلام فى بلادهم ، لم تكن هذه حركة قوية ولكن عن طريقها أنشئت الكتاتيب والزوايا ، وأعطيت فكرة عن الإسلام ، ودخله بسببها أفراد ، وخلال هذه المدة كلها لم يكن للمبشرين نشاط ملحوظ ، ولا كان للإرساليات مدارس ومصحات هناك إلا شيئاً قليلاً جداً ، حتى جاء القرن التاسع عشر فبدأ نشاط التبشير بمساعدة الاستعمار ، وقد كان نشاط الدينين - الإسلامى والمسيحى - متعادلاً ، وكان الإسلام أسبق فى كسب الوثنيين ، ونمو المساجد أبرز من نمو الكنائس .

وجاء هذا القرن والدول الإسلامية كلها تزدح تحت عبء ثقل من الجهل والتخلف ، ذلك لأنها كانت قد استكانت طويلاً منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، بينما كانت الدول الأوروبية تدرس تراث - المسلمين وتستفيد منه فكراً وعملاً ومادة وعقلاً .

كانت الدولة العثمانية ، أكبر الدول الإسلامية وأوسعها رقعة ، قد أخذت إلى الراحة وغفلت عن واجبها ، فلا رعت قوانين الإسلام حق رعايتها ، ولا أعدت بنظم المدنية الحديثة ، فأطمعت أعداءها فيها ، وتكالب الأوروبيون على تقسيم ميراثها وهى لم تزل على قيد الحياة ، وأطلقوا عليها اسم الرجل المريض ، وكانت الدولة الإيرانية فى الشرق والأخرى الحسينية فى أقصى الغرب تغطبان فى مثل هذا النوم ، مما هيا للمستعمرين أن يفتاتوا على حقوقها جميعاً ، وربما كان هذا الافتيات أكثر وأشد مما نال المستعمرات التى خضعت لقواتهم ، وكانت

هذه الحال مما أفسح الطريق أمام المبشرين ، فانبعث في إرسالياتهم إلى الشرق نشاط لم يعرف من قبل ، وظل هذا النشاط يشتد ويقوى في مد لا يزال يتقدم إلى اليوم ، واتخذ المبشرون والغريبون عامة من ضعف المسلمين وتأخرهم حجة على الإسلام فقالوا أنه دين التأخر والاستكانة ، وأن المسيحية دين التقدم والارتقاء ، وبينما كان رجال الدين الأوروبيون طوال العصر الوسيط مثار فساد وأسباب تأخر ، كان الدين الإسلامي في الشرق يبعث نهضة ويحيى مواتا ، وقد اضطر الأوروبيون أن يفصلوا بين رجل الدين ورجلة الدولة ، فجأراهم الشرقيون تقليداً لا يقوم على سبب ، وأدى هذا إلى ترك رجل الدين الإسلامي يتحمل وحده - على ضعفه وانفراده - عبء رسالته ، هذا بينما لم تمحل الدولة الأوروبية على رجل الدين الذي عزلته بالإمداد والحماية في كل بلد تنبعت فيه إرسالية .

ويجب ألا ننسى أن الأوروبيين الذين تقدموا هم الذين اتصلوا بالمسلمين واستفادوا من علومهم ، ولكن هذا ما يتساهل المبشرون .

(و) التبشير ونشاطه :

وقد سبق الاستعمار حركة التبشير بمدة وجيزة ، وكان هذا طبعياً ، لأنه لولا وجود الاستعمار لظل التبشير بعيداً عن منطقة الشرق الأوسط .

واحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠م ثم احتلت تونس سنة ١٨٨١م ، وكان الاستعمار الفرنسي قائماً على إلحاق مستعمراته في هذه المنطقة بفرنسا ، ومن أساليبه أن يعمل على إضعاف الإسلام من غير أن يخرج صدور المسلمين ، وقد خدر نابليون الثالث أعصاب الجزائريين بأن منحهم حق المواطن الفرنسي ولم يفرق في هذا بين مسلم وغير مسلم ، فلما جاء غمبتا سلب هذا الحق من المسلمين وضاعفه لليهود ، وأعلنت الحكومة الفرنسية تناسي الدين واعتزاله ، بمعنى أن الرعايا الفرنسيين هم رعايا فرنسا على أي دين كانوا ، ولكن أعلن وزير خارجيتها أو مستعمراتها أن هذه السياسة اللادينية لا تتعدى حدود فرنسا

إلى المستعمرات ، ثم خصصت في ميزانيتها باباً لمعونة المبشرين في أفريقية ، وكان باباً واسعاً ، وكانت ميزانيتها إذ ذاك في ضائقة^(١) ، ولم تنس التوسعة على الجالية اليهودية التي كانت قد استقرت من زمن غير بعيد يرجع إلى سنة ١٨٧٥م وهذا واضح في أن فرنسا كانت تبذل المحاولات العديدة لمضايقة الإسلام والقضاء عليه .

وفي سنة ١٨١٨م بعثت جمعية المرسلين المسيحية Christian Missionary Siasaty إلى مصر حملة تبشيرية ، كانت مكونة من خمس إرساليات لكل إرسالية رئيسها وأعضاؤها ، فاستقر ثلاثة من الرؤساء بمصر ، وذهب اثنان إلى الحبشة ولم يستقرا بها طويلاً ، بل طرد ثانيهما ، ويبد أن ذلك بسبب اختلاف المذاهب ، إذ كانت هذه الإرساليات كلها انجليكانية ، والحبشة تتبع المذهب الأرثوذكسي أما الأخريات التي استقرت بمصر فكان مهمتها أن تتعاون مع قبط مصر ، وأن تمدهم بمحاجاتهم من المدنية الحديثة ، وكان عملها في الواقع متعدد الجوانب ، سياسياً ودينياً ، فهي تهدف إلى التقريب بين الكنيستين ، وتتعاون مع القبط ضد الإسلام ، وتعمل على إحداث فجوة بين المسلمين والأقباط مما هيأ للانجليز أن يتدخلوا في سياسة مصر ، وقد تحقق هذا فيما بعد إذ كان مما يتذرع به الانجليز للبقاء في مصر حماية الأقليات المسيحية بها ، ولكن الإرساليات مع هذا لم تحقق النجاح الذي كانت تريده وإن كان المبدأ السياسي ظل باقياً ، وشعرت بالفشل في رسالتها فانسحبت سنة ١٨٦٢م ، أي قبل الاحتلال الانجليزي لمصر بعشرين عاماً .

وبصدد هذا النشاط التبشيري نذكر باديء ذي بدء أن أمريكا كانت صاحبة يد أطول في كل هذه الميادين ، وأنها منذ دخلت ميدان التبشير صارت بسرعة أكبر بلد يصدر الإرساليات ، وكان التعاون والاتحاد بينها وبين إنجلترا مستمرّاً ، لاتحادهما في السياسة وفي المذهب ، وكان الشمال الأفريقي مسرح

(١) انظر في هذا : الإسلام في القرن العشرين ص / ٩٠ وما بعدها ط . دار الهلال .

نشاطهما طوال القرن التاسع عشر ، ثم كان الساحل الغربى فريسة أهون ، حيث كانت هناك إرساليات أخرى عديدة ، وانخلت مصر قاعدة هامة لهذا الغرض وفى سنة ١٨٥٨ - وقبل أن تتسحب البعثات الانجليزية - ومع شعورها بقلق الفشل ، وقادت بعثة فحمت باباً جديداً للنشاط التبشيرى والسياسى ، إذ عملت على الاتصال بمثقفى القبط لاستئانهم إلى المبادئ التى جاءت لها اخواتها ، ولكن عملهم كان أيضاً غير مقبول وقوبل بكثير من الصلود ، ولم تزد البعثة على أن أنشأت كنيسة تنافس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وباعت بما باعت به اخواتها من قبل ، وغرست بذور تفرقة بين الكنائس .

وهذا كله يرينا مدى ما بذل التبشير من جهود بدءاً من القرن التاسع عشر ، وكانت الإرساليات التبشيرية منذ زمن بعيد قد ولت وجهها شطر جهات أخرى يأساً من اجتذاب أحد من فى بلاد الإسلام إلى النصرانية .

(٣) دور الأزهر الشريف فى هذا العهد :

بينما كانت حملات الاستكشاف البحرية تمتد تدريجياً حول الساحل الإفريقى وتؤسس مراكز تبشيرية ، وتعمل جهدها لجذب الوثنيين إلى المسيحية كان هناك تيار إسلامى يتمشى ببطء وفى صمت خلال القارة ، فقد كان ثم قوم عرفوا الإسلام عن طريق الدعوات التى أشرنا إليها من قبل ، وكانت مصر يحكم وضعها الجغرافى مركزاً تجارياً رائجاً لعدد من الأقاليم الأفريقية ، خصوصاً أعلى النيل وغرب السودان ، وكانت قوافلهم البرية تصل إلى صعيد مصر ، ثم تحمل السفن المصرية بضائعهم إلى حلوان والقاهرة ، وكانت إسنا وقوص وقط و أسيوط محطات معروفة تتلقى القوافل الوافدة ، ومنها تقوم رحلات أخرى إلى البحر الأحمر ثم تعبر إلى أراضي الحجاز لأداء فريضة الحج .

وبينما كانت القاهرة تنفس من بداية شهر رمضان بالفود الآتية من شمال أفريقية ليقموا بها هذا الشهر المبارك ، وربما جاءوا من قبله ، كما يقضون شهر

شوال أيضاً قبل أن يحجروا لأداء الحج ، كانت مدن الصعيد تعمر بالواقدين من قلب القارة وساحلها الغربى ، وكانت هذه المدن الصعيدية مراكز علم إسلامية ، ولازلنا نعتد على تراث أئمتها أمثال الإسئوى والقفطى والقوصى : والراغبون فى مزيد من العلم يأتون إلى الأزهر فيقيمون به السنين وكانت به أروقة بأسماء بلادهم .

ولعل بنى التكرور Ticror - كانوا من أكثر الإفريقين بذل جهد فى تحصيل علوم الإسلام ، وهم أيضاً أكثرهم إذاعة له فى بلادهم وبين الإفريقين المجاورين ، ونشاط هؤلاء وعلمهم أسبق من نشاط الأوروبيين الكشفي والتبشيري .

واقليم التكرور يقع إلى الجنوب الغربى من السودان على جانبى نهر السنغال وحوله ، اعتنق أهله الإسلام فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، ولصعوبة اتصالهم بشمال القارة الافريقية عن طريق المحيط ، اتصلوا بمصر بواسطة القوافل البرية ، وعادت عليهم هذه الصلة برواج تجارى ، وهى أيضاً أيسر طريق لهم يؤدون منه الحج ، وبدت منهم رغبة قوية فى تعلم الإسلام ، وكانت لهم مدرسة كبيرة يتلقى فيها أبناؤهم المعلومات الأولية التى تؤهلهم لدخول الأزهر ، كانوا يتعلمون فيها القراءة والكتابة والمعلومات الدينية الأساسية ويحفظون القرآن^(١) وربما قضى الواحد منهم عشرين عاماً أو أكثر فى مصر ، وكان من أبناء التكرور تجار مقيمون بالقاهرة إلى آماذ قد تطول وقد تستمر ، وكان للتكروريين رواق خاص بهم فى الأزهر له أوقاف ينفق منها عليهم ، وكانت كثرتهم فى سكان « بولاق الدكرور » وكانت قرية صغيرة تسمى « منية بولاق » فلما كثروا بها سميت بولاق التكرور ، وحرفها العامة فجعلوا تاءها دالا .

وكان بالأزهر أيضاً سودانيون من « دارفور » - نقلوا الإسلام إلى بلادهم

(١) يقول المقرئى فى خطه جـ ٢٢٦/٢ أنها كانت تسمى مدرسة بن رشيق .

وكانت في القرن الثامن عشر بلاداً ساذجة بها وثنية أو وثنيات وتشيع في أهلها عادات كثيرة سيئة ، ويرتكب الكثيرون منهم موبقات قبيحة ، وربما لا يعرفون أن الإسلام يحرمها ، وقد سجل الشيخ اليوسى في رحلة إلى دارفور مساوئ كثيرة من أعمالهم ، ومنها يتضح أن جهاد الأزهرين الذين ينهون تعليمهم في الأزهر ويعودون إلى بلادهم كان جهاداً مضاعفاً ، بعضه موجه إلى العقيدة وبعضه موجه إلى الأخلاق والعادات .

ومد الأزهر أيضاً معاهد السودان الشمالى بخريجيه ومناهجه ، وهذه المعاهد لم تكن تعدو المرحلة المتوسطة ، والابتدائية التى تتمثل في الكتاتيب وفيها كان التلاميذ يتلقون مبادئ الإسلام ، وينشأون عليه ، فيحد ذلك من سلطان التبشير عليهم ، وإلى معاهد السودان كان يفد أفراد من السودان الغربى ومن النيجر وفولتا العليا ، وما حول ذلك ، وكان هذا نشاطاً إسلامياً له أثر ما في التعريف بالإسلام ويرجع كله أساساً إلى الأزهر .

ثانياً : في غرب أفريقية

السياسة والتبشير :

كانت حركة الكشف وتكوين السيادة الأوروبية ، يمشيان جنباً إلى جنب مع حركات التبشير أيضاً ، وكان من سياسة بريطانيا أن أبدت تراخياً شديداً في ضم أراضي جديدة لها ، لأنها لم تشأ أن تتحمل مسؤوليات جديدة ، فقط - تحت ضغط الأحداث سنة ١٩٠٠ أعلنت أن نيجيريا جزء من المملكة المتحدة ولم تضم البرتغال وأسبانيا شيئاً - حتى القرن التاسع عشر - زيادة عما كان لها من قبل ، أما فرنسا فإنها خلال ثورتها وعصر نابليون كانت مندفعة بعامل الرغبة في الظهور بمظاهر العظمة ، إلى توسيع مستعمراتها وأن تمتلك كل ما تستطيع تملكه ، فاستعمرت جزءاً كبيراً من غرب أفريقية كان يسمى السودان الفرنسي ، وتقسم بعد الحرب الثانية إلى عدد من الدول ، وأخذت ألمانيا أيضاً حظاً من هذا الحطام . وعملت كل دولة على بعث إرساليات تبشيرية تتبع مذهبها فكانت الإرساليات البروتستانتية ذات الغلبة ، ولكنها تبعاً للدول التي تنتمي إليها مختلفة في فروعها لأن المذهب ذو فروع عديدة .

ولم يكن الموقف يبشر بنجاح في نشر المسيحية بين الأفريقيين ، وقد أنفقت هذه الإرساليات جزءاً كبيراً من نشاطها في حرب بعضها بعضاً ، ثم لم تستطع واحدة منها أن تتوغل في جوف القارة ، وهكذا نجد أن عصر الكشوفات لم يزد على أن كون مستعمرات وشبه مستعمرات على امتداد الساحل ، ولم تكن الصلات بينها قائمة ولا سهلة ، وبهذا كانت أعمال التجارة أوسع مجالاً من أعمال التبشير .

وحتى منتصف القرن التاسع عشر كانت أفريقية لا تزال قارة مجهولة لدى الأوروبيين ، وكانت الحواجز الطبيعية من حرارة الجو والأدغال والجبال مما لم يستطع أحد اقتحامه حتى هذا الوقت ولكن المبشرين كانوا شديدي التطلع إلى مد نشاطهم في داخل القارة .

وعلى الساحل كانت مرتفعات سيراليون التي تبلغ ٢,٧٠٠ قى . تحدث عقبة فى اطراد الاستعمار والتبشير على طول الخط الساحلى المنخفض ، وظل السكان فى أعلى الهضبة بعيدين عن هؤلاء المرسلين ، وعملت بعض الإرساليات على الاتصال هؤلاء الزوج ، وكونت مستعمرة صغيرة هناك ، وأعلنت فى سنة ١٨٤٨م أنه ضمت نحو ٥٠,٠٠٠ شخص إليها ، وكان معظمهم من العبيد الفارين من غارات النهابين ، فوجد أنهم يستعملون أكثر من ١١٧ لغة مختلفة ، وأنهم على حظ كبير من الغباء والتأخر ، وتشيع بينهم أنواع من الخرافات والوثنيات^(١) واعتبرت الإرسالية فاشلة لأن هذا العدد لم يكن ملائماً للجهود التى بذلت والزمن الطويل الذى مضى على البعثة ، ولكن توالى البعثات من جهات عدة ، وكانت جمعية التبشير المسيحى فى ألمانيا قد أوفدت إرسالية فى سنة ١٩٠٤ فأقامت بين قبائل « السوسو » مدة من الزمن ثم رأت أن تصعد إلى مقر المستعمرة ، وربما كان التنافس هو الباعث لها .

وفى سنة ١٨١١م وصلت إرسالية من جماعة «الميثوديزم» إلى هذه المستعمرة ، وربما كان حظها أوفر من غيرها ، ولكن الإرساليات كلها لم تحقق الحظ الذى كانت ترجوه بل ولا قريباً مما كانت ترجوه ، وقوبلت كلها بنفور شديد وعداء ، وكان الزوج إذ ظفروا بواحد منهم على انفراد قتلوه ، وفقدت جمعية التبشير خمسين شخصاً من مبشريها فى مدة تبلغ نحو العشرين عاماً ، وكانت تستبدل من يقتل من الرجال أو النساء بشخص آخر ، ولكن سكان المستعمرة كانوا ألين جانباً وأقل خطراً من غيرهم وإن لم يكونوا مسالمين ، واعتبرت القرية مسيحية مع بقاء الوثنيات بين الكثيرين .

وظلت خدمات الجمعية تمتد على طول الساحل ، وعملت على بث اللغة الإنجليزية ، ورفع مستوى الإفريقيين الذين يدخلون المسيحية إلى رتب لاهوتية

(١) ذكر المرحوم جورج زيلان فى كتيب له سماه . «طبقات الأمم» .. أنواعاً عديدة من هذه العقائد كما ألم بوصف موجز لحياة هذه الجماعات .

بقدر ما يتيسر لهم من درس الكتاب المقدس ، ثم أنشأت كلية للتعليم العالي سميتها
كلية « فوراباي » ثم ألحقت بعد ذلك بجامعة « دورهام » وإلى هذه الكلية يرجع
الفضل في نشر اللغة الانجليزية في غرب أفريقية ، وكان أبناء نيجيريا يكتبون
لغتهم بالحروف العربية ، فتركوها واستعملوا الحروف اللاتينية ، وخسرت
العربية والإسلام من هذا كثيراً لأن الحروف العربية كانت تسهل قراءة القرآن
وتقرب القراءة العربية .

وفي سنة ١٨٥١م رأت الجامعة الانجليكانية في غرب جبال الأنديز أن
ترسل من قبلها جماعة من السود الذين يكثرون هناك لتبشير زملائهم السود في
أفريقية الغربية ، ولكن لا المرسلون وجدوا راحة واطمئناناً في أفريقيا
ولا الأفريقيون أقبلوا عليهم أكثر مما أقبلوا على غيرهم ، وكان الأوروبيون
يتذرعون دائماً بأنهم بحاريون تجارة الرقيق ، وقد أدخلوا بهذا كثيراً من
الطمأنينة على الأفريقيين ، ولكنهم لم ينجحوا في جذبهم إلى المسيحية بالقدر
الذي كان يرجى ، ولا بما يعادل شيئاً ذا بال من النفقات التي أنفقوها . ومن
المصادقات العجيبة أنه في خلال هذا القرن - التاسع عشر - برز منافس خطير
وهو الإسلام ، لأنه كان قد استقر في بلاد المانجو - جنوب سيراليون - منذ
القرن الثامن عشر ، ولم يكن المبشرون يحسبون لجماعته حساباً ، فإذا هم
يصطدمون بهم في هذا الوقت .

وفي سنة ١٨٢٨م وصلت إلى هذا الساحل إرسالية من « بازل » ، جاءت
مع حملة تجارية من الدانمرك ، فأمضت نحو اثني عشر عاماً لم تستطع خلالها أن
تقوم بأي عمل إيجابي لتقدم الدعوة المسيحية ولم تكتسب أنصاراً ، وفقدت
ثمانية من أعضائها ماتوا هناك ، ولكن هذا الفشل حولها إلى مافعلت إرساليات
الهند من قبل ، وهو درس اللغات والأفكار الأفريقية ، وأن تعمل على تقديم
ماديات تستهوى السكان ، وكان مما قدمته زراعة الكاكو ، وتبين أن منطقة
ساحل الذهب (غانا الآن) من أصلح البقاع لهذه الزراعة فما وافقت نهاية
القرن حتى كانت أكبر وأشهر منتج للكاكو . وكان الإقليم في هذا الوقت

متخلفاً فقيراً لا تحكمه حكومة واحدة ، ولكنه بخضوعه للاستعمار الإنجليزي سادته شعور الوحدة من أجل المقاومة ، واستفاد من زراعة الكاكاو شيئاً من الثراء مع أن معظم الثروة أو كلها إلا قليلاً كان للمستعمر الأوروبي ، وبعد أن استقلت غانا أصبحت تتميز بثرائها من زراعة الكاكاو ، وأيضاً سادت فيها الديانة المسيحية ، وعلى الأخص المذهب الأنجليكاني ، ويعزى الفضل في تثبيته هناك إلى المبشر «توما بيرتش فريمان» Thoma Berch Freeman وهو أفريقيي الوالد الإنجليزي الأم ، ولد وتعلم في إنجلترا - ومات أبوه هناك ، وانضم هو إلى جماعة الميثوديزم ، ولما رجع إلى أفريقية كانت الألفة بينه وبين الأفريقيين سهلة ، وربما لأصله الأفريقي كان يحترم تقاليدهم ، وأنس إليه رؤساؤهم فأولوه ثقته ، ثم أقبلوا على المسيحية ، ومكث عشرة أعوام (١٨٣٤ - ٤٤) كسبت الكنيسة لخلالها عدداً كبيراً من المنتصرين .

وننتقل إلى نيجيريا التي ضمتها إنجلترا إلى التاج البريطاني بدءاً من سنة ١٨٥١ إذ وضعت يدها على مدينة لاجوس ، فمكنت لكنيستها أن تقوم بنشاط واسع لم تكن سبله ميسرة لها من قبل .

ودخول المسيحية إلى نيجيريا جاء عن طريق سيراليون فحين محاربة الرق وإعلان تجريمه كان في سيراليون أعداد من المنهويين من نيجيريا وما حولها ، فلما حرروا رجعوا إلى موطنهم الأصلي في غرب أفريقية ، وظلوا على صلة بالإرساليات التي في سيراليون من الإنجليكان والميثوديزم .

وفي سنة ١٨٤٤ دخلت هذه البلاد بعثة كان فيها صمويل كروذر S. Crother وهو أفريقي كان قد نهب صبيّاً ، وتعلم في إنجلترا وعمد ، وقادته المصادفة إلى أن يتعرف على أمه وأخته فاقنعتا بدعوته وعمدتا ، واستطاع كروذر أن يترجم صيغ التعميد إلى اللغة اليوربية - لغة شعب اليوربا Yoruba وإلى هذا القسيس يرجع الفضل الأكبر في تنصير هذا الشعب ، ولكنه مات بعد ذلك بقليل ، وأبدى الرؤساء مقاومة للدعوة ، ولكن الكنيسة تأسست وظلت تواصل أعمالها ، وسرعان ما جاء إلى البقعة توما فريمان يقود إرسالية من الميثوديزم ليغذي الدعوة بمزيد من النشاط .

ومنذ ذلك الوقت أخذت حملات الاستكشاف تتجه إلى جوف القارة مع
الأنهار .

وفي سنة ١٩٠٠م قامت الحكومة البريطانية بتقسيم نيجيريا وتنظيمها ، إذ
وجدت أن مساحة هذا القطر تعادل مساحة بريطانيا أربع مرات ، وأنها أكثر
وأكبر الأمم الأفريقية ، ووجدت أن الإسلام قد استقر في شمال الإقليم وأن
حركة التبشير فيه تثير قلقا وتسبب لها متاعب ، فعملت على حث النشاط
التبشيري هناك ، ولكنها إذ حولت المدارس في الدولة كلها إلى نظام انجليزي
حدث من تيار الدعوة الإسلامية ، وقللت من الإلمام بمعركة الإسلام وعلوم
القرآن ، ولم ينشأ فرض اللغة الانجليزية وحدة ما بين القبائل العديدة التي تتكلم
لغات لا تخصي عدا ، ولا تزال كذلك حتى الآن ، هذا لأن اللغة الانجليزية عرفها
المثعلمون وموظفوا الحكومة ، وهؤلاء لا يمثلون إلا قلة ضئيلة من الأهليين .

وفتح مسلمو نيجيريا مدارس لهم علموا فيها الإسلام واللغة العربية ، ثم
فتحت جامعة أحمدو بيللو ، ووفد على الأزهر طلاب ينشدون تعليماً إسلامياً
كما أرسلت بعوث من الأزهر ومن الحكومة السعودية للتدريس في المساجد
والمدارس ، ويعمل المسلمون الذين في الشمال على مد الدعوة جنوباً وغرباً ،
فلا تخلو مدينة من مساجد ومسلمين وهناك قلة تفهم اللغة العربية ، ولكن اللغة
والفكرة الإسلامية جميعاً في حالة ضعف . ويوجد بين قبائل اليوربا ، وعلى
امتداد نهر النيجر مدن إسلامية ، وهؤلاء يغرون الكثيرين بالانتماء إليهم ، ونحو
الإسلام والمسيحية معاً بطيء ولا تزال الوثنية في داخل البلاد وأعلى الأنهار
متفشية ، وجهود المبشرين المادية قوية ، ومغرياتهم على الإسلام كثيرة ،
والمعركة هي التي وصفنا من قبل .

ثالثاً : في جنوب أفريقية

١ - تمهيد :

تمثل منطقة الكاب الآن حركة من حركات الصراع العنيف بين البيض والسود ، وبين الإسلام والمسيحية ، وبين المسلمين العزل وحكومة البلاد ، وقد ذهب قواد من المسلمين شهداء الدعوة الإسلامية ، منهم من أكلت السجون أجسامهم ، ومنهم من أعدم ، ولا تهاون الحكومة هناك مع دعاة الإسلام ، ولا تسمح بوفود دعاة إسلاميين ، ويشدد النزاع أكثر في «جوهانسبرج» ، ومنذ قليل (١١ يونية ١٩٨٣) أعدمت الحكومة البيضاء ثلاثة من المسلمين الوطنيين ، رغم النداءات الكثيرة المسترحة لهم من شتى الدول ، وليست جريمتهم الكبرى أنهم وطنيون ولكنها أنهم مسلمون .

وفي الحديث عن جنوب أفريقية عامة نرجع إلى منطقة الكاب ، لأن مدينة الكاب من أول ما أنشأ الأوروبيون هناك .

٢ - محنة الإسلام في جنوب أفريقية :

كنا نود لحكومة جنوب أفريقية - وهي حكومة انجليزية العنصر - أن ترعى شيئاً من ديمقراطية الانجليز وتمنح رعاياها حرية دينية ، ولكنها - وأسفاه - تمارس اضطهاداً مخزياً ، وعلى مانحن عليه في عرض مواقف التبشير والإسلام نعرض شيئاً من تاريخ الإقليم وكيف دخلته كل من الديانتين ثم تنتهي إلى الموقف الحالي .

٣ - طبيعة الكشف البحري :

في بداية حركة الكشف البحرية التي نشطت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر اتجه الأسبان إلى الشرق بعد رحلة كولومب الأولى ، واتجه البرتغاليون جنوباً بموازاة الساحل الأفريقي ، وكان التنافس بين الدولتين كبيراً ، ثم مالبت الدول الأخرى أن دخلت هذا الميدان

وكانت حملات الكشف كما قدمنا تصطبج معها القسس المبشرين لتعليم المسيحية ، وقد كانت أسباب هذه الرحلات الكشفية متعددة متشابكة ، وكان الغرض الديني بارزاً واضحاً فيها ، ولهذا منح البابوات الدول المستكشفة حق التملك والاستيلاء على الأراضي التي يصلون إليها^(١) ومن الأغراض الدينية الهامة في هذه الرحلات محاصرة المسلمين - خصوصاً في الهند - والقضاء على المسلمين هناك وحيث تصادف أن كانت رحلة كولومب قد بدأت في العام الذي طرد فيه بنو الأحمر - آخر حكام المسلمين من أسبانيا ، ثم تلا ذلك تعقب المسلمين الباقين بالطرد والقتل - كان لدى البابوات ورجال الدين آمال كبيرة في القضاء على الإسلام في البقاع الأخرى ، وأن تحقق هذه الحملات ما عجزت عنه الحروب الصليبية وجاء في بعض المراسيم البابوية أن الإسلام طاعون يجب أن يحمى الناس منه ، كذلك وعد البابوات رجال الرحلات البحرية بغفران ذنوبهم ونجاتهم من النار في الدار الآخرة وفوزهم بدخول الجنة.

وهناك خطة تعرف بخطة الهند ، وهي خطة وضعها البابا نيقولا الخامس كان يهدف من ورائها إلى استئصال الإسلام والقضاء عليه قضاء مبرماً ، لا تبقى له بعده باقية ، وتقوم هذه الخطة كما رسمها على إعداد حملة تشترك فيها أوروبا الكاثوليكية كلها ، وأن يدعى الملوك المسيحيون في آسيا وأفريقية للمشاركة فيها بالمال والعتاد والرجال ، وبها يطوق العالم الإسلامي من كل جوانبه ثم يضرب الضربة المميتة القاضية ، وأرسلت هذه الخطة سنة ١٤٥٤م إلى كل من أسبانيا والبرتغال .

وكان هناك أيضاً رحلات برية إلى جوف القارة الآسيوية وأطرافها الشرقية والجنوبية ، عن طريق آسيا الصغرى والخليج الفارسي ، وقد أمدت

(١) أصدر نيقولا الخامس أول هذه المراسيم سنة ١٤٥٥م ، وهي آخر سنوات في منصبه ، وتلاه البابا كليمنت الثالث فأصدر سنة ١٤٥٦م مرسوماً مماثلاً أكد به وعود سلفه ، ثم جاء البابا الكسندر السادس ، فأصدر ثلاثة مراسيم - مع فيها أكثر فأعطى المستكشفين حق تملك ما كشفوا وما سيكشفون وانظر أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ١٦٢

الأوروبيين بمعلومات ناقصة ، وبلرت بلوراً مسيحية في تلك الجهات ، وفي هذا الصدد لاتنسى رحلات ماركوپولو^(١) .

٤ - كشف منطقة الكاب :

كان البرتغاليون أول من وصل إلى هذه المنطقة سنة ١٤٨٨ ، وانتقلت منهم إلى الهولانديين سنة ١٦٥٢ ثم انتزعتها بريطانيا أثناء حروب نابليون ، ثم ردت إلى الهولانديين بضعة أعوام واسترجعها الانجليز فظلت تحت أيديهم ، وهي لاتزال تحتفظ بمنطقة رأس الرجاء الصالح ، وبعد أن وصل فاسكودى جاما إلى الهند ظهر لهذه المنطقة أهمية أكبر .

كانت رأس الرجاء الصالح تحت يد الهولانديين من سنة ١٦٥٢ حتى سنة ١٧٩٥ ، واستولى عليها الانجليز ثلاثة أعوام ورددت هولاندا سنة ١٨٠٢ ، ثم استرجعوها ، وأسس الهولانديون في المكان الذى به الآن مدينة الكاب - محطة لأسطوطهم ، فتمت هذه المحطة بسرعة عجيبة إذ وفد عليها العمال والزراع والباعة .. واستوطنوا الجهات التى حولها ، وقُتِرَ عددهم أواخر القرن

(١) ماركوپولو ليطالى من البندقية ، وفي سنة ١٢٩٨ كان أسيراً في جنوه عقب معركة بحرية هزمت فيها فينسيا (البندقية) - وفي مسجته كتب رحلاته التى تصور أحداثاً تاريخية ، وفقاً أدبياً رائعاً وعنّى بها المؤرخون والأدباء والسياسيون ، ولكنها أدبية أكثر منها تاريخية .

كان أبوه وعمه تاجرين في القسطنطينية ، وذهب لمقابلة قوبلاى خيد جنكيز خان مع اثنين من اللومنيكان لدعوته للمسيحية سنة ١٢٦٠ وأعجب بهم وطلب ١٠٠ معلم وعالم ، ولما عادوا إلى روما لم تكن الظروف ملائمة لإرسال معلمين ، وبعد عامين قاموا برحلة ثانية مع اثنين من اللومنيكان ، فشقت عليهما الرحلة فرجما ، واستمر التجار معهم ماركو ، وكان شاباً ، فأعجب به الملك المغولى ، وولاه بعض المناصب الكبيرة في النوبة وأرسله إلى الصين ، وبقي القوم هناك ، نحو ٢٥ عاماً ولم يسمح لهم السلطان بالعودة ، وفي رحلة لهم إلى فارس كان أرجون أخو قوبلاى قد فقد زوجته المقولة ، وطلب الزواج من مغولية أخرى ، وأرسل ماركو وقومه لإحضارها ، لعلمهم بالطرق وخبرتهم بالسفر وحين عادوا بها كان أرجون قد مات ، فتزوجها ابنه ، ثم عاد آل بولو بعد نحو ٣٢ سنة . كانت رحلات بولو بما أمد بمعلومات واسعة لأنه طاف ببلاد واسعة ، وكانت مما أوحى بالرحلات البحرية وكشف أمريكا - انظر في Wells - خلاصة أوسع وانظر أوروبا في مطلع العصور الحديثة (١) ص ١٠٠ .

الثامن عشر بنحو ٢١,٠٠٠ وامتازت هذه البقعة عن أقاليم غرب أفريقية بملاءمة جوها لإقامة البيض الأوروبيين فوفلوا عليها واستقر بها كثرة منهم ، مما نشأ عنه فيما بعد هذا النزاع - الذى سنعرضه - على سيادة الإقليم بين البيض والسود ، والواقع أن بذور التفرقة بين النوعين كانت قائمة منذ اللحظة الأولى ، وكانت سياسة الهولانديين توسع الفجوة بينهما ، فالسود يرون أنهم أصحاب الأرض من قديم والهولانديون يرون أنهم امتلكوا الأرض وسكانها ، وأنهم هم السادة وعلى السود أن يطيعوهم ، وكان هذا الموقف مما نفر السود من كل شيء لدى البيض ، ونفروا أيضاً من الدين الذى يدعوهم إليه المبشرون ، على أن الهولانديين وقد لج بهم التعالى - كانوا يرون أن السود ليسوا أهلاً أن يعملوا وأن يكونوا من أتباع المسيح ، ولم يسمحوا لهم بدخول الكنائس ، فكانوا هم أنفسهم من العوائق فى نشر المسيحية وفى نشاط التبشير .

وفى سنة ١٧٣٧ وصلت البلاد إرسالية من المورويين Moravian وكان على رأسها جورج سكميدت G. Schmidt ، ولكنها لم تعمر بل لم تستقر إذ عجل الهولانديون بطردها سنة ١٧٤٤م وفى سنة ١٧٩٢ عادت ثانياً وأسست لها مقراً ، وأسعدها كثيراً وأبهجها أن وجدت بين نساء الهوتنتوت سيدة باقية على مسيحيتها منذ البعثة الأولى - أى منذ مدة تزيد على نصف قرن من الزمان ، كما وجئوا لديها نسخة من العهد الجديد .

وفى سنة ١٧٩٥ خلال الحروب النابليونية استولى الانجليز على المدينة وظلت تحت أيديهم حتى سنة ١٩٦٠ ، إذ جعلت مستعمرة مستقلة ذات حكومة ، ولكنها حكومة انجليزية ، وخلال هذا العهد عمل الانجليز على بث المذهب الانجليكانى وثبتت إرساليته وكنائسه فى أرجاء المستعمرة ، وبدا الفرق الواسع بين سياسة الانجليز وسياسة الهولانديين ، فالانجليز لا يفرضون سلطانهم ، ولا يشعرون الأهلىن بذلة التبعية ، ولكن يعلنون أنهم يخدمون البلاد ويعملون على ترقيتها ، وبدا أقبل القوم على الإرساليات وتقبلوا دعوة المبشرين .

وفى العام الذى استولت فيه بريطانيا على مستعمرة الكاب نشأت جمعية

إرسالية لندن ، وبدأت أعمالها بإرسال بعثة إلى المنطقة ، وكانت بعثة هولندية ، إذ كان رئيسها عالماً هولاندياً من علماء الطبيعة هو جون تيودور فاندركمب John Theodor Vander Kemp^(١) . وكان معه رفاق ثلاثة ، وقد بذلوا جميعاً جهوداً مضنية بسبب اختلافات اللغات في المنطقة ، وبسبب الرواسب المتخلفة من العهد الهولاندي ، ومن أعمالهم وسياستهم هناك أن كمب تزوج من إحدى الزنجيات وتبعه بعض رفاقه ، فأحدث هذا نوعاً من الألفة بينهم وبين السود ، لكن البيض المقيمين هناك نفروا من هذا المسلك وأبغضوا البعثة . ومات كمب سنة ١٨١١ ، وفي سنة ١٨٢٠ وفدت بعثة أخرى مع جون فيليب .

وأشهر وأمهر المبشرين في هذه البقعة على الإطلاق هو دافيد ليفنجستون وهو اسكوتلاندي من أسرة قوية ميسورة ، وصل أفريقية سنة ١٨٤١ ، وأمضى عشرة أعوام في طريقة التبشير التقليدية ولكن حماسه وإخلاصه البالغ وحرصه على نشر المسيحية في كل مكان حدث به إلى رحلة خطيرة سجلت اسمه بين الرحالة والمستكشفين وبها اخترق القارة الإفريقية من ساحلها الغربي عند أنجولا إلى ساحلها الشرقي عند كوبايان ، وهو أول من فعل ذلك ، ودون مخاطراته في مذكرات بالغة الروعة والأهمية^(٢) .

٥ - سكان المنطقة :

كان سكان منطقة الكاب عندما وفد عليها الهولنديون من الزنوج البدائيين السذج ، وكانت لهم ديانات قوامها الطوطميات وعبادة الأسلاف وبعض الحيوانات وكانوا جماعات وقبائل أشهرها ثلاثة أسناخ متباعدة ، وهم :

(١) نشأ كمب في بيت ديني ، إذ كان أبوه من القسيس ، ولكنه أبغض طريفته في الحياة والدين فقر منه ، ودرس الطب ومارس مهته نحو عشرة أعوام ، وفي سن الخمسين أصيب بكارثة إذ غرقت زوجته وبته وهما في قارب لانهجرة : خسر هذا الحادث حياته فالتج به إلى جماعة لندن التبشيرية ، فأرسل إلى مدينة الكاب سنة ١٧٩٩ ، أي بعد إنشاء الجماعة بنحو أربعة أعوام وبقي فيها حتى مات سنة ١٨١١ .

(٢) ستأني ترجمته .

١ - البوشمان ، وهم أقزام رحل يتنقلون فيما حولهم من الأرض حسب فصول العام ، وحاجاتهم المعيشية ، وأمام الزحف الأوروبي وإنشاء المستعمرات الحديثة تباعدوا إلى الداخل أو فروا ، إذ لم يجدوا لديهم طاقة لمواجهة البيض .

٢ - قبائل الهوتنتوت ، وهم أرق من السابقين معيشة ، وأقرب إلى البيض ، ولهم استقرار ، ولما جاورهم البيض اتصلوا بهم ولم ينفروا منهم ، بل تزوجوا ونشأ منهم نسل جديد حتى زالت القبائل الآن نهائياً .

٣ - الكوزا - Xhosa - وهم ذوو استقرار أيضاً ، وكانوا وثنيين وأكثرهم من قبائل البانتو ، ويسمون أيضاً الكفار ، وهم وثنيون ، وقد جاءتهم هذه التسمية من التجار المسلمين الذين سبقوا إلى هذه البقاع في القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، وهم قبائل محاربة ، ولهم أجسام ضخمة ، ووقع الخلاف بينهم وبين البيض فصمدوا لهم ولم ينفروا كالبوشمان ، وهم أوسع انتشاراً من الآخرين .

ويوجد الآن عدد منهم في منطقة الكاب ، وبعض رحل إلى أماكن أخرى ، وهم يتركزون في منطقة الترانسفال ويبلغ عددهم أو يزيد قليلاً ، ويبلغ عدد المسلمين نحو خمسمائة شخص ، وهم جماعة شرسة مقاومة ، وقد بغضت الحروب المتطاولة بينهم وبين الأوروبيين دعوات المبشرين من أي فرقة كانوا ، وفي سنة ١٩٨٥ كانت بينهم وبين الانجليز معارك قتل الانجليز في إحداها أربعين شخصاً منهم ، وقد تكون هذه القبيلة أكثر القبائل الرنجية استجابة لدعوة الإسلام إذا وجدت مبشرين بالإسلام ذوى مقلرة .

وتقيم الحكومة الانجليزية جواسيس عليهم خشية أن يدبروا ثورات ، ولا يبعد أن تقيم عليهم جواسيس منهم ، ولكنهم إذا تشككوا في شخص قتلوه في الحال . وقابلت أحد المسلمين منهم في مدينة

« بورت اليزابث » ودعاني إلى زيارتهم، ولكن زيارة الزنوج لم تكن في جدول زياراتي ، وكان المسلم يعرغ اللغة العربية ، وقال إنه يدعو قومه للإسلام ويستحب الدنيا ، فأقنعني أن كان يدعوهم ، فقال إن وجوده معي ، أو ذهابي بدعوته وصحبته ينفي عني كل ريب .

وأنجح طريقة لنشر الإسلام بين هؤلاء هو تكوين دعاة منهم ، ومسلموا جنوب أفريقية - بوجه عام - يتمرقون شوقاً إلى رؤية الأزهر والدراسة فيه .

وقد تمشت فكرة المسيحية بين هاتين الطائفتين - المهورتوت والكوزا - إلى حد ما ، ولم تستطع الجماعات التبشيرية في أي عهد أن تحو ما بين البيض والسود من عدااء ، ولم يجرؤ أحد من البيض أن يطالب للسود بحقوق اجتماعية ولهذا كان زواج فاندس منهم أمراً شاذاً في نظر البيض .

٤ - قبائل الزولو :

وهي أكبر القبائل عدداً وأشدّها تماسكاً وأوفرها نظاماً . وهم يعيشون في منطقة خاصة بهم في مقاطعة ناتال ، ويبلغ عددهم ستة ملايين ، وللحكومة الانجليزية سياسة خاصة تجاههم .

لهذه الجماعة تاريخ يروى ، فهم لم يكونوا قبيلة واحدة من أصل واحد ، بل كانوا قبائل متفرقة دفع بهم ضغط البيض الأوروبيين إلى الداخل ، حتى ظهر بينهم رئيس أو ملك لفرع منهم هو الملك « دنجا » كان ذا شهامة ورأى ، فيدا له أن يجمع هذه الوحدات تحت اسم واحد وإمرة حاكم واحد ، - وهذا على نحو ما فعل قصي ابن حكيم - الجدد الرابع لرسول الله ﷺ - حين جمع قبائل قريش للعشر وسماها قريشا ، فكانوا أمة واحدة - كذلك جمع « دنجا » هذه الأشتات وسماها الزولو ، فاكسبت بهذا التجمع قوة وتماسكاً .

وقد حاربت هذه القبيلة الأنجليز في شجاعة وتضحية وحيل ، وظلت شوكة دامية في جانب الحاكم الانجليزي ، وبات الانجليز يخشون ثوراتهم وتمردهم ، وكان الطريق الوحيد لإلاتهم وتألفهم هو طريق التبشير ، ففتحت بينهم مدارس تبشيرية وبنيت مستشفيات ، ومنحت الأطعمة والأدوية بالمجان ، وبلغ ما أنفق في سبيل التبشير هناك نحو ثلاثين مليوناً من الدولارات ، وكانت طريقة ناجحة ، وكانت طريقة ناجحة ، فقد دخل كثيرون المسيحية ، ولكنها مسيحية باهتة قد تمتزج بدياناتهم الأولى ، والمبشرون يتقبلون هذا الوضع ، ويركزون على الأجيال القادمة ، فالنشاء الذي يدخل المدارس التبشيرية يتلقى فيها مسيحية يرضاها المبشرون ، ويمرور الزمن تثبت بينهم المسيحية .

وللزولو الآن حكومة منظمة خاصة ، وإن لم يمنع ذلك انطواءها تحت أمرة ونفوذ الحكومة العامة - حكومة جنوب إفريقية . لما ملك وزراء ، وملكها الآن يدعى كنج « جودو » وهو على حظ من الثقافة ، تعلم في مدارس التبشير الانجليكانية ، ويتسم بين شعبه بمظهر ديمقراطي ، فهو ملك لا يحكم ، ولكن يحكم رئيس وزرائه . وهو ابن عمه ، وله وزراء يختص كل واحد منهم بالنظر في أمر من الأمور ، والملك يحب المسلمين ، ويقول أنهم خير من الأوروبيين ، كما يحب - فيما قيل لي - أن يقرأ عن الإسلام^(١) .

وقد زار البابا جون المعاصر جنوب أفريقية أربع مرات ، وكانت زيارته ذات كبير في إنعاش المسيحية وتشجيع الدعوة لها .

ويأمل المسلمون أن يظفروا بزيارة شيخ الأزهر لهم ، ولعل الله أن يسر ذلك ، وهم يأملون أيضاً أن يكون في هذه الزيارة إنعاشاً للدعوة

(١) هذه معلومات نقلتها من أفواه الذين قابلتهم هناك ، - وحيث ن كنج « جودو » لا يعرف العربية فقراءاته عن الإسلام من كتب المستشرقين والمبشرين ، ولا تطمع عبة الإسلام أن يكون مسلماً في يوم ما .

الإسلامية ، وقضاء على الخلافات المذهبية الكثيرة بينهم - فهناك - من يتصلون للإمامة هنود وسعوديون وإفريقيون ولا يكتفى الداعية منهم أن يث مذهب ، بل بل يحكم بطلان عبادة الآخرين^(١) ، وزيارة شيخ الأزهر وإبداء رأيه في بعض المسائل الخلافية ، يحدث وحدة ما ، ويقلل الخلافات .

وأود أن يهيبء الأزهر لهم منحاً دراسية في مدينة البعث ، ويبحث إليهم معلمين .

هذه هي أشهر الجماعات هناك ، ولما دخل عليهم البيض الأوروبيون زادوهم طائفة ثالثة لها خصائصها ومميزاتها ، ثم وقد الهنود المالويون^(٢) ، فكونوا عنصراً جديداً ، يضاف لهؤلاء جميعاً عنصر مولد ، نشأ من تزواج بعض هذه الأجناس مع بعض ، فقد تزوج الهنود من الزنوج ومن الأوروبيات وكل أولئك اعتبروا أجناساً منحلة في نظر الأوروبيين .

وأصبح السكان الآن على أى حال مزيجاً من أجناس عديدة .

واللغة الرسمية هي اللغة الانجليزية ، وهي التي تدرس في المدارس ، وهناك لغات محلية يستعملها السود ، وهي مزيج من لغات شتى ويرز فيها كلمات كثيرة

(١) مما حدث لي هناك أنني دعيت للصلاة والحديث في «مسجد الجمعة» - وهو الجامع الكبير في مدينة «دربن*» وهو أكبر مسجد في جنوب أفريقية ، يسع خمسة آلاف مصلي ، ويكثف بالمصلين يوم الجمعة ، وهو مكون من ثلاثة طوابق ، وبه قسم خاص للسيدات ، وعلى حلف من النظافة والأناقة . استقبلني الإمام والمؤذن - وهما هندية - استقبالا شاكراً ، وعند وقت الأذان لصلاة المغرب لم أجدهما ، وفي اليوم التالي علمت أن الإمام أفتى بطلان صلاتي وأمر الذين اقتدوا أن يقضوا صلاتهم ، وسبب ذلك أنني لا أصل لحتى بقدر قبضة اليد . وأشعر لي هذا بفقر الدعوة والحاجة إلى معلمين . كان هناك خلاف حاد حول رؤية هلال رمضان وذى الحجة ، وزاد القوم بلبلة أن مصر لم تأخذ برؤية السعودية هلال شوال ، مصامت حين أظفر السعوديون ، ثم أخذ برؤيتها هلال ذى الحجة ، وقرأت على مجلس الأئمة فتوى شيخ الأزهر وفيها جواز أخذ البلاد التي تشترك مع السعودية في ليلة الرؤية . وهي تشمل جنوب أفريقية ، فسروا بها ، وصمموا على اتباعها في المستقبل .

من العربية والانجليزية والملايوية والهولندية ، وتسود الآن اللغة الانجليزية الإقليم كله ، واستعمل الهولنديون نوعاً من الغطرسة التي تصر على سيادة الأوروى وطاعة الأفريقى ، مما نفر الأهلين وبغضهم فى دعاة المسيحية ، وكان هناك نوع من الإقبال على الإسلام .

وفى سنة ١٧٩٥م استولت بريطانيا على المستعمرة نتيجة لحروبها مع نابليون ، ولكن هولاندا استردتها ثانياً بعد مدة قصيرة سنة ١٨٠٢ ، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى وضعت بريطانيا يدها عليها من جديد ، ودخلت فى ممتلكات التاج البريطانى (الكومون ويلث) حتى سنة ١٩٦٠ ، ثم أصبحت جمهورية بيضاء فى القارة السوداء .

تنافس الدعوتين :

خلال الحكم الانجليزى فتح الباب للإرساليات جميعاً ، ولم تكن الكنيسة الانجليزية وحدها هى التى تقوم بنشاط التبشير ، ولكن جماعة «إرسالية لندن» كانت رائدة الإرساليات وكونت لها مركزاً هناك^(١) وبذلت الإرساليات كلها جهداً فى تنصيب لاهوتيين وقس من أبناء الإقليم ، ولكن كسبها كان قليلاً جداً ، وكان الذين يدخلون الإسلام بدون إغراءات أكثر من الذين يدخلون المسيحية بشتى المفريات .

وجاء فى تقرير السياسى الانجليزى كولبروك سنة ١٨١٩ ، أن الإسلام يتقدم بين العبيد والسود والأحرار من أهالى الكاب .. والذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام أكثر من الذين تحولوا إلى المسيحية هذا على الرغم من الجهود القوية التى يبذلها المبشرون الأتقياء^(٢) .

وكان الحجاج الذين يعودون من الأراضى الحجازية يعودون بأفكار وحماس دينى وكان بعض الدعاة الإسلاميين يذهبون لمساعدة إخوانهم ، ولكن الموقف الآن يختلف كثيراً ، والتضييق على المسلمين فى جنوب أفريقية كلها لم ينقطع بعد . وفى سنة ١٩٦٧ مات الزعيم الإسلامى - الشيخ عبد الله هرون - فى سجنه بعد أن طالت إقامته فيه - وكان زميله - الحاج عمر حسين - قد اضطُر أن يهاجر بأسرته إلى لندن ، وقد صليت الجمعة - فى المسجد الذى كان يصلى

(١) أنشئت هذه الجماعة سنة ١٧٩٥ نفس العام الذى استولت فيه بريطانيا على المدينة .

(٢) الدعوة إلى الإسلام ٣٨٧ - ٣٨٩ .

فيه الحاج عمر في «بورت اليزابث» ورأيت القضاء الذي حوّلته
المسلمين من حوله وهدم ديارهم - وعلمت أن الحكومة دفعت لهم ثمناً زهيداً
للبوت التي هدمت .

ورغم السيطرة الانجليزية، وقسوة الحكام على المسلمين، وكثرة الكنائس
لا تزال جنوة الدعوة الإسلامية حية، وهناك لغة عربية بين المسلمين بقدر ما .

والحكومة البريطانية تعنى بتشجيع كنائسها ، ولكنها لا تحارب الكنائس
والإرساليات الأخرى ، ويبدو أن تعدد الإرساليات واختلاف مذاهبها ماله أثر في
التبشير ، ووجود هذه المذاهب المختلفة يرجع إلى العهد الهولاندي الأول ، فغداة
استقرار الكنيسة الهولاندية ، والتجاء الأفريقيين السود إلى المستعمرة الهولاندية
طمعت الجماعات التبشيرية الأخرى ، فأرسلت جماعة المورافيين Moravians^(١)
بعثة لتبشير الزنوج وإقامة المذهب «الانجليكاني» وهو يخالف مذهب
الهولانديين ، فطردوا البعثة سنة ١٧٤٤ ، ولم تطل إقامتها أكثر من خمسة أعوام ،
ولكن هذا الزمن القصير ترك أثراً ما ، وقلنا قبل أن البعثة عادت سنة ١٧٩٢ ،
فوجدت سيادة من قبيلة «الموتوتوت» على هذا المذهب وكانت عمدت منذ
خمسين عاماً ، وهذا يعنى أن المذهب ظل حياً في غياب البعثة ، ولما أخذت
الكنيسة الانجليزية مكان القيادة في التبشير وجدت أمامها عقبات مضاعفة ،
فضلاً عن العداء المستحكم بين البيض والسود ، كانت الكنيسة الهولاندية
خصماً ، وهى في الواقع ظلت طوال العهد الانجليزي ، لأن هولاندا ظلت تملك
جزءاً ، وفيه كانت تدعو للمذهب الكاثوليكي ، وهو يتضارب مع المذهب
الآخر الانجليكاني .

ووفد على الإقليم إرساليات من الأمريكان السود - خصوصاً من جنوب
الانديز - وذلك بقصد استمالة الأفريقيين إلى إخوانهم السود ، ولكن هؤلاء
أيضاً لم يحرزوا نجاحاً كبيراً يحقق ما كانوا يؤملون .

وتعمل الحكومة الآن في جنوب أفريقية على كبت المسلمين وتستعمل في
مضايقتهم قسوة وعنفاً لا يتقبلها العصر الحديث .

(١) المورافيين - جماعة من أتباع مس - اختطفوا مع آخرين بعد موته ، وكانوا يقيمون في مورافيا
فاطلق عليهم هذا الاسم .

وعلى طول الساحل الغربى لأفريقية بدءاً من نيجيريا يشيع الآن المذهب الانجليكانى وتكثر كنائسه ومدارسه ومستشفياته ، ويضطر المسلمون إلى دخول هذه المرافق جميعاً لحاجاتهم إليها . وحيث أن اللغة الرسمية فى كل هذه الجهات هى اللغة الانجليزية فإن المسلمين مضطرون إلى التعلم فى هذه المدارس وفيها يلقنون مبادئ المسيحية وأفكارها وبذا ينشأون مسيحيين ، وفى نيجيريا الآن شبان مسيحيون أسماءهم وأسماء آبائهم أسماء إسلامية ، مثل أحمد وعلى وخالد وحسن ، لأنهم من أسرة مسلمة ونصرتهم مدارسهم وهذه فى الواقع من المواقف الخطيرة والخطرة على الإسلام . ولا يوجد بجانب جامعة أحمد ويللو فى شمال نيجيريا روافد لها أو روافض منها يمكن أن تخفف من حدة هذا التيار التبشيرى ونقص عدد المسلمين ، وقد لجأت الجماعات الإسلامية إلى الأزهر تستمد معلمين إسلاميين ، ولكن ظروفه المادية وقلة المعلمين الأكفاء به تحول دائماً بينه وبين ما يريدون منه .

٦ - شخصيتان بارزتان :

لابد لدارس التبشير فى أفريقية أن يلم بشيء من المعلومات عن هذين المبشرين الكبارين ، روبرت موفات R. Moffat (١٧٩٥ - ١٨٨٣) ثم صهره زوج ابنته دافيد ليفنجستون (١٨٤٣ - ٧٣) فلكل منهما أعمال قيادية ذات أثر فى حركة التبشير ، وفى مده إلى جوف القارة الإفريقية . وموفات هو الأسبق جهاداً .

لم يكن هذا المبشر الكبير حين وفد إلى أفريقية مبشراً مهياً للتبشير ولا مسلحاً بما يتسلح به المبشرون من ثقافة دينية واجتماعية ، ولكن إقامته الطويلة بين الإفريقيين وحرصه على إبلاغ المسيحية إليهم أكسبته خبرة وأكسبت عمله نجاحاً ، قدم من انجلترا وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، قليل الثقافة والخبرة ، إذ لم يسبق له تدريب على الدراسات الدينية ، أقام بين قبيلة «بتشوانا» ثمانية وأربعين عاماً وكان له عمل زراعى وفر للقبيلة رخاءاً

مادياً جعل الأهلىن يحبونهُ و يلتفون حولهُ . ذلك أنه كان يقيم غير قريب من نهر كورومان ، فعمل على تحويل الماء منه وجلبهُ إلى الأرض التى يقيم بها ، وكون هناك مزرعة ، وبهذا بث فى نفوس مواطنيه أبناء «بتشوانا» خلق المثابرة والعمل ، وحب إليهم الإنتاج والاعتماد على النفس ، وأعظم أعماله أنه استطاع أن يضع للغة البتشانوية أبجدية وقواعد وطريقة للكتابة فسهل له ذلك نقل أفكاره إلى أفراد القبيلة دون أن يكلفهم مجهود تعلم الانجليزية ، وبهذه الطريقة دخل الكثيرون المسيحية ، وكان قبل ذلك يستعمل اللغة الهولندية التى كانت سائدة فى مدينة الكاب ، وكانت تفهم لدى المتعلمين من الرجال ، ولم يكن أحد من النساء يفهمها أصلاً لعدم تعلمهن - وبوضعه أبجدية لهذه اللغة ترجم الكتاب المقدس إليها ونمت ترجمته هذه سنة ١٨٥٧م ، ثم طبعت بإشرافه فى كرومان . فسهل ذلك قراءة الإنجيل وشيوعه ، وجعل الناس يقبلون على موافات ومن هنا بدأ بين القبيلة ما يشبه الانفجار فى نشر المسيحية .

ويؤخذ عليه فى ترجمته الكتاب المقدس وطريقته التبشيرية أنه كان ناقص المعلومات فى قواعد اللغة البتشانوية ، إذ لم يكن قد ألم بها إلاماً كافياً ، ومن ذلك أنه ظن أنها تخلو من كلمة الإله ، فوضع لها الكلمة الانجليزية God . بينما هى موجودة فى لغتهم لأنهم لم يكونوا من غير دين ، ومهما يكن من أمره فإنه اجتذب إلى الإنجيل قوماً من بعيد وزاد عدد المسيحيين بمجموعة كبيرة ، واستفاد منه المبشرون الآخرون فى طريقته التبشيرية إذ جنحوا كما فعل إلى اللين والتودد إلى القبائل البدائية ، واستهواهم بالرغبات المادية ، وإن لم يستطيعوا عمل أبجديات للغتهم .

وظلت شهرة موافات قوية سائدة حتى ظهر صهره ليفنجستون فغطى عليه ولكنه لم يطمسه .

وليفنجستون مبشر ومستكشف ومغامر فى سبيل عقيدته ، وهو من أسرة أسكوتلاندية متواضعة ، قدم إلى أفريقية سنة ١٨٤١ ليعمل فى إرسالية انجليكانية - من جمعية لندن المسيحية - ولكن حماسه ورغبته الجارحة فى تعليم المسيحية ، وما طبع عليه من مغامرة دفعت به إلى التنقل بين القرى الصغيرة

النائية التي لم تكن تعرف شيئاً عن المسيح ولا رأت إرسالية مبشرة من قبل ، قام برحلة على الساحل الغربى من أنجولا ثم قطع القارة إلى الساحل الشرقى الأفريقى ، مستعيناً بعمالين أفريقيين ، فشق جوف القارة وفتح أمام المستكشفين طريقاً لم يسلكه أحد من قبل ، وخلال رحلته لم يغفل وظيفته التبشيرية ، وترك مذكرات تنم عن إخلاصه وتفانيه في دعوته ، كما ذكر المخاطر الكثيرة التي تعرض لها ، وقد أكسبته هذه شهرة وخلدت اسمه في كتب الرحلات والقصص^(١) ، وآسفته تجارة الرقيق فعمل على حربها وإظهار مساوئها ، وكتب إلى رئيس الإرسالية في لندن عنها ، واشتهر اسمه بعد ذلك .

وفي سنة ١٨٥٧م ألقى محاضرة في جامعة كامبردج مليئة بالأفكار والعبارات الموحية ، دعا فيها إلى التوجه نحو أفريقية لبث المسيحية في ربوعها ، رغبة في إنقاذها من الضلال والجهل ، وفي حديثه عن تجارة الرقيق وضح جرائم الرجل الأبيض في الساحل الغربى ، كما ذكر جرائم للرجل الشرقى مماثلة في الساحل الشرقى ، وكان له أثر كبير في القضاء على هذه التجارة ، وكانت عملاً إجرامياً يقوم على نهب الصبية ويبيعهم أو نقلهم إلى أمريكا .

وإلى هذين الرجلين - موفات وليفنجستون - يرجع الفضل في فتح باب التبشير في جوف القارة الأفريقية ، فتوافدت بعدهم الإرساليات العديدة من مختلف الجماعات - اللويعنكان والميثوديزم والبرسبتاريين والبروتستانت - بمختلف فروعهم ، وكل هؤلاء عملوا على تأسيس إرساليات وإنشاء مدارس ، وعلموا الزوج القراءة والكتابة ومظاهر التحضر ، كما أنهم طالبوا للرجل الأسود بحريته ومساواته مع الرجل الأبيض كى يتمتع بحريته في وطنه ، وبذا عملوا على إظهار مواهبه القبطية .

وبوجه عام لم تستطع هذه الإرساليات أن تمحو من نفس الرجل الأفريقى رهبته من رؤية الرجل الأبيض ، وكان نجاحها الأكبر هو توجيه أذهان

(١) تحت مغامراته مكانة في القصص الانجليزية .

الأفريقيين إلى المسيحية ، وإشاعتها بين القبائل الوثنية ، وتحتير كل إرسالية نفسها مدينة لهذين الرجلين .

٧ - الإسلام في منطقة الكاب :

ليس للإسلام في هذه البقعة تاريخ مفصل ، شأنه في ذلك شأن بقية البقاع الأفريقية التي لم تشملها الفتوح الإسلامية ، وقد زحف إليها الإسلام على أيدي التجار حتى تجار النخاسة كانوا يحملون معهم تعاليم الإسلام وسماته .

وعندما كانت تحت يد الهولانديين وبعد أن نما العمران حول المحطة التي أسسوها لسفنهم ، واحتاجوا إلى عمال بها من غير الزنوج جلبوا إليها جماعة من أهل الملايو ، فزادوا عناصر سكانها جنسية أخرى ، وكان هؤلاء الملاويون من الملايو وأندونيسيا ، وكانت هولاندا تضايق المسلمين في كل هذه البلاد الشرقية التي وقعت في قبضتها ، فساقوا هذه الجماعة المسلمة للانتفاع بها وللنيل من الإسلام والمسلمين ، وكان بين هذه الجماعة زعيم ديني هو « الشيخ يوسف » ، كان ذا نفوذ كبير في بلاده ، وكان يطالب بالاستقلال والحرية الدينية ، وهو في الواقع نقل منفياً ، ونقل معه جمع من آله وأتباعه ، ولكنه لإخلاصه ونشاطه في دعوته الدينية ، أشاع روحاً إسلامياً فيما حوله ، وحيث كان نقله في أواخر القرن السابع عشر (١٦٩٤ م) يعتبر بداية القرن الثامن عشر بداية نشاط الدعوة الإسلامية في مستعمرة الكاب ، ولعله كان هناك من قبل إسلام ومسلمون .

وليس هناك عناية كبيرة بتاريخ الدعوة بعد ذلك^(١) ولكن يبدو أن هذه الجماعة الإسلامية كانت على صلة بقبائل الهوتنتوت Hotentot ، لأن عدداً منهم دخل الإسلام وكانوا قد اندمجوا أيضاً بالهولانديين ، وتسموا بأسمائهم وبُدت في ملامحهم سمات هولندية . ويبدو أنهم كانوا ملوا الوثنية فدخلوا المسيحية والإسلام .

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٢٨٨ وما بعدها . Meet Muslims of South Africa

وفي أواخر القرن الثامن عشر كان المسلمون كثرة واضحة ، وجاء في مذكرات السياسي الانجليزي الكبير كولبروك Sir. T. E Colebrooke كما سبق أن الإسلام يتقدم بين السود من أهل الكاب عبيداً وأحراراً ، .

وبسط كولبروك أسباب تقدم الإسلام برغم الجهود الكبيرة التي يبذلها المبشرون ، ومع عدم وجود نشاط إسلامي أو هيئات منظمة تدعو للإسلام ، وهي أسباب يبدو بعضها عجيبة في القرن التاسع عشر المسيحي .

منها أن السادة البيض الأوروبيين لم يكونوا راضين عن مساواة العبيد السود بهم في ديانة واحدة ، فكانوا يكرهون تعميدهم ويريدونهم أن يظلوا عبيداً لهم ، ويقول كولبروك أنها فكرة خاطئة ولكنها تركت أثراً كبيراً في عزوف السود الوثنيين عن المسيحية ، ووجه الخطأ أن تعميدهم لا يرفعهم إلى رتبة السادة الحاكمين ، وكان ينبغي ألا يمنعوا من التعميد ، لأن تنصرهم لا يرفعهم اجتماعياً .

ويقول أنه ليس من النادر أن يسأل العبد الأسود عن دخوله الإسلام فيجيب أنه يريد أن يكون له دين وأنه لم يسمح له بدخول النصرانية^(١) .

وإزاء ما في تعاليم الإسلام من مساواة الناس جميعاً كأسنان المشط ، وأنه لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح .. « إنما المؤمنون إخوة » لا يسخر قوم من قوم ولا نساء من نساء ، إخوانكم حولكم ، فمن كان تحت يده واحد منهم فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس ولا يكلفه فوق طاقته .. إلخ إزاء هذا كله وجد الزوج في الإسلام إنصافاً وفي تعاليمه إغراء لهم باعتناقه ، وهذا واضح في أن الإسلام كان يتمشى بقوته الذاتية ، ولم يكن للمسلمين في هذه البقاع أى قوة بل كانوا ضعافاً محكومين .

وتخلى البيض الأوروبيون عن نزعتهم الغالبة في احتقار السود ، وانتشرت

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٨٨ وما بعدها . وكان السود يمتنون من دخول الكنائس .

بعثات التبشير حتى لا يخلو بلد رئيسي من مبشر ، ومن هيئة تبشيرية تعلم المسيحية وتدعو لها . وقد أثمرت جهودهم كثيراً ولكن الداعية المسلم أدخل في الإسلام جمعاً أكبر بمجهود أقل^(١) .

وليس للمسلمين هناك موارد ثقافية إلا ما يحدث من زيارات غير منتظمة من بعض الوافدين ، وقد أثير بينهم أخيراً حماس ودعوة إلى تعرف أعمق على الإسلام ، وعناية أكثر بالسود ، ولا ريب أن ما في الإسلام من دعوة إلى التحرز وعدم الرضا بتبعية المسلم لغيره مما رغب في الإسلام وأغضب الحكام الأوروبيين من المسلمين ، وهذا هو سر ماواجهه المسلمون هناك من مشقات حتى الوقت الحاضر .

٨ - موقف الإسلام هناك الآن :

حكومة جنوب أفريقية الآن حكومة مستقلة^(٢) ، وهي تشمل مساحة تدخل فيها جوهانسبرج ، وقد قسمت إلى مناطق أو مقاطعات وتدارس حكومتها أشنع أنواع التعصب والتفرقة العنصرية ، وتنفذ أوامرها الجائرة بالقوة والعنف ، والزج في السجون ، وهي الآن أكثر بلاد العالم مسجونين^(٣) .

إذا نحن قسمنا سكان المنطقة إلى بيض وسود ، فإن السود قبائل وفروع متعددة ، وبجانب الزوج الأفريقيين توجد كثرة من الهنود والباكستانيين والملايويين ، وهؤلاء يمثلون الكثرة المسلمة ولم تكن الحكومة بتعداد يوضح أعداد المسلمين ولا الديانات الأخرى ، ولكن سكان الإقليم يبلغون ثلاثين مليوناً ، ويبلغ عدد المسلمين نصف مليون على الأقل .

وخلال القرون التي مرت بنى المسلمون لأنفسهم مساجد وقام بينهم معلمون وكان الحجاج منهم يعودون لهم بطاقات^(٤) وزاد إسلامي ، ويعثون

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ٣٨٩ .

(٢) استقلت منذ سنة ١٩٦١ ، وكانت مستعمرة بريطانية يعين لها حاكم يمثل التاج البريطاني .

(٣) انظر في مجلة Arabia - مايو ١٩٨٥ - ثلاث مقالات في هذا الموضوع واقتطعنا منها هذه

الخلاصة الوجيزة .

(٤) جمع طاقة أي قوة .

في نفوس المسلمين هناك حماساً ونشاطاً جديداً ، وقد كان يرجى أن يجد الإسلام امتداداً بين السود الأفريقيين ، ولكن القوانين الشاذة التي فرضتها الحكومة الحالية حدثت من هذا الامتداد ، بل أحدثت انكماشاً كبيراً ، فمن هذه القوانين :

١ - قانون عدم الزواج بين عنصر وآخر ، فالبيض يتزوجون من البيض ، والهنود من الهنود ، والمولدون في منطقة الكاب لا يتزوجون من السود ولا من البيض ، ولكن من بين أنفسهم ، وهذا غاية في الغرابة .

٢ - قانون تحديد المساحات والإقامة بها ، فلكل عنصر مكان خاص ، ولا يجوز له الخروج من حلته إلى حلة أخرى إلا بتصريح ، ولا يجزى هذا على البيض فلهم حق التنقل بدون قيود ، وبناء على هذا القانون رحلت جماعات من مكان إلى آخر ، ونال المسلمون إيذاء كبير ، إذ رحل كثيرون عن الأماكن التي بها مساجد ، فحيل بينهم وبين الذهاب إليها .

٣ - قانون حفظ الوظائف ، فالوظائف العليا أو الكبيرة موقوفة على البيض ولا يجوز للسود أن يتولوها - ثم هم لا يخول لهم الحصول على معلومات عالية ، وهذا في الوقت الحاضر مثار تدمير وثورات متتالية لأن السود يشعرون بأنهم أنفقوا من أبيض يتحكمون في حياتهم ويستأثرون دونهم بخيرات البلاد .

٤ - قانون الصناعات ، فالسود الأفريقيون والمولونون من أهل الكاب والهنود والآخرون يقومون بالحرف والصناعات الدنيا ، والبيض لهم التخطيط والإشراف .

كان المسلمون هم القائمين بالمطالبة بأسس المساواة والعدالة ، والملحين في تطبيق القانون الإسلامي لأنه يقضى بمساواة الناس أمام القوانين وباحترام الإنسانية وحرية الأديان وأداء الشعائر إلخ .. وكانت الحكومة لذلك تراهم مصدر قلق ومثار قلاقل فقصوا عليهم واشتدوا في عقوباتهم ، ومنذ ما يقرب من

عشرين عاماً كان الشيخ عبد الله هارون الذى سبق ذكره هو إمام المسلمين هناك ، وكان ذا نشاط وعلى حظ من العلم ، وكان يساعده أحمد تيمول ، ولم يكونا دعاة ثورة وإنما كانا معلمى دين ومطالبين بحقوق الإنسان ولكن الحكومة غضبت عليهما فألقت بهما فى السجن مدة طويلة حتى لقيتا حتفهما فيه ، وقد مات الشيخ هارون سنة ١٩٦٧م ، وأحدث سجنه ثم موته فراغاً واسعاً فى ميدان الدعوة الإسلامية ثم خلفه ابنه محمد هارون - وهو دون أبيه نشاطاً وعلماً وحامساً ، ونجحت الحكومة فيما كانت تهدف إليه إذ فترت روح الجهاد أمام عنف العقوبات وضعف الدعاة .

ورئيس الجماعات الإسلامية الآن هو الشيخ أبو بكر النجار ، انتخب رئيساً إلى الآن أربع مرات ، وهو يحفظ الكثير من القرآن الكريم ، ونشاطه فى سبيل الدعوة الإسلامية موفور ، ويتمتع بحرية لم يتمتع بها أسلافه الدعاة .
وحين قامت ثورة إيران باسم الإسلام انبعث فى نفوس المسلمين فى جنوب أفريقية أمل فى أن ينالوا بعض الحقوق .

وتذكر مجلة Arabia أن داعية إسلامياً يسمى محمد القاضى - قدم من واشنطن ، وأنه خطيب يدعو لوحدة فكرية وعقيدية ، وأنه يحاول أن يوقظ فى المسلمين روح العمل والجهاد لإعادة الروح الثورى ، وأنه يذكر الحركة السنوسية وعمر المختار وحسن البنا . ولكن دعوته لاتأتى بثمار ، نظراً لمحاربة الحكومة هذه الأفكار .

ومن ناحية أخرى أصبح للمسلمين هناك رابطة ، ولكنهم جماعات وألوية كل جماعة - على قلتها وذلتها - تدعى لنفسها القيادة وحسن السير على طريق الرسول . وتكثر الخلافات المذهبية بينهم .

ومن جانب التبشير ، ليس القسس سعداء بهذا النظام ، وبينهم الآن أول رئيس أسود ، Arshpshop والحكومة البيضاء لاتحبه ، ولكن بعض رجال التبشير وصل إلى وظائف لم يصل إليها مسلم .

وبوجه عام ينقص المسلمين العلم بالإسلام ، وتحريك الفكر الإسلامى بينهم ومع كل ذلك لا يزال الزنوج يفضلون الإسلام ديناً لهم ، ويقبلون عليه إقبالاً محدوداً .

وقد ذكرنا مدى محاربة الحكومة للإسلام وقسوتها على المسلمين ولعلها الآن أشقى جماعة إسلامية وأكبرها معاناة .

٩ - تطورات جديدة :

أتاحت لى زيارتى جنوب إفريقية أن ألم ببعض المعلومات الجديدة عن المسلمين وعن الحركة الإسلامية ، وهى لا تتعارض مع ما كتب من قبل .

فهناك الآن الجماعة الإسلامية التى قلت أن رئيسها هو الشيخ أبوبكر النجار ، وهو متفقه متزن الشخصية كان والده من السعوديين الذين نرحوا إلى جنوب إفريقية وأمه من جنوب إفريقية وبيته بيت مسلم حقاً ، وهذه الجماعة لا تشمل كل المسلمين على مختلف أجناسهم وأقطارهم ، ولكن هناك مراكز إسلامية تنتمى إلى هذه الجماعة .

والمركز الرئيسى للجماعة فى مدينة « كيب تاون » - محل إقامة الرئيس ، ولها فروع فى « دربن » - و « بورت اليزابث »^(١) ، و « جوهانسبرج » وربما فى مدن أخرى .

ويوجد فى جنوب إفريقية كله نحو ٢٥٠ مسجداً ، ويلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم الناشئين اللغة العربية وشيئاً من القرآن ، وقد وضعت الجماعة كتاباً خاصة لهذا الغرض ، وأكبر المساجد فى الامبراطورية كلها هو « مسجد الجمعة » فى دربن ، وهو مسجد كبير سبق الحديث عنه .

وفى كيب تاون أكبر تجمع للمسلمين ، ويلبها مدينة « بريتوريا » فيها

(١) أى ميناء الملكة اليزابث ، ومعظم المدن تحمل أسماء المحارير الإنجليز مثل دربن ،

مسجد كبير جميل وبمقربة منه المدرسة الإسلامية ومقر الجمعية ، ومن عجيب أمره أن الإمام يمنع دخول النساء به ، كما يمنع التصوير بالكاميرا أو الفيديو ، وقد اضطررتي هذا أن أختصر محاضرتي به ، لأن النساء كن في المدرسة ينتظرن سماع المحاضرة والقارىء .

ولاتحارب حكومة جنوب إفريقية المسلمين الآن حرباً عداوية سافرة كالتي كانت من قبل ، والمسلمون الذين هجروا إلى أماكن بعيدة عن مساجدهم يباح لهم أن يقيموا على حساب الخاص مساجد في الحى الذى استقروا فيه .

ويطالب المسلمون أن يجرى عليهم القانون الإسلامى فى الأحوال الشخصية وخصوصاً قانون الموارث الشرعية ، ولكن الحكومة لاتقبل ، ويضطر المسلمون للتخلص من قوانين الحكومة أن يكتب كل واحد منهم وصية تقسم بمقتضاها تركته ، وقد تكون عملاً تقريبياً ، وربما لاتكون .

وللمسلمين الآن مشاركة فى المجلس النيابى فيوجد منهم ستة عشر عضواً فى البرلمان ، ويبلغ عدد أعضائه ٢٤٠ وفى البرلمان أيضاً بعض الزوج .

وتبيح الحكومة للمسلمين الذين هجروا من حول مساجدهم أن يعودوا ، ولكن المساكن هدمت ولم يبق إلا الأرض الفضاء ، والحكومة تبليغها لهم بشمن باهظ جداً ، يعادل أضعاف مالدفعت لهم فى الأرض والبناء يوم هجرتهم .

ويبدو أن حكومة جنوب أفريقية جنحت إلى شيء من اللين إزاء النقد الشديد الذى وجه إليها بسبب تعصبها العنصرى ، ولا يزال هذا التعصب قائماً إزاء الزوج ولا تزال الحرب الباردة قائمة بينها وبين الإسلام .

والمشكلة الكبرى هى اللغة ، والمدارس القائمة لاتكفى ، لأن التلاميذ يذهبون إليها بعد خروجهم من مدارسهم الحكومية ، فيقضون ساعتين أو نحوها ، وقصارى ما ينالون منها أن يستطيعوا قراءة الحروف العربية ، وأن حفظوا شيئاً من القرآن . وأن يتعلموا مبادئ الإسلام وكيفية الصلاة والتطهر .

ونظراً للظروف السياسية ، وعدم وجود أى علاقة سياسية بينهم وبين مصر لا يوجد مبعوثون يتعلمون فى الأزهر من جنوب إفريقيا إلا نادراً ، وقلود الواحد منهم إلى مصر يستدعى مجهوداً كبيراً وزمناً طويلاً .

وقابلت الكثيرين الذين يتشوقون إلى الحضور إلى مصر ليتعلموا فى الأزهر على حسابهم الخاص ، ولا يحملون الأزهر أى نفقة ولكن لاسيل .

١٠ - أحمد ديدات :

أصبح هذا الرجل ذا اسم وصيت ذائع بسبب المناظرة التى أجراها مع القس الأمريكى جيمى سواجارت J. Swaggart وقد أدت عليه أموالاً طائلة ، وله مدرسته وجماعته ولا ينطوى تحت لواء الجماعة الإسلامية التى سبق ذكرها ، وهو معنى بدرس الأنجيل والكتاب المقدس ، ورأيت فى مدرسته بعض التلاميذ يقرأون الأنجيل فى لغتها الإنجليزية الحديثة . وقراءتهم لها إنما هى لنقدها وبيان ما بها من مصارب أو مآخذ أيا كانت ، وهذا على نحو ما جاء فى مناظرته .

وقلت لهم إنى أود أن يذلوا فى درس الدين الإسلامى جهداً أكبر ، فلكن كانت هجومات المبشرين تدعونا إلى أن نحاربهم بسلاحهم إن ميدان الدعوة الإسلامية وجمال التعريف بها أهم وأولى ، ولا تقوم الدعوة دائماً على المناظرات . ولكن كلامى لم يعجبهم ولم يرضهم .

وأطلعنا أحمد ديدات على كتب تبشيرية مكتوبة باللغة العربية ، من أعجبها كتاب طبع فى مصر ، وهو يأخذ نسق المصحف ، فيبدأ كل قسم منه بالبسملة ويضع لكل فقرة رقماً كأرقام الآيات ، ويخاطب المسلمين بدعوتهم إلى نور الإنجيل ، ويبين ما فى الإسلام من مفاصد على ما يرى واضعوا الكتاب .

وأحمد ديدات غاضب على الأزهر لسكوته عن هذا الكتاب أو عدم علمه به ، قلت له لالوم على الأزهر فى هذا ، فليس من عمله أن يقف بأبواب المطابع ولا هو رقيب على الكتب ، ولكن ابعث بالكتاب إلى الأزهر ليرد عليه ويفند أقواله .

ويدعو أن أحمد ديدات بعد انتصاره في مناظراته ناله شيء من الزهو ، وهو لم يشارك الجماعة الإسلامية حفلها الكبير .

وعلى أى حال فله مجموعة من الكتب واجه بها المبشرين ، وهو مستعين دائماً بدراسة الكتاب المقدس بقسميه ، ويدعو أنها رآسة جيدة عميقة .

ومن هذه الكتب - كتيب عنوانه « ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد » ، ثم عدة كتب منها « الإسلام دين مفترى عليه » ، وخمسون ألف مخطوطة في الكتاب المقدس ، والقرآن معجزة خالدة ، هل الكتاب المقدس كلام الله... إلخ إلخ * .

وقد أباح لمن يريد أن يترجمها لينحها أو يبيعها بلون رجوع إليه . وعمل أحمد ديدات يستحق الشكر والتقدير ، ولعله من أهم ما يفاظ به المبشرون ، وقد كتب رسالة إلى البابا في روما يدعوه لمناظرة بينهما لإثبات أن الإسلام هو الدين الصحيح وتحدى البابا أن يقيم براهين سليمة على صحة المسيحية ، ولم يظهر برد .

١١ - صدى أحداث العالم الإسلامى :

نظراً لأن المسلمين في جنوب إفريقية ليس لهم مصادر محلية يستقون منها معلوماتهم الدينية ، يتطلعون إلى أخبار العالم الإسلامى ويرقبون ما يجرى فيه من تيارات فكرية وأحداث اجتماعية ، وأكثر ما يتجهون إلى مصر وإلى المملكة العربية السعودية ثم إلى دول الخليج بوجه عام ، وقد دهشت حقاً لانتهاه هذه الأنباء إليهم .

عندما وصلت وزميلي القارىء - إلى مطار جوهانسبرج . استقبلنا مستشار من وزارة الخارجية قال أن اسمه مستر « كاسال » - وقد قادنا إلى حجرة استقبال كبار الزوار ، وجلس يحادثنا ريثما تأتى الطائرة التى تنقلنا إلى دربن ، ولما مال الحديث بنا ميله رأيت أن أسأل عن أسباب اضطهاد المسلمين في بلادهم ، وأجاب أن لا اضطهاد أصلاً ، وأن المسلمين ممنوعون بحرية العبادة

وحرية العقيدة وحرية الدعوة للإسلام ، وأردف أنني إذا كنت سأكتب مذكرات خاصة لي أو مقالات أنشرها فإنه يرجو التريث حتى أرى بنفسى ، وأضاف أيضاً لك الحق أن تنقد الحكومة في أى عمل تراه غير مناسب .

قلت من الأخبار المستفيضة المقطوع بها أن الشيخ عبد الله هرون مات في سجنه بعد أعوام طوال قضاها فيه وأظنه إعدام - - ورأى هو بلباقة سياسية حاذقة أن يلجأ إلى الهجوم بدلا من أن يقف موقف المدافع - فقال : هو مات ولم يشق ، وكان سجنه لأسباب سياسية ، وأنتم في مصر قتلتم عدداً من المسلمين لأسباب سياسية قلت ولكن الفكرة الإسلامية محاربة لديكم ، قال : رجوتك أن ترى أولاً وستجد أن الجماعات الإسلامية في إفريقية الجنوبية ممتعة بحرية لا تتمتع بها الجماعات الإسلامية في مصر - نحن نمنح كل شخص حريته الكافية ولا نعاقب على الأفكار ، وأحسست أنه يعرف الكثير الذى يجهنى به فأدرت الحديث إلى مجرد الاستفهامات واستقاء المعلومات .

وفى - « بورت الزايت » - رأيت مع أحد المسلمين كتاباً للشيخ محمد الغزالي اسمه « قذائف الحق » - قال إنه اشتراه من مكة أثناء حجه ، وقال أبكاني هذا الكتاب كثيراً وأحزننى كثيراً أن أسرة الغزالي كلها مضطهدة ، وقال لدى أيضاً كتاب « إلهام من حياتى » لأخته أو عمته السيدة زينب الغزالي ، قلت ليس بينهما أى قرابة وإنما هو اتفاق فى اللقب ، وسأناً ثانياً عن المرحوم سيد قطب وأسرته .

وكان مثقفاً يجيد اللغة العربية إجادته الإنجليزية فأردف : هل ماعملته عظام التفطيش فى أسبانيا بالمسلمين أشنع من هذا .

قلت يعينى أن أستقى معلومات عن نشاط الدعوة الإسلامية ونشاط التبشير ، ولا أريد تقليب التاريخ الماضى ، فاهتسم ، وقال : التبشير المسيحى تسنده الحكومة وتأتيه الإمدادات المالية الكثيرة ، والمسلمون يقومون بدعوة محدودة ونشاط قليل ، وفوق هذا هم فى خلافات مستمرة ، وكنا نود أن نجد

من المسلمين في الشمال بعض المعونة ، قلت له إن قطع العلاقات السياسية هو الذي يحول دون المعونات . قال : لقد زار البابا جنوب إفريقية أربع مرات ، وهذه الزيارات يحدث منها تموجات إيجابية في نشاط التبشير ، أقما كان ينبغي أن يزورنا شيخ الأزهر مرة واحدة ، فزيارته تبث في حياتنا الدينية نشاطاً ، وقد توجه إليه أسئلة تقضى إجاباتها على الخلافات الكثيرة بين الأئمة ، ثم تكون مقابلة لزيارة البابا ، لما لا يكون للمسلمين والد كما للمسيحيين .

وتحدث بعض المسلمين في مجلس عام بأن أحد الأثرياء من دول البترول ، أنفق على مغن مريض بالإيدز مليوناً ونصف المليون من الدولارات ، وقال آخر أن واحد منهم لكى يزوج كلباً له من كلبة أنفق مائتى ألف دولار !! قلت هذا لم نسمع به في بلادنا ، ولعله من تقولات الخصوم الذين يريدون أن يحطوا من كرامة المسلمين وأن يشوهوا سمعتهم ، وقال - كما قال الكثيرون - كان أولى أن تمت الجماعات الإسلامية بشيء من ذلك أولى من المختئين ومن الكلاب !

ومن الناحية الدينية نأخذ مسألة رؤية الهلال وبدايات الشهور العربية دوراً مشابهاً ، فقد ذكر أبناء الجماعات الإسلامية ، أنهم كانوا يقتنون بالحكومة السعودية في كل ذلك وظلوا عليه ثلاثين عاماً ، ومنذ عامين أو ثلاثة رأوا أن يقتلوا بمصر لأن الزمن بين البلدين متحد وخط الطول واحد ، ولكن مصر في هذا العام ١٤٠٨ هـ خالفت السعودية في إنهاء شهر رمضان فقام المصريون حين أفطر السعوديون وغيرهم من سكان الجزيرة ، وفي جنوب إفريقية أفطر قوم وأعلنوا العيد وظل آخرون صياماً ، فهذه تفرقة بين المسلمين جاءت من مصر ، وقد عادت مصر فاعتمدت رؤية هلال ذى الحجة ، فهذه ذبذبة لا يمر لها .

وكانوا قد كتبوا بهذا للأزهر وقد شيخ الأزهر بحثاً له منذ كان مفتياً بفيد الأخذ برؤية الهلال وثبوت الشهر لافى مصر أو جنوب إفريقية فقط ، بل إذا روى الهلال في بلد يثبت الشهر لكل بلد لم يكن الفجر قد انشق فيه .

وقرأت هذا البيان على جماعة العلماء والأئمة فسروا به كثيراً ، وقرروا
الاقتداء بالسعوديين أو بمن يثبت لديهم رؤية الهلال قبل اثباته في بلادهم .
وأكد هذا الموقف تقصيرنا إزاء هذه البلاد ، ودل على اهتمامهم بكل
ما يحدث لدينا وبقيت بعد مسألة استقبال المبعوثين للتعليم !

أود من الجامعات السعودية ومن الجامعة الأزهرية أن تعنى باستقبال عدد
كبير من هذه البلاد - خصوصاً أبناء السود ، فالواحد من هؤلاء قد يدخل
الإسلام عدداً كبيراً من أبناء قبيلته لأنه منهم ويستطيع مخاطبتهم بلغتهم ، وهذا
ماهتم به الإرساليات التبشيرية ، إذ يوجد الآن قسس من الزوج ، وقد كان
الهولنديون يمنعونهم من دخول الكنائس .

هناك إذن تغير واسع في موقف الحكومة الأفريقية إزاء الدينين وإن كانت
التفرقة العنصرية لا تزال قائمة .

بوجه عام يباح للمسلمين هناك بناء المساجد وتخطيط المقابر ، وفتح
المدارس ، وعمل المدارس كما رأينا محدود .
ولا يزال الإسلام يعاني كبتاً .

رابعاً : داخل أفريقيا

١ - مقدمة :

لا تزال القارة الأفريقية أفصح رقعة وأهم ميدان للتبشير المسيحي ، وفيها يقوم صراع عنيف أو ضعيف بينم المسيحية والإسلام ، ويرجع عنف هذا الصراع أو ضعفه إلى أن الإسلام ليس له رابطة معينة تدافع عنه أو تدعو إليه ، ولكن يوجد في بعض الدول مدارس إسلامية ومساجد تقام فيها الصلوات وتشرح مبادئ الإسلام بوجه عام ، وفي هذه الدول يظهر الصراع حيث يهجم المبشرون على الإسلام ويغضون من شأنه ، بينما يعمل الدعاة الإسلاميون في مدارسهم أو مساجدهم على بيان مزاياه ، وعمل المبشرين في هجومهم على الإسلام بخالف تعاليم الإرساليات التي تؤثر المسألة والتودد إلى الأهلين وتتخذ من التعارف وإظهار المؤاخاة وسيلة لجذب الناس إلى الإنجيل ، ولكنهم يفعلون ذلك لأن الأهلين ليسوا مسلمين ، وهذا الهجوم يحدث جفوة بين المسلمين والمبشرين ، ولكنه يصد الناس عن الإسلام .

ويبدو الفارق الهائل بين دعاة الديانتين ، فالمبشرون قرأوا عن الإسلام ونقلوا عن أعدائه مطاعن خاصة يشيعونها ويرددونها بينما لا يعرف دعاة الإسلام عن تاريخ المسيحية شيئاً ، هذا فضلاً عن قصور معلوماتهم عن الإسلام ، ويستعين المبشر المسيحي بوسائل ومغريات مادية أهمها المدارس التي تعلم اللغات الأوروبية وبها يضمن التلميذ مستقبلاً ورزقاً ، ثم المستشفيات التي لا تهمل في تغذية روادها بالدعوة إلى المسيحية والتحذير من الإسلام ، وهذه الإرساليات بكل وسائلها وفروعها الكثيرة الانتشار في أعلى النيل وفي الكونغو والنيجر وأريتريا وأوغندا ، وهي أكثر تمكناً في جنوب الصحراء .

وفي أفريقيا كما يقول استيفن نيل تصطرع تيارات خمسة هي التقاليد القديمة الموروثة . وهذه شائعة بين البدائيين الذين يعيشون على الفطرة ، ويلبها

الوثنيات وهذه أيضاً أنواع شتى منها الطوطميات والفيتشية ، ثم المادية الماركسية التى تعمل الآن عملها هناك ، وأخيراً الديانتان - السماويتان المسيحية والإسلام ، ولكل منها مشجعات وأمامها عوائق .

٦ - عقبات أمام المسيحية :

أما المسيحية فيتبادر للذهن بادية ذى بدء أنها أقرب لعقول هؤلاء السذج بسبب مافيا من صفة ، البنية والتجسد ، فالذين يعبدون الأشجار والحيوانات والأجداد يسوغ لهم أن يتقبلوا أن المسيح ابن الله ، وأنه - وهو إله كأيه - عاش على الأرض وأكل وخطب ثم صلب ثم لبسته الحياة ، ثم ارتفع ليجلس بجانب أبيه ، كل هذا قريب كل القرب من الوثنية ، ويسهل قبوله لدى الوثنيين ، ثم تروجه المشجعات التى يبذلها الدعاة ، والأمر كذلك لكن هناك عوائق أخرى يرجع بعضها إلى الماضى وبعضها إلى الحاضر المائل الآن ، وبعضها إلى طبعة المسيحية .

فمن ناحية الماضى ، لا يزال مائلاً فى أذهان الأفريقيين مافعل بهم الأوروبيون ويمثلهم الرجل الأبيض ، منذ القرن السابع عشر حيث استدعى الاستعمار الأمريكى أن ينهب الأفريقيون نهباً لينقلوا إلى القارة الجديدة ليعملوا بها زراعاً وغير زراع ، وأقاصيص هذا النهب لازالت تروى^(١) بين الأفريقيين ، ولا يزال الرجل الأبيض رهيباً مخوفاً بينهم ، ومع أن بعض المبشرين حاربوا تجارة الرقيق هناك ، ومع الخدم الكثيرة التى تقدم لم يأمن الأفريقى جانب الرجل الأبيض ، وكثراً ما يستفيد منه فى علاجه وغذائه ، ثم ينصرف عنه ، وحقاً أن الرجل الأفريقى بدائياً ومثقفأ يعانى موقفاً قلقاً أمام الرجل الأوروبى

(١) كانت هذه الحملات من أشنع أنواع الاسترقاق فكان الزوج الأفريقيون يصادون بالرصاص وتشعل النيران فى مساكنهم وفيما حولهم ، وتناهم السياط والعصى حتى يساقوا إلى السفن التى تبحر بهم إلى أمريكا وكانوا يموتون لى السفن فيلقى بهم فى البحر ، وكانت الطيور والأسماك تتبع هذه السفن لتنا طعامها من أجساد هؤلاء الملوكى الذين يلقون فى الماء .

- الأبيض - إذ يشعر بحاجته إليه ويشعر بكرهته ، وموقف رؤساء القبائل وذوى الرأى هناك يبدو فيه هذا الاضطراب وتصوره الكتب الكثيرة التى كتبت عن حياة هؤلاء القوم .

ومن ناحية الحاضر والواقع قد تكون مسألة تعدد الزوجة بين الإفريقيين وإصرار المبشرين المسيحيين على زوجة واحدة من المسائل المعضلة العسيرة الحل ، فمن النادر جداً أن تجد رجلاً له زوجة واحدة إلا أن يكون حديث عهد بالزواج الأول ولما يلحقه زواج ثان ، والمبشرون يطلبون من الرجل أن يستبقى زوجة واحدة ، ويسرح الأخريات ، وقد أصبح لكل منهن أولاد ، فيشقى ذلك على الأسرة كلها ، ويترتب عليه تخطيمها وبعثرة أولادها ، وقد حدث هذا فعلاً مما جعلهم يكرهون المسيحية والمبشرين^(١) وقد لجأوا لذلك إلى طريقة اعتبروها وقتية وهى بقاء الذيت تزوجوا فعلاً على ما هم عليه ثم يجرى الذين تنصروا يعد ذلك على تعاليم المسيحية فلا يزيد على زوجة واحدة وهذه محتملة بين المدنيين ولكنها عسيرة بين الآخرين ، لأنها تضعف الأسرة بتقليل عددها كما تضعف القبيلة كلها ، وليست هذه الإباحة إلا من بعض المبشرين .

ويضاف إلى هاتين عقبة أشق وهى دعوة الإسلام ، فالإسلام كما يصفه المبشرون قوة نافذة وينتشر بسرعة - ومع أنه لا توجد له جمعية توجه لإرسالياته ، يدخله خمسة من الأفريقيين كلما دخل المسيحية شخص واحد^(٢) وهو لا يحدث تغييراً واسعاً فى حياة الوثنى ، وإنما يحدث تعديلاً مقبولاً ، ومن المتوقع أن نصف السكان فى جنوب الصحارى^(٣) على الأقل لا يزالون على

(١) حدث أكثر من هذا أن أحد الذين اعتنقوا المسيح كن له تسع زوجات فرمى ثمانية منهم إلى القيلة ، مما بغض أولادهم والآخرين فى المسيحية ، وينادى بعض المبشرين بإباحة تعدد الزوجة للأفريقيين ، ولا تقاس حياتهم على حياة الأوروبيين ، لأن هنالك أسباباً كثيرة تدعو إلى ذلك منها كثرة النساء بالنسبة للرجال ، ومنها حاجة الرجال إلىهن فى العمل خصوصاً الزراعة 484 Neil .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ٤٩٥ ويظهر أنه يعنى صحراء كلاهارى .

وثبتهم ، ولهذا فإن الكنيسة تعمل بمجد لإزالة التهديد الإسلامي^(١) وقد أخذت مجامع الكنائس المسكونية تواجه هذا الموقف بمجد فعملت مسحاً للوضع الدينى شاملاً لكل القباثوكيف يمكن هدايتها للإنجيل ، ونتائج هذا النشاط تبشر بمستقبل حسن للمسيحية ، والمشكلة الرابعة هى تضارب الإرساليات بعضها مع بعض ، فقد قامت فى أفريقية كنائس عديدة جداً ، وأكثرها مستقل بنفس ، ومنها الأنجليكانية والمائوليكية والميثوديزم وغيرها ، وخلافاتها شديدة ، وبذا يضار بعضها بعضاً .

وأخيراً هناك حركة أخرى تبذل الكنائس جهداً آخر للقضاء عليها ، ولاريب أن الكنيسة هى المسئولة أساساً عن وجودها ، تلك هى كثرة المتبعين من المسيحيين الأفريقيين .

فمن طبيعة المسيحية أن تتحدث عن كثيرين رأوا المسيح أو سمعوا صوته يناديهم ، وهذا كما هو فى الأنجيل رأينا من يدعونه فى العصر الحديث أو قد مر بما ذلك فى تاريخ الإرساليات التبشيرية وقد دعا ذلك بعض معتنقى المسيحية من الأفريقيين أن يعلنوا سماعهم النداء من الروح القدس ، ففى أوائل هذا القرن ظهر فى ساحل العاج النبى وليام وادى هارى وأعلن مخاطبته المسيح إياه فالتف حوله جمع غفير فى سنة ١٩١٤ ، وقاد أعظم حركة فى تاريخ المسيحية فى أفريقية ، فصح باب هذا الادعاء للآخرين ، ونظراً لأن هذه البقاع كلها تؤمن بالروحيات والقوى الخفية ويشيع فيها السحر والطب الروحاني كان انقسادها لهذه الادعاءات سهلاً ، وتحاول الكنائس والإرساليات الآن وقف هذا التيار .

هذه هى أهم العثبات فى طريق المسيحية فى أفريقية الآن .

٣ - عقبات أمام الإسلام :

أما الإسلام فأهم عقباته أمران الثمان :

أولهما : ضعف الدعوة له ، وليس هذا عائقاً ولكنه تقصير - فمن ناحية ليس هناك هيئة خاصة منظمة تشرف على هذه الدعوة أو توجيهها ، ومن ناحية أخرى ليس لدى الذين يتعرضون للدعوة الإسلامية مقدرة كافية على نشرها والافتناع بها .

وثانيهما : مايقوم به دعاة المسيحية من تشويه لحقائق الإسلام والصد عنه بالدعايات السيئة الكاذبة وقد رأينا المبشرون يعتبرون دعوة الإسلام تهديداً للمسيحية ، وهم لذلك يدفعون هذا التهديد بكل ما يستطيعون .

نحن إذن بحاجة إلى دعاة أكفاء ، لهم دراسات كافية عن الإسلام وعن الديانات الأخرى - خصوصاً اليهودية والمسيحية - ودرس اليهودية ترجع أهميته إلى أن كتابها - وهو العهد القديم كتاب مقدس لدى المسيحيين أيضاً ، فللرد على مشوهى الإسلام من المسيحية لا بد من مواجهتها بما فى الكتاب الذى يدعون إليه بقسميه من نقائص وعيوب ، وهم كثيراً ما يعيبون الإسلام بما هو كوجود فى كتبهم والإسلام برىء منه .

ولا بد للمسلمين الآن أن يكونوا هيئة إسلامية تكافح دون هذا الدين وتعمل على نشره ، والوقت مناسب على تكوينها على أن تكون هيئة مستقلة بعيدة عن تيارات السياسة واختلافات الأقطار العربية ، ولا بد أن يكون لها معهد دراسى خاص على نحو مانجد فى معهد كاتبرى الانجليزى ومعاهد التبشير الأخرى فى أوروبا والشرق وفى مصر نفسها .

وأود أن يعلم الذين يعنهم الدفاع عن الإسلام أنهم إذا لم يتخذوا عملاً إيجابياً لخصايته فإنه يوشك أن يستأصل من جهات كثيرة ، وأول عمل إيجابى هو تعديل مناهج الدراسة بالأزهر حتى تخرج كلياته دعاة أكفاء للقيام بمهمتهم .

خامساً: شرق أفريقية

١ - الدعوة الإسلامية :

كان من المنتظر أن يكون لدعوة الإسلام في هذا الجانب نشاط انتشار أوسع مما هو حادث الآن لأن شرق أفريقية يفتح على جنب الجزيرة العربية ، والاتجار مع هؤلاء الأفريقين كان يمكن أن يغرى العرب بالإقامة على الساحل والاتصال بالزئوج حوله ، ولكن لايسجل التاريخ هجرات عربية ، ولا مراكز تجارة بهذه البقعة ، ولم ينقل التجار إليها ما نقلوا إلى الهند وما حولها وما بعدها من تعاليم الإسلام .

وعندما غزا البرتغاليون هذه البلاد أوائل القرن السادس عشر عثروا على كتاب في مدينة كلوا Kiloi وهي بلدة في جزيرة صغيرة جنوب زنبار ، ذكر كاتبه أن أول من هاجر إلى هذه الجهة من المسلمين جماعة كانوا يدعون « أموزيديج » كانوا أتباعاً لشخص من سلالة النبي يدعى زيدا ، وتوقع سير توماس آرنولد ، أنه قد يكون زيد بن علي الذي طالب بالخلافة في عهد هشام ابن عبد الملك ، فأخفقت ثورته وصلب على جذع نخلة سنة ١٢٣هـ (٧٤٠م) ، وأن كلمة « أموزيديج » قد تكون أمة زيد ، والقصة لا تخلو من غموض لأنه إذا كان الكتاب عربياً كان لا بد أن يكون واضح الدلالة والتعبير - وتستمر القصة فتذكر أن هذه الجماعة كانت تخاف السكان الأصليين وتتحاشى الاندماج بهم ، ومع ذلك نجحت مع طول الزمن في تكوين مستوطنات لها على الساحل الأفريقي ، ثم وفدت جماعة أخرى من الخليج العربى الفارسى ومن مكان قريب من البحرين ، فبنوا مدينة مقديشيو^(١) التى كانت سيدة على عرب الساحل جميعاً ، ولم يخضع لهم جماعة « الأيدموزيديج »

(١) على ساحل الصومال الذى كان يتبع إيطاليا ، وهي أنشئت منتصف القرن العاشر الميلادى تقريباً ، أى في القرن الرابع الهجرى مما يدل على أن الإسلام وصل هذه البقاع متأخراً .

لأن مذهبهم الشيعي يختلف عن مذهب مقديشيو ، وظلت سيادة مقديشيو نحو سبعين عاماً .

وقد تمت جماعة ثالثة تنتمى لأحد سلاطين شيراز ، فلم تأو إلى مقديشيو ، بل التحدت إلى الجنوب وأسست مدينة «كلوا» Kiloi - إذ كانت تتوقع استخراج الذهب من جزيرة زنبار ، ثم تعددت القرى الإسلامية على الساحل الأفريقي ، ولكن لم يستطع مسلموها أن يتوغلوا بالإسلام داخل القارة ، ويبدو أن حالة الزواج وما كان يعرف عنهم من أنهم من آكلى لحوم البشر مما كان يحول دون التوغل في داخل القارة ، وقد أورد جورجى زيدان في كتابه «طبقات الأمم» صوراً عديدة لهذه الوحشية وللضحايا العديدين من المبشرين .

ووجدت بعد ذلك مدن عربية متناثرة على الساحل الشرقى ولكن تأثير الإسلام في الجنوب كان ضئيلاً جداً ، وكان الصوماليون في الشمال هم الذين أقبلوا عليه إقبالاً ملحوظاً ، وكذلك فعلت قبائل الجلا ، وقد توجد أسباب كثيرة لهذا التراخي في سمر الإسلام في هذه الجهات ولكن مما لا ريب فيه أن دعاة المسلمين كانوا مقصرين .

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر انبعثت دعوة الإسلام في أوغنده ، ودخل الكثيرون من أبنائها الإسلام على يد التجار العرب ، ولكنها كانت حركة محدودة قصيرة الأمد .

وفي النصف الثانى من هذا القرن بدأت الإرساليات المسيحية تتوافد على أوغنده ، ثم بسطت الحماية البريطانية وغير البريطانية أيضاً على هذه البلاد ، فنشطت الإرساليات التبشيرية وعملت على كبت الإسلام ووقف حركة الدعوة له ، وعمل الأثيوبيون بنشاط أوسع وتبجح أظهر على اضطهاد المسلمين ومحاربة الإسلام وتنصير المسلمين قهراً ، وظل هذا الضغط يتزايد وينمو ، والحبشة الآن أعداء الإسلام ، وستحدث عنها بعد .

وكان سكان هذه البقاع أكثر ميلاً إلى الإسلام لسهولة عقيدته وعبادته

حتى قال بعض الساسة الألمان أنه يتوقع دخول قبائل الجلا جميعاً في دين الإسلام قبل أن ينتهى القرن التاسع عشر ، وكانت نبوءة هذا الرجل جديرة أن تتحقق لو سلم القوم من عوائق الاستعمار والتبشير .

ونقل سير آرنولد أحداثاً تدل على شدة ميل هؤلاء الأفريقيين للإسلام ، وهى أقاصيص إن لم تكن صحيحة الوقوع فهى صحيحة الدلالة .

منها قصة رجل من أبناء الجلا كان قد اختطف وبيع في جلة بين الرقيق ، وقابله أحد الألمان بعد ذلك فسأله عما يكنه من السخط على الذين اختطفوه ، فأجابته إنها عناية الرحمن أنقذته من جهل الوثنية ، وأن حلاوة الإيمان التى يجدها في قلبه فوق أن توصف ، وتمنى لسايله الألمانى المسيحى أن يهديه الله لهذا الدين قبل موته^(١) .

وقصة أخرى مشابهة تروى أن بعض التجار العرب جنحت بهم سفيتهم إلى ساحل أفريقية الشرق ، وكانوا خائفين من الأهلىن ، ولكنهم لم يجلبوا ما يخيف ، بل عاملهم القوم معاملة حسنة ، وباعوا هناك مامعهم من بضائع ، وكانوا هم الذين أساعوا ، فإنهم عند رحيلهم اختطفوا ملك القبيلة وباعوه في الجزيرة العربية بيع الرقيق ، ولم يكونوا يتوقعون أو يريدون العودة إلى هذا المكان ، لكن الرياح دفعت بهم مرة ثانية إليه ، وكانوا في هذه المرة أشد خوفاً ، وكانت دهشتهم شديدة عندما وجلوا الملك الذى اختطفوه من قبل ، فلم يتقم منهم بل شكر لهم صنيعهم لأنهم كانوا السبب في هدايته للإسلام^(٢) .

ورغم هذه الصلات بين العرب وبين الأفريقيين في هذا الساحل وطول أزمانهم لم يتجاوز الإسلام جوانب الساحل ، وعندما جاء المستكشفون البرتغاليون وجلوا مسلمين هنا وهناك ، ولم يجلبوا مسيحية ، وكان البرتغاليون أثناء حكمهم أول من قاد التبشير ونشر المسيحية هناك ، وبعد تقلص الحكم

(١) الدعوة إلى الإسلام ٣٨٥ .

(٢) نفسه ٣٨٥ نقلاً عن كتاب عجائب الهند .

البرتغالي كان بعض هذه البلاد تحت حكم عمان فاستراح المسلمون ولكن لم تعمل عمان على مد الإسلام داخل القارة ، وكان السود الأفريقيون دائماً يخافون الرجل الأبيض بسبب ما كان من حوادث النهب والإتجار بالأفريقيين ونقلهم إلى أمريكا لعنارة أراضيها . وكذا كان الغرب يخافون الزنوج لما شاع من توحشهم ، ولكن لا مفر من الاعتراف بقلة الدعاة الإسلاميين وتقصير المسلمين في إعداد إرساليات على نسق الإرساليات التبشيرية .

وفي أواخر هذا القرن كان النشاط التبشيري أقوى ، وانتشرت الإرساليات في أوغنده وحوها ، وبفضل الحماية البريطانية نال المبشرين من التشجيع ما نال الدعوة الإسلامية من ضعف ، فقد عملت السياسة الانجليزية على تثبيط الدعوة الإسلامية في صمت وهدوء ، ومن طرق كثيرة غير مباشرة ، وبذلت للمبشرين وللكنائس أسخى ما بذل في هذه البلاد ، وكان الأنثيويون أكثر صراحة وأجرأ عداوة ، إذ عملوا على تنصير المسلمين وكبت دعوتهم بقوة وعنف .

وقد كانت هرر - بمجهدو السنوسيين - مركزاً للدعوة ، ومنها ينتشر الدعاة والوعاظ إلى الجهات المجاورة ، وبوجه عام كانت قبائل الجلا وقبائل الصومال أكثر القبائل قبولاً للإسلام ، بينما كانت القبائل التي في وسط القارة تعيش على فطرتها راضية بوثنيتها بعيدة كل البعد عن سمات الحضارة الإسلامية ، وكانت تشيع بينهم عادات كثيرة قبيحة ، وكانوا جميعاً يكرهون البيض ويخشونهم بسبب ما لاقوا منهم من سلب ونهب ، وكان تجار المسلمين قد تمهولوا في البلاد الساحلية وأيضاً قليلاً في الداخل ، فأنس إليهم السكان لما رأوا من أمانهم ولما كانوا يشعرونه من دعوة الإسلام إلى المساواة وحفظ حقوق الغير . وكان في أوغنده بعض من المسلمين يتولون وظائف ليست صغيرة ، فساعدوا بقدر ما استطاعوا على نشر الإسلام وتعريف الناس به .

وأخيراً رجحت كفة التبشير للأسباب التي ذكرنا ، ثم شقت الماركسية طريقاً لها ، والله وحده يعلم مستقبل هذه البلاد .

٢ - الاستعمار يضر وينفع :

جاء القرن العشرون وأفريقية كلها ترذح تحت نير الإستعمار ، كما أنها كانت تنط في ظلام الجهل والتأخر الحضارى ، وهذا - فى الواقع - مأسه جعلها فريسة للمستعمرين ، إذ وجدوا فيها أسواقاً لمنتجاتهم ، كما وجدوا فيها من قبل منية للرقيق ، ولذا لم يقدموا لها من وسائل الحضارة إلا ما يكون لهم من ورائه فائدة ، ملوا بينهم طرقاً حديدية ، وعلموهم قيادة السيارات وركوب الدراجات ، وفتحوا مدارس قليلة نشرت لغة المستعمر ، واستقدموا الإرساليات العديدة لنشر المسيحية وتعليم اللغات الأوروبية ، وكان لكل دولة طريقته ومذهبها المسيحى الذى تدعو إليه .

كانت ألمانيا ذات حظ كبير من أراضى أفريقية الوسطى ، وأول من استقدم إرسالية تبشيرية بروتستانتية إلى شرق أفريقية ، ويوجه عام عمل المستعمرون على وقف تجارة الرقيق ، ولم تكن مجرد تجارة ولكنها كانت نوعاً من الوحشية يقوم على اختطاف الزوج أو اغتصابهم ثم سوقهم قطائع لبيعوا هناك ، وهو باب كان الأوروبيون هم الذين افتتحوه وأسرفوا فيه غداة توسعهم الاستعمارى فى أمريكا ، فقد أبادوا زنجياً هناك ونهبوا زنجياً ها ، ولكنهم الآن أغلقوه وادعوا لأنفسهم فضل وقفه ، وعزوا إلى المسلمين والإسلام ابتداعه .

وقد أفادت هذه الحركة الدعوة الإسلامية إذ هيأت لتجار المسلمين الذين لم يكونوا يجاوزون ، السواحل أن يدخلوا فى جوف القارة ، وفى ظل الحكم الاستعمارى ساد الأمن وتمدت السكك الحديدية وشقت الطرق ، وفى الجنوب من الأقاليم الاستوائية حيث تقل الأدغال والجبال اتصل شرق القارة بغربها ، فسهل التوغل فى القارة والاختلاط بمجماعات وقبائل لم يكونوا يعرفون غير الوثنية ديناً ، واختارت إدارة البلاد موظفيها من المسلمين المثقفين ، وأنشأت حكومة أفريقية الشرقية - وهى حكومة ألمانية - آفاً من الوظائف أسندتها إلى المسلمين المثقفين ، فعملوا على نشر الإسلام وتعليمه ، وكان

المعلمون في المدارس مسلمين أو أكثرتهم العظمى من المسلمين ، ونشأ عند ذلك دخول قبائل وقرى بأكملها في دين الإسلام ، والواقع أن هذا حدث منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وفي أوائل القرن العشرين كان هناك معلمون مسلمون من السواحلية ، فبدلوا نشاطاً واسعاً في إدخال الإسلام بين القبائل الكبيرة ، وامتد الإسلام مع خطوط السكك الحديدية حتى بحيرة تنجانيقا وهي نهاية أفريقية الشرقية الألمانية ، بينما كانت تشمل ما بين سمبارا Sumbara إلى كلمنجارو شمالاً ، وحتى بحيرة نياسا جنوباً ، ولم يكن هناك دعاة متخصصون توغدوهم هيئة منظمة ، ولكن التجار قاموا بالتصيب الأكبر ، وكان يوجد أشخاص من الدعاة المتطوعين أو من ينتمون إلى بعض الطرق الصوفية ، ولكن السكان في هذه الجهات كلها قبائل عديدة ، وكان لكل قبيلة دينها وعبادتها الخاصة ، وكان قبولها للإسلام يختلف بين قبيلة وأخرى ، ولكن الدين الإسلامي استطاع أن يثبت نفسه وأن يجد له أتباعاً كثيرين وبين قبائل قوية كبيرة ، مثل الياوس Yaos وهم قبيلة قوية تعتبر الإسلام دينها القومي .

ولم تستمر موجة المد الإسلامي طويلاً ، إذ بدأ التبشير المسيحي بهجم على هذه البقاع ، وكانت المعركة عنيفة بين الطرفين ، وكان الإسلام أرجح كفة ، وأنجح في اجتذاب الأتباع ، ولم يظفر المبشرون إلا بأفراد قليلين ، وبعض الذين دخلوا المسيحية عادوا إلى وثنتهم أو آثروا عليها الإسلام ، أو انتهوا إلى عدم الإيمان لا بالمسيح ولا بالله ، والواقع أن حركة المسيحية كانت ضئيلة جداً ووانية جداً بجانب حركة الإسلام ، ولكن بفضل إصرار المبشرين وتنظيم حركتهم والمساعدة التي كانوا يمدون بها من الحكومة ومن الكنائس الأوروبية ، وبجهد الحكومات على الإسلام رجحت كفة المسيحية .

٣ - بلاد النوبة :

كان اسم النوبة أيام الفتح العربي يطلق على مساحات تمتد من جنوب الأراض المصرية إلى مايشمل جزءاً كبيراً من إقليم السودان الحالى وحوض النيل الأزرق ، ودخلت المسيحية هذه البلاد من طريق مصر ، وأيضاً من الجزيرة

العربية ، ولكنها كانت بطيئة ، ولم تفش المسيحية في هذه البلاد إلا في القرن السادس الميلادي^(١) . وكانت تمتد بقس من الحبشة ومن مصر ، وكانت كنيسة الحبشة تابعة لمصر .

ولما فتح عمرو بن العاص مصر بعث حملة إلى أرض النوبة فقابل جيشه مقاومة كبيرة ، وكان التوبيون مهرة في الرمي فرشقوا العرب بالنبل فأصابوهم بجراحات كثيرة وحلق مفقوعة ، وكان يسمون التوبيين رماة الحلق ، حتى عد بعض المحاربين مائة وخمسين عيناً مفقوعة . ولكن عمرا لم يزل يقاتلهم حتى عزل ، وجاء بعده عبد الله بن سعد بن أبي سرح فصالحهم على أن يدفعوا له رقيقاً وأن يأخذوا في مقابله طعاماً من القمح والعدس^(٢) .

وكان الرقيق الذي يقدم يبلغ أربعمئة رأس منها أربعون للوالي ، ولم يكن ذلك شاقاً عليهم ، بل كانوا يدفعون للحاكم الذي يحضر لقبض هذه الضريبة - وكانت تسمى البقط - زيادة عن هذا العدد المقرر كما كان الشهود الاثنا عشر يأخذ كل واحد منهم رأساً ، ويأخذ أمير أسوان عشرين : ولم تكن هذه معاهدة وإنما كانت هدنة^(٣) ويبدو أن الذي سهل هذا السخاء ما كان في بلاد

(١) الدعوة إلى الإسلام / ٣١ .

(٢) انظر فتح البلدان / ٢٣٨ - ٣٩ .

(٣) انظر فتح مصر والمغرب / ١٥٢ وما بعدها ولم يذكر ابن عبد الحكم شيئاً عن أعمال عمرو ، ولكنه بدأ بغزو عبد الله بن سعد الأسود ، وهم النوبة وبأن ذلك كان في عهد عثمان سنة ٣١ هـ - وجاءت صورة العقد الذي عقده عبد الله معهم في خطط المقرئ / ١٩٩/١ ، وقد حقق هذا العقد لهم استغلالهم كما طمان المسلمين على حدود بلادهم ، وبه فتحت البلاد للتجار المسلمين وللحصول على الرقيق ، وبه اختلط العرب بالتوبيين وبأبناء قبيلة البجة ، وسمح للتوبيين أن يجازوا البلاد المصرية غير مقيمين ، وأنهم إن قتلوا مسلماً انقطعت الهدنة .

وقال ابن عبد الحكم أنهم أول عام بنوا به بالبقط أهدوا عمرو بن العاص أربعين رأساً نكره أن يقبل منهم .

وظلت هذه الضريبة في اليهود التالية ، وكان المهدي العباسي يأخذ زكاة فوق الرؤوس المقررة ، وفي فتح البلدان أنهم كانوا يأخذون هذه الرؤوس من أعدائهم . فإن لم يجلبوا رجسوا على أبنائهم ، ثم كانوا يدفعون البقط كل ثلاث سنوات ، ثم كان للمسلمين مواقف متنوعة مع قبائل البجة ثم فشا الإسلام بينهم .

النوبة من فقر وعوز ، وكان النوبيون كثيرون الزوجات كثيرون النسل ، ثم إننا نجد بعد ذلك جماعة من المسلمين يقدمون كل عام فتاة إلى ملك الحبشة ضمن الجزية التي كانت مضروبة عليهم لينصرها^(١) .

وقد زاد عدد المسلمين بهؤلاء كثيراً ، وكان ابن أبي سرح يشتري الأسرى ليت المال ويعلمهم الإسلام . ودخل النوبيون في دين الإسلام تدريجياً ، ولم تنقطع صلات المصريين بهم ، ومنهم من كانوا مصريين على مسيحتهم ، واستطاعوا أن يحتفظوا باستقلالهم زمناً طويلاً^(٢) .

والواقع أن إقبالهم على الإسلام كان يختلف بين جهة وأخرى في هذه البلاد المترامية الأطراف ، فكانت البلاد القريبة من مصر أقرب إلى الإسلام من غيرها ، وكانت مملكة الحبشة ذات قوة بها تفرض ضريبة قاسية على من يجوارها من القبائل أو الجماعات الإسلامية^(٣) .

ولعل أشهر الذين برزوا في الفكر الإسلامي المصري هو يزيد بن حبيب ، فقد كان أبوه من سبي دنقله ، مولى لرجل من بني عامر من أهل المدينة^(٤) وهو فقيه محدث من علماء المالكية .

وعلى أي حال كان النوبيون - الأساود - على حظ من السذاجة ، وكانت فكرة المسيحية بينهم غامضة وكان بينهم من يعيشون على الفطرة ولا يعرفون عن الديانات السماوية شيئاً . « جاء عن المؤرخ ابن سليم أنه قابل رجلاً نوبياً عظيم المقرّة ، ذكر له أن بلده يبعد عن النيل ثلاثة أهلة » ، وسأله عن دينه فقال : « ربي وربك الله .. ورب الناس كلهم واحد ، وهو في السماء وحده ، وقال إنهم إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء ، أو وقع بدواهم آفة

(١) الدعوة إلى الإسلام / ١٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق / ١٣٠ .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) فتوح مصر ٢٥٤ .

صعدوا الجبل ، ودعوا الله فيجابون للوقت ولما ذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم - وما كان لهم من معجزات ، قال الرجل : إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ... (١) .

وذكر ابن بطوطة أن النوبيين ذكروا له أن السماء قد تمطر لهم سمكاً يلتقطونه لساعته ، وسألهم عن صفته فقالوا : إنه عريض به خطوط حمراء (٢) كما يذكر أهل دنقلة أنها من بناء جدهم (٣) وانتقلت قبائل البجة . وقبائل سودانية . إلى بلاد النوبة ، كما أن العرب هاجروا إليها وكثر عددهم على النيل الأزرق وثمرت ثروتهم وكانوا مسلمين فأحدثوا فجوة في مملكة الحبشة المسيحية ، وهنوا لهم مسجداً في سوية . وهي بلدة تبعد عن الخرطوم بنحو اثني عشر ميلاً - واندج العرب المهاجرون - ولاسيما قبيلة جهينة - بالأهلين بالمصاهرة فغيروا من طباع النوبيين وكسروا شوكتهم .

وفي القرن الثامن الهجري الخامس عشر الميلادي كانت دولة الفونج السودانية دولة مسلمة ، وقد مدت حدودها شرقاً إلى الحبشة والنوبة وأسست ولاية سنار ، وامتازت بقوتها فلم تكن كالدوليات الصغيرة التي تدفع الجزية للملك الحبشة المسيحي .

بهذا نجد أن بلاد النوبة غمرت بالمسلمين من عدة منافذ ، وتخللت أراضيها ولايات إسلامية ، ثم كان للتجار المسلمين آثار غير هينة في نشر الإسلام بينهم ، وبهذا كله تمشي الإسلام بينهم رويداً رويداً حتي تحولت البلاد كلها إلى الإسلام .

(١) ملخص من كتاب الدعوة إلى الإسلام ص ١٣٣ وهو نقل عن المقرئ في خطه ١/١٩٧ .

(٢) من مذكرات د. عبد المجيد عابدين «الأدب المصري» .

(٣) انظر هامش ١٣٢ من كتاب الدعوة إلى الإسلام - وفيه أن دنقلة مدينة قديمة كانت موجودة

أيام المصريين القدماء .

٤ - موقف المسيحية :

كان البطريق يعقوبى هو صاحب السيادة على الكنيسة النوبية ، كما أنه السيد أيضاً على كنيسة الحبشة ، وكان النشاط التبشيرى ضعيفاً وإقامة الشعائر المسيحية مهملة حتى أن الناس ربما مر عليهم خمسون عاماً لم يذهبوا إلى الاعتراف أمام قسيس أو يحضروا العشاء الربانى أو أى قداس . ولا بد أنه كان للانقسامات الداخلية والخلافات العنيفة بين القسس أكبر الأثر فى فتور التبشير ، فانحطت الحياة الروحية ولم يكن بين النوبيين دعاة من القساوسة من أى رتبة حتى أنهم طلبوا من نجاشى الحبشة أن يمدّهم بقسس فلم يفعل ، وكانت بلاد النوبة مليئة بالكنايس منها ما هو مغلق ومنها ما هو خال من أى نشاط سوى وجود صور القديسين به ، وكل ذلك هباً لدعوة الإسلام أن تجد مكاناً ، ولم يكن يعوقها إلا جهود النوبيين على ما ورثوه من مسيحية يعرفون اسمها ويجهلون قواعدها ، وقبل نهاية القرن السادس عشر الميلادى كانت المسيحية قد اضمحلت نهائياً واستسلمت لدعوة الإسلام .

وسبب آخر شديد الأهمية فى هذا الموقف ، وهو فساد رجال الدين المسيحى . وضعف ثقتهم فى أنفسهم ، وكان القسس بجانب ذلك يتصفون بالجهل الفاضح ، وكانت قلة الثقافة وعدم الدرس مما أدى إلى نقص القسس ، ومات أساقفة كبار فلم يكن ثمت من يحل محلهم .

وفى عهد صلاح الدين الأيوبي تمتع المسيحيون بتسامح لم يكونوا يحلمون به ، ولكن هذا التسامح لم يكن عاملاً لإنهاض الكنيسة بل كان من أسباب إقبال المسيحيين على الإسلام ، حتى إن رؤساء الأبروشيات تركوا المسيحية ليكونوا مسلمين .

وقد خففت الجزية حتى كانت ديناراً واحداً على الذكور الكبار القادرين ، فرأى الكثيرون فى تسامح الإسلام ما يُغري باتباعه ، وكانت الحبشة تفرض سلطانها على ساحل البحر الأحمر وعلى جزء كبير من شرق النيل

الأزرق ، ولكن وجود قبائل مسلمة مزق هذه المملكة ، وحقاً كان هناك مسلمون يدفعون الجزية لملك الحبشة ، ولكن من الناحية الدينية اعترت المسيحية .

• - في الحبشة :

كان بين العرب والحبشة صلات قديمة ، إذ كان التجار العرب يحرون إلى الحبشة بتجاراتهم ويعودون ببضائع أخرى ، وقد هاجر المسلمون الأولون إلى الحبشة مرتين ، أحسن النجاشي استقباهم وأكرم مئاوهم ، وكان قد عاش في بلاد العرب ورعى الغنم هناك ولذا كان يعرف اللغة العربية ، وبكى حين سمع القرآن ، ويقال إنه كان مسلماً يكتم إسلامه حتى إنه لما مات صلى النبي - ﷺ - صلات الغائب . وقد عاش المسلمون المهاجرون إلى الحبشة في عهده عيشة كريمة . ولكن لا يعرف أنهم بشروا هناك بالإسلام أو أن الحبشيين دخلوا الإسلام بدعوتهم .

والمجنون من قديم يحرون إلى الحبشة ، وهاجر عرب كثيرون إلى إفريقيا وأقاموا لهم مستوطنات على الشاطئ ، لسوء المناخ في الساحل الشرق للبحر الأحمر وما يخف به هناك من جبال شاهقة تجعل الجو خائفاً ، بينا الساحل المقابل يستقبل هواء البحر الجميل ، وتجاوز العرب المهاجرون الحبشة إلى السودان عن طريق النيل الأزرق ، فنقلوا الإسلام إلى السودان ووجدوا من السودانيين قبولاً له ، إذ كانوا وثنيين وأكثرهم يعيش على الفطرة .

ثم انتقلت قبائل الجلا السودانية إلى أراضي الحبشة ، وكانوا وثنيين فطبعوا بطباع الحبش فوثبنوا كثيراً من عاداتهم ولغتهم ، ومن جانب آخر اتصلوا بتجار المسلمين فقبلوا الإسلام ديناً عن طوعية ورغبة .

وفي القرن الرابع الهجري كان الإسلام يتمشى بين القبائل المتناثرة قليلاً قليلاً ، فكان هناك أسر إسلامية قليلة ، وكانت معاملة التجار المسلمين وما بدا على القبائل التي أسلمت من تقدم مدني مما يغري الآخرين بدخول الإسلام ، وكانت الكنيسة في حالة ركود تام .

وفي أول القرن الرابع عشر الميلادى حمل الحماس زعيماً كان يسمى أباعبد الله محمد أن يعيى جيشاً يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ محارب ، فقامت بينهم وبين الأحباش فى أمهرة معارك عديدة لم تأت بنتيجة حاسمة .

والواقع أن هذه البقعة ظلت مدة طويلة فى ذبذبة وتطاحن بين المسيحية والإسلام ، وكانت الصفة البارزة أن الناس كانوا يدخلون الإسلام طواعية وعن رغبة ، ويصلون عنه قهراً وغلبة ، حتى جاء الاستعمار الأوروبى فى الأراضى الحبشية وما حولها ، فبعث فى الكنائس روحاً جديدة ، وحارب الإسلام فى غير هوادة ، ثم صارت الحبشة مصدر تبشير وأكبر محارب للإسلام .

وكان الملك سيف أرعد المسيحى (١٣٤٢ - ١٣٧٠م) قرر إعدام أو نفى من لم يدخل المسيحية ، مما حمل المسلمين فى مملكته أن يتظاهروا بالمسيحية ، ولم يمض إلا نحو ربع قرن حتى قوى شأن المسلمين ، فأعلنوا استقلالهم عن الحبشة وطرّدوا الأحباش من بينهم ، وكان ذلك بسبب اضطراب الجلا وقيام الحروب بين قبائنها - وهذا مجرد مثال من أحداث الذبذبة فى هذا القرن والذى يليه .

وفى القرن السادس عشر كانت حركة أحمد القرن فانضم إليه سلطان مسيجة Maseggia وهى ولاية كانت بين الحبشة وسنار ، وكانت مسلمة تدفع الجزية لملك الحبشة ، فانتهزت الفرصة وانضمت للقرن (وستحدث عنه بعد) . وكان فى جيشها نحو ١٥ ألف جندى من النوبيين المسلمين .

وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان للمسلمين شأن بارز ، إذ كانوا محل ثقة الجميع بسبب ما اتصفوا به من أخلاق كريمة وعادات طيبة فى مقابلة ما كان عليه المسيحيون من إهمال وجهل .

وفى أواخر القرن التاسع عشر دخلت قبائل الحباب الثلاث الإسلام مأخوذِينَ بأخلاق المسلمين فكان ذلك كسباً كبيراً للإسلام ، لأنهم كثرو العدد ويشغلون مساحة واسعة من الأرض تقع بين خطى عرض ١٦° ،

١٧٣٠ هـ إلى الشمال الغربى من الصومال ، وتحول معهم قبائل أخرى من الجهات الشمالية فزاد عدد المسلمين كثيراً فى مقابلة خمود المسيحية ، وكان المسيحيون يدخلون الإسلام بكثرة أيضاً ، حتى أن أحد نواب ملك الحبشة «رأس على» الذى كان يحكم مؤقتاً وهو مسيحى ، قسم الوظائف وماغنمه من الكنائس بين المسلمين ، وكانت هذه الحالة من أكبر ما تمتع به الإسلام فى بلاد الحبشة . ويقابلها موقف مضاد لاتزال آثاره باقية .

ففى سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون ملك الحبشة مجمعاً ضم كبار القسس للنظر فى أمر مسلمى الحبشة ، وكانت الحرب المصرية الحبشية التى امتدت من سنة ١٨٧٥م إلى سنة ١٨٨٢ - دائرة الرضى ، واتهم مسلموا الحبشة بمعاونة المصريين ، فقرر الجمع إلا يكون بالحبشة إلا دين واحد ، وألزم المسلمون بدفع العشور للقساوسة وأن يبنوا من ماله الكنائس التى تدعو الحاجة إلى بنائها ، وأعطوا مهلة ثلاثة أعوام يستسلمون خلالها نهائياً . ليكونوا مسيحيين على المذهب اليعقوبى ، وأعطى المسيحيون الذين ليسوا من اليعاقبة مهلة عامين ليتحولوا إلى يعاقبة ، وأمهل الوثنيون خمسة أعوام ليتنصروا ، ولكن الملك جون لم يكتف بهذا ، فعاد بعد انتهاء الجمع بأيام قليلة فأعلن تحديد المهلة للمسلمين بثلاثة شهور يعملون فيها أو يطردوا من وظائفهم .

واضطرب المسلمون أن يذهبوا إلى الكنيسة ليعملوا ، ولكنه كان تدبيرا ظاهرياً فقط ، ولم يشمل قرار الملك النساء ، فبقين على إسلامهن ونشأن أطفالهن على عقيدة الإسلام وانتهر بعض حكام أو ملوك المقاطعات فرصة انشغال جون بهذه الفتنة فى بلده ، فأعلنوا إسلامهم واستقلالهم ، لكن ذلك لم يدم أيضاً .

واستمرت ذبذبة عدد من القبائل بين التظاهر بالمسيحية وإنكارها وبين الاتجاه إلى الإسلام والإكراه على تركه مدة طويلة .

وفى القرن التاسع عشر رغم استيقاظ التبشير وعنف الحكام نما النفوذ الإسلامى تلقائياً ، وكان هذا العنف مما بغض الناس فى المسيحية ، فتحولت قبائل مسيحية إلى الإسلام وأعلنته دينها مع بقاء أسمائها المسيحية .

وأورد أرنولد على سبيل المثال أسماء ثلاث قبائل من هذا النوع هي تاكلى Taklies ومعناها بنات يسوع ، وهبتية Hebtes (عطية يسوع) ، وقى ماريام Temaryam (عطية مريم) كما ذكر أن قبيلة منساع Mansa المسيحية دخل معظمها فى الإسلام ، وأرجع هذا الإقبال على الإسلام لنشاط الدعاة المسلمين من جانب وجهل الدعاة المسيحيين وفشو الجهل فهم من جانب آخر .

وفى النصف الثانى من هذا القرن اشتدت حركة التعصب ضد المسلمين ثم كان الملك السابق هيلا سيلاسى شديد الكراهية للإسلام شديد التعصب عليه ، شديد البغض للمسلمين فحرم وجود الإسلام نهائياً فى بلاده ، ولايجزئ مسلم فى الحبشة الآن أن يجهر بإسمه ، وفى المؤتمر الإسلامى الأول للأزهر سنة ١٩٦٤م أرسلت دعوات لبعض المسلمين لحضور المؤتمر ، ولم تجزئ السفارة المصرية على تسليمها ، ولم يسلم المدعون من المعاقبة .

وموقف الحكومة الحبشية من الإسلام موقف لاينسأه التاريخ ، وهو يسجل عليها من الخزى والعار مايسجله على حكومة جنوب أفريقيا ، وماسجله من قبل على حكومات العصور الوسطى .

سادساً : الدعوات الإسلامية في إفريقية

نورد هنا ملحّة عابرة عن أشهر الذين عملوا على بث الدعوة الإسلامية في هذه القارة مكتفين بأعمالهم البارزة .

١ - الميرغنية :

جماعة تنسب إلى محمد عثمان الأميرغنى (حولت الكلمة على لسان العامة إلى الميرغنى) وهو من تلاميذ أحمد بن إدريس (سى أحمد) المعلم ذى الشهرة ، وكان له تلاميذ وأتباع في مكة (١٧٩٧ - ١٨٣٣ م) وكان داعية موقفاً ، أرسل تلميذه محمد عثمان هذا إلى أفريقية للتبليغ الإسلامى فشق طريقه من القصير إلى النيل ، فقابل بعض الجماعات التى استجابت له ، وانتقل إلى أسوان ثم إلى دنقلة فالتف حوله عدد كبير من النوبيين ، ثم رحل إلى كردفان فأقام زمناً طويلاً حيث أقبل الوثنيون عليه وتقبلوا الإسلام وتحسبوا له ، وقد تزوج منهم وارتبط بقبائلهم ، فلما مات سنة ١٨٣٥ م قام أولاده بدعوته وتكونت بهم الطائفة الميرغنية ، وهى ذات أثر كبير فى هداية المسلمين وإدخال الوثنيين الإسلام ، وصادف دخول محمد عثمان فتوحات محمد على فى السودان فالتحلت مصر منه مقاوماً للمهدى وأتباعه الذين كانوا يحاربون مصر .

٢ - القادرية :

وهى جماعة تنسب إلى عبد القادر الجيللى الصوفى المعروف ، نشأت جماعته فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) - ودخلت أفريقية فى القرن الخامس عشر ، على يد جماعة استقروا فى الشمال الغربى من الصحراء الكبرى ، ثم انتقلوا إلى تمبكتو Tembectu ثم تكونت لهم فروع وشعب متناثرة فى أرجاء السودان الغربى من السنغال إلى مصب نهر النيجر ، وأقبل الوثنيون عليهم إقبالاً واسعاً فى القرن التاسع عشر ، ولم يكن الاستعمار الأوروبى قد بسط نفوذه بعد ولم يكن للمبشرين المسيحيين سناد منه ، وأهم ماكان لهذه

الجماعة من أثر أنها أنشأت عدداً كبيراً من المراكز ، وكانت المراكز الرئيسية الكبرى لهم - في كنتكا تمبكت في جبال فوتا جالون وبلدة موزاردو Musardo من بلاد المندينجو Mandingo - تقوم بإعداد المعلمين الذين يدرسون المذهب والإسلام في الشعب التابعة والناشئة ، وكانت ترسل بعوثاً إلى البلاد الإسلامية المعروفة مثل القيروان وطرابلس والأزهر بمصر كي يتزودوا بمعلومات أوسع ثم ليعودوا معلمين فسرت دعوتهم في صمت وهدوء بين بلاد واسعة ، وكان منهاجها السلمي يجلب الناس فيها ويحتذ بهم إليها ، ولا تزال لها خلوات ومجالس عديدة في أنحاء السودان .

٣ - التيجانية :

تعزى هذه الجماعة إلى السيد أحمد التيجاني ، نادى بها في الجزائر قبيل انتهاء القرن الثامن عشر فما لبثت أن امتدت إلى جهات كثيرة بسرعة ، ولم تكن بعيدة عن القادرية ولكنها اختلفت عنها في اعتمادها على القوة ، وفي عيها الطرق الصوفية الأخرى التي تعتمد على الخوارق والكرامات ، وقد أنشأت مدارس كثيرة كانت ذات أثر كبير في نشر اللغة العربية والإسلام^(١) .

وأشهر دعائها داعية يسمى الحاج عمر ، وهو ابن لأحد المرابطين ، واشتهر بعمله الواسع وتقواه ، خرج إلى الحج سنة ١٨٢٧ فتعرف بمكة على أحد أبناء التيجانية وكبير من دعائها فانضم إليه بحماس وحمية ، دفعه إليها حماسه الديني وتربيته إلى نشأ عليها ، ولم يعد إلى بلده ، إلا بعد خمسة أعوام ، لأنه عبر السودان الأوسط داعياً لفكرته ومعرفاً بها فانضم إليه خلق كثير ، وأقام عدداً من المدارس ، وفي سنة ١٨٤١ كان قد بلغ جبال فوتا جالون وكثر أتباعه ونمت في نفسه فكرة الجهاد ، فدعا أتباعه إلى التسليح ، وهجم على القبائل الوثنية التي كانت تقيم حول النيجر الأعلى والسنگال فدعاهم إلى

(١) انظر الإسلام والمسلمون في غرب أفريقية - للدكتور عبد الرحمن زكي ص ١١٣ ، والدعوة

الإسلام ونهاهم عن عبادة الأوثان ، ولم يتكلف في ذلك مشقة كبيرة ولا إراقة دماء إذ استجاب القوم لدعوته وبهرتهم كثرة أتباعه ، ولكنه قتل في إحدى هذه الغزوات سنة ١٨٦٥ وخلفه ابنه «أحمرو شيخو» ولم تكن له كفاية أبيه ، فاختلف أتباعه بعضهم على بعض ثم أظل الاستعمار الفرنسي البلاد ، ف قضى على حركة الجهاد ، ولكن الدعوة ظلت تتمشى سلمياً بواسطة الدعاة والكتاتيب التي تعلم القراءة وشيئاً من القرآن ومبادئ الدين الإسلامي .

وهناك - عدا الشيخ عمر - دعاة آخرون كانت لهم مواقف مشهودة مع الفرنسيين .

ومع دخول الفرنسيين نشطت حركة التبشير بثت كنائس عديدة فيما كان يسمى بالسودان الفرنسي ومن هنا بدأ التنافس بين الدعوتين ولا يزال .

٤ - السنوسية :

تتسم هذه الجماعة بالانزاع والهدوء ، واعتنادها على الاستنارة العقلية ، وقد استطاعت أن تبث أضواء الثقافة وتعرف بالفكرة الإسلامية في أنحاء القارة ، إذ أنشأت زوايا وكتاتيب في الواحات الأفريقية المسكونة كما كانت لها زوايا تمتد فيما بين مصر ومراكش ، وكانت واحة جغبوب وهي مركزها العام^(١) وانتقل المهدي بن السنوسي إلى واحة الكفرة ، ثم توغل جنوباً في بوربو Burio وتيبستي Tebusti ، وتوفي بها سنة ١٩٠٢ ، وبلغت زواياه

(١) مؤسس الجماعة السنوسية هو محمد بن علي السنوسي الجزائري ، أنشأها سنة ١٨٣٧ ، وكان هدفها أساساً إصلاح الدعوة الإسلامية على نسق ما فعل محمد بن عبد الوهاب ، ولكن كانت دونه تشدداً وكان يتوقع غارة إيطاليا فجعل مقره في الصحراء ، وانتشرت زواياه وتعاليمه ، وكان دعائه يجتهدون إلى الشمال في مصر ومراكش كما يجتهدون إلى الجنوب في السودان وإلى السنغال ، وكان يخرج من جغبوب دعاة يلقون المئات كل عام وكانت زواياه تضم آلافاً من جنسيات مختلفة ، وبإزالتها الفرقة بين الجنسيات أقبل عليها الأفريقيون ، وامتدت إلى جهات نائية في الشرق فوصلت بلاد العرب والعراق وسيرلانكا وأرخبيل الملايو ، وكانت عناداً للاستعمار الأوروبي وحوربت لهذا وضيق عليها (راجع الدعوة إلى الإسلام ٢٧١ وما بعدها) ، وانظر الفصل الذي جاء عنها في كتاب «الإسلام في القرن العشرين» .

الفرعية نحو ١٢١ زاوية كانت تتلقى تعليمها من جفوب^(١) وامتدت زواياهم ونشاطهم في شرق القارة وغربها ، ولا يقف فضلهم عند الدعوة إلى الإسلام ، وإدخال الوثنيين فيه ، بل لهم فضل كبير في تصحيح عقائد الكثيرين ، وقطع شوائب الوثنية من بينهم ، وتعميق الفكرة الإسلامية وقد أسلم على أيديهم قبائل بأكملها ، كما أنهم اشتروا عدداً كبيراً من الأرقاء علموهم الإسلام والقراءة والكتابة ثم أعتقوهم ، فعادوا إلى بلادهم معلمين ودعاة إسلاميين ، وبث السنوسية حضارة لا تقاس بها حضارة الأوروبيين الذين جلبوا إلى غانا زراعة الكاكاو ، ففضل دعايتها انقطعت عادة اغتيال الآدميين وأكل لحومهم ، وانقطع شرب الخمر وكانت عادة متفشية بالغة السخف ، وهي خمر مجلوبة من أوروبا وجد المستعمرون فيها ربحاً ونشاطاً لمصانعهم التي تنتجها - ولم يكن الميشر المسيحي أن يقضى على هذه العادة ، لأن المسيحية لا تحرم الخمر ولأن الإرساليات المسيحية لا تريد محاربة بلادها، وقد تكون الإرسالية التبشيرية قادمة مع حملة تجارية ، واستطاع السنوسيون أن ينشروا عادات مدنية مهيبة ، من الأمانة واحترام حقوق الآخرين وحسن الجوار ، والإحسان إلى أبناء السبيل ، وكانوا من قبل يؤكلون ا وظهر المسلمون في ملابس محتشمة وشاعت بينهم عادات النظافة بسبب الوضوء والغتسال ، وبوجه عام أنشأهم الإسلام إنشاء^(٢) .

وليس للدعوة الإسلامية في هذه الأقاليم كلها تاريخ مفصل ، والإلمام به شاق جداً إذ لا توجد له مراجع إلا ما كتب الأوروبيون الذين يكتبون تقارير لبلادهم عن الأقاليم التي يوفلون إليها أو يعملون بها ، وهذه تتحدث عن الإسلام عرضاً .

(١) هنا ما ذكره توماس آرنولد ، ولكنها كانت أكثر ، إذ ذكر برتشارد في كتابه «سنوسى بركة» أن لها زوايا في ١٤٦ مدينة وقرية .

(٢) انظر في الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧٣ وما بعدها تقريراً لبعض الرحالة عن أعمال هذه الجماعة وإصلاحاتها المدنية .

وجاء في بعض التقارير الرسمية^(١) عن بلاد المانجو شمال سيراليون أن المسلمين فتحوا بها مدارس لتعليم اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد (ﷺ) وأنهم جرياً على قواعد دينهم منعوا بيع الأطفال بيع الرقيق ، واستأصلوا ما كان هناك من عادات سيئة ، وجلبوا إلى البلاد حضارة عظيمة ، وأقروا بها الاطمئنان والاتحاد ، فازداد السكان وانتقل النفوذ إلى أيديهم ، ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشاراً سليماً فيما حول مستعمرة المانندجو حاملاً معه المزايا التي تقضى على خرافات الزنوج .

وجاء في تقرير آخر عن مسلمى ماندى Mendi - جنوب سيراليون ، أن كل مسلم هناك داعية نشيط ، وإذا اجتمع في مدينة نحو ستة أشخاص للإقامة سارعوا إلى بناء مسجد لنشر دعوة الإسلام ، وهم يحرمون على من يدخل الإسلام تناول أى مسكر ، ويقول سر آرنولد نقلا عن مراجعه أن المؤثرات الإسلامية تنتشر على ساحل غينيا بوجه خاص على أيدي تجار الحوصا ، وهم يتنون المساجد ويؤثرن على الوثنيين بسلوكهم القائم على الورع ، فدخلت الإسلام قبائل وثنية دون أى جهود سوى الرغبة من الوثنيين أن يقتلوا بهم في حضارتهم .

وفي داهومي Dahomey وساحل الذهب يتقدم الإسلام كل يوم ، حتى أن الحكام الوثنيين الذين لم يدخلوا الإسلام ييحبون لأنفسهم في حالات كثيرة أن يخضعوا لتأثير هذا الدين .

ولعل هذا يفسر لنا شكوى نيل من دخول خمسة من الوثنيين الإسلام كلما دخل واحد في المسيحية ، ثم أنه واضح كل الوضوح أنه لا جبر ولا إكراه على قبول الإسلام ، لكن الأمر الذى لا يحيد عن الاعتراف به هو قلة المعلومات عن الإسلام ، وهذا لقلة الدعاة المثقفين ولعدم معرفة اللغة العربية وإلى أن تقوم في هذه الأرجاء مدارس لتعليم مبادئ الإسلام واللغة العربية يعلم الله وحده ما يصيب الإسلام والمسلمين .

(١) هو التقرير الذى طالب بحل شركة - سيراليون - طبعته الحكومة البريطانية سنة ١٨٠٢م انظر

الدعوة إلى الإسلام ص ٣٧٥ وما بعدها .

ولمست هذه الأعمال جميعاً راجعة إلى الحركة السنوسية - ولكن معظمها يرجع إليها عن طريق مباشر وغير مباشر ، وينظر المبشرون إلى مشيخة الطرق بوجه عام وإلى الحركة السنوسية بوجه خاص نظرة اشمئزاز وضيق ، إذ يرونها ألد الأعداء الذين يواجهونهم ، وجاء في كتاب تاريخ التبشير للقس بلس Bless شكوى نقتطف منها هذه العبارات :

« إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق التبشير في أفريقية ، والمسلم فقط هو عدونا اللدود » .

« إن الخصم المعارض هو الشيخ أو الدرويش صاحب النفوذ في أفريقية أكثر مما هو كذلك في فارس ، فالشيخ والدرويش يجوبان شواطئ البحر الأحمر والنيجر والمغرب ... ، ويثان في السكان ظهور المهدي ونشر الإسلام .

أما الشيخ السنوسي - العدو الألد للنفوذ الفرنسي والانجليزى - فله تقاليد أخرى^(١) .

وتقاليد السنوسية تختلف حقاً كثيراً عن أعمال الدراويش ، لأنها تقوم على تعليم وبحث ثقافة ، ثم هي في جملتها لون من الجهاد في ميدانين في وقت واحد ، لأنها من جانب تدعو إلى تصحيح الفكرة الإسلامية ونفي الخرافات وشوائب الشرك عنها ، ومن جانب آخر تحت أتباعها على نشر الإسلام وتعليمه ، وتجعل ذلك كله فرضاً لا بد من القيام به .

ويقول بلس تعليقاً على هذا كله : إن المغاربة لا تزال تؤاودهم فكرة الجهاد ، وأن المعركة الكبرى بين أوروبا والإسلام ستكون في غرب أفريقية أو شمالها ، ولا ينبغي أن نستدل على حقيقة هذه المعركة المرتقبة بالقتال الذي وقع في السودان بين المهدي والانجليز .

ولعله يعنى أن معركة الانجليز والمهدي كانت سياسية لادينية ، ولكن

الباعث على الحركة أساساً كان دينياً ، وإن أفضاءه إلى السياسة كان بسبب ما يقرره الإسلام من أن الله لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً .

وعلى أى حال كانت حركة السنوسيين في هذوتها وبعدها عن المعارك والسياسة أنفع للإسلام من أخواتها من الجماعات الأخرى ، وكانت طريقتها تمثل وسطية محمودة فليست على شاكلة مشايخ الطرق تعتمد على الخوارق والكرامات ، وليست دعوة سياسية تقوم على الجهاد المسلح .

وأثرها الحضارى كبير في أفريقية ، فقد أنشأت مدارس وزوايا ، ولعلها أول من فتح مدارس للبنات في أفريقية كلها ، وكانت مدارس عديدة ، من أهمها تلك المدارس التى أقاموها بين قبائل توبو Tobo في شمال بحيرة تشاد ، فقد كانت الفتاة التى تعلمت في هذه المدارس مرموقة المكانة تتمتع بنفوذ في محيطها ولها تأثير على من يتصلن بها من الأفريقيات والبربر ، وكان خريجات هذه المدارس يمتزبن بمشاعر دينية عميقة ويبدلن جهداً لإدخال الأفريقيات الإسلام . وهذه ولا ريب من حسنات السنوسية الكبرى .

• - حركة المهدي في السودان :

مهدي السودان اسمه محمد أحمد ، ولقب المهدي غلب عليه من دعوته إلى هداية الناس للقرآن ، وينسب إلى الحسن بن علي - حفيد رسول الله ﷺ - ، ويقال أن أجداده الأقربين كانوا بمصر وانتقلوا إلى بلاد النوبة ثم إلى دنقلة . وكان عبد الله والد المهدي هو الذى انتقل إلى الخرطوم ، وكان من صناع السفن ، ومات في قرية كررى بأمر درمان - ومن المصادف أن ابنه جمع اسمي رسول الله ﷺ - محمد وأحمد - وأن أمه كانت تسمى آمنة^(١) ، وأنه فقد والديه صغيراً . وقد أخذ نفسه وهو صغير بالدراسة التى كانت سائدة في بلده فحفظ القرآن ودرس شيئاً من الفقه والتاريخ ، ولكن الذى تميز به هو شدة نسكه وعبادته ، وعزوفه عن كل أنواع اللهو ، ويبدو أنه عرف بذلك

(١) ويقال كانت تسمى زينب (الأصول الفكرية لحركة المهدي / ١٧) .

في بلاده قبل أن يخوض حروبه السياسية ، ثم كان لقاءه مع الشيخ عبد الله التعايشي فكان من أكبر مشجعيه على نشر دعوته باسم المهدي المنتظر ، ويقال أنه في أول دعوته قال أنه الإمام الثاني عشر الذي ينتظره الشيعة .

وتاريخ المهدي السياسي وحروبه من الأحداث المعروفة التي لاداعي لإعادتها^(١) والذي يعنينا هو موقف المهديين من التبشير ، وليس لهم حملات ولا إرساليات إلى جنوب السودان ، وليس لهم باسمهم معاهد أو مدارس دينية خاصة ، ويرجع ذلك إلى أن المهدي الكبير مات سنة ١٨٨٥ ، ولم يكن قد فرغ من حروبه وجهاده ووقعت البلاد تحت سيطرة الانجليز وخضع التعليم لسياستهم ، وانضم إلى المهديّة جماعات من الجنوب ودخل بسببهم كثير من الوثنيين الإسلام ، وآثروه دون دراسة ، ولكنه مجرد تقليد ، وأثره على أي حال أنه بغضهم في المبشرين ، وحال بينهم وبين التنصير ، وجمع حوله جمهوراً كبيراً من المسلمين وجههم للعبادة والإخلاص للإسلام .

وكان في سيرة السيد % محمد أحمد المهدي ، وسلوكه الخاص فضلاً عن قوة شخصيته ما يحمل على التعلق به وحبّه .

امتاز منذ صغره بالورع الشديد والترفع عن حطام الدنيا ، - أنكر على شيخه « الشيخ محمد الخير » أن يتقاضى راتباً من الحكومة ، لأنها في نظر المهدي حكومة ظالمة ، ومالها حرام ، فكان وهو تلميذ عند هذا الشيخ يأكل مما يأتيه من إخوته ، ولا يأكل ما يأتيه وحده ، بل يتصدق بمعظمه وربما كله ، ويخرج هو إلى الغابة فيحتطب ويقطع الأشجار ، ثم يحملها إلى السوق فيبيعها ويأكل من ثمنها ويتصدق ، ويروى عنه أكثر من ذلك أنه كان يصيد السمك من النيل فيتورع أن يضع له الطعام في الشص حتى لا يقوم صيده على خديعة ، ولا ندرى الطريقة التي كان يصطاد بها ، واغتيال السمك وخديعته سواء ، ويبدو أن كتب المناقب تضيف إلى أصحابها كثيراً . وكان يعمل عند أستاذه

(١) انظر في هذا الأصول الفكرية لحركة المهدي .

هذا - مع جارية وعبد له - في حرث أرضه وسقيها ليكون ما يأكله من مزرعة أستاذه حلالاً .

وأنكر على أستاذه أن يقيم في حفل لختان أولاده غناء ورقصا ، كما لم يرض ذلك لنفسه عندما تزوج .

أما بداية لقب المهدي فرجع إلى أن أحد شيوخه وهو الشيخ القرشي - وكان من العلماء وشيوخ الطرق وله أتباع كثير ، وكان مسناً جاوز التسعين - قال لأتباعه مرة إن زمن المهدي المنتظر قد أطل ، وأن علامته أن يبنى على ضريحه قبة ويختن أولاده ، فلما مات كان محمد أحمد المهدي هو الذي قام بهذا العمل ، وقدم عليه أثناء بناء القبة الشيخ عبد الله التعايشي من قبيلة التعايشة ويسمون البقارة وقال إنه جاء لأخذ الطريقة عليه وقال إن أباه قال له إنك ستقابل المهدي المنتظر .

وهكذا تضافرت عوامل أخرى حتى سنة ١٨٨١م إذ أعلن محمد أحمد أنه المهدي المنتظر الذي سيملا الأرض عدلاً بعد أن ملكت جوراً ، وقال : « أخبرني سيد الوجود محمد - ﷺ - بأن من شك في مهديتي فقد كفر بالله ورسوله . كررها لي ثلاث مرات » يقظة في حال الصحة^(١) وقبل شهوده قوله واشتهر أمره فجاءته الوفود من كل أنحاء السودان يبايعونه ، وكانت صيغة بيعته كالتى جاءت في الحديث : بايعوني على ألا تشركوا بالله شيعاً ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا بهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم .. إلخ .

واكتسبت دعوة المهدي الدينية قوة بسبب زعامته السياسية والحرية . وهو لم يتجه بمحيشه نحو الجنوب بل اتجه إلى مصر ، لهذا كانت جهود التبشيرية في أفريقية من طريق غير مباشر ، ثم بعد انكسار جيشه وموته ظلت دعوته تمتد ، وكل ما يؤخذ عليها أنها كانت مليئة بالخرافات . وأنها خلعت عليه صفات الألوهية والنبوة ، ومن يقرأ « منشورات المهديية » يجد بها أمثلة كثيرة لهذا ، ومنها :

(١) الأصول الفكرية لحركة المهدي السوداني / ١٣٤ ، ١٣٨ .

« تفضل (الله) على عبده .. بالخلافة الكبرى من الله ورسوله ، وأخبرني سيد الوجود (عليه السلام) بأنني المهدي المنتظر ، وخلفني - عليه الصلاة والسلام - بالجلوس على كرسيه مراراً بحضرة الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والخضر عليه السلام ، وأيدني تعالى بالملائكة المقربين وبالأولياء - الأحياء والميتين - من لدن آدم إلى زماننا هذا ، وكذلك المؤمنين (كذا) من الجن والإنس ، وفي ساحة الحرب يحضر معهم سيد الوجود - (عليه السلام) - بذاته الكريمة وكذلك الخلفاء الأربعة ، والأقطاب ، والخضر - عليه السلام - وأعطاني سيف النصر من حضرته ، - (عليه السلام) - وأعلمت أنه لا ينصر على معه أحد ، ولو كان الثقلين - الجن والإنس ، ثم أخبرني سيد الوجود - (عليه السلام) - بأن الله جعل على المهدي علامة وهي الخال على خدى الأيمن ، وكذلك جعل لي علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معي في حالة الحرب ، يحملها عزرائيل - عليه السلام - فيثبت بها أصحابي ، وينزل الرعب في قلوب أعدائي فلا يلقا في أحد بعداوة إلا أخذله الله » (١) .

ومنشورات المهدي مليحة بهذا ، ويبدو أن هذه الأفكار تسربت إلى ذهن المهدي من كتب الصوفية وعلى الأخص محي الدين بن عربي ، وتوسع الشيعة في هذا الباب ، وقد أخذ مهدي السودان عنهم كثيراً ، وأعلن أول أمره أنه الإمام الثاني عشر (٢) .

والذي يعنينا من أمره هو دعوته للإسلام ومدى انتشار الإسلام بها . وقد كانت لهذه الحركة أثر سياسي كبير ، واهتمت بها إنجلترا أكثر ، وقد رأينا قبل كيف ذهب بعض الانجليز إلى أحمد عرابي - في سيلان - ليسأله عن هذه الحركة ، وحقاً دخل بها كثير من الأفريقيين الإسلام ، وكان لها صدى في المستعمرات الانجليزية خصوصاً بعد أن هزم المهدي وجيشه الانجليز ، وقتلوا

(١) المصدر السابق / ١٣٣ - ٤ .

(٢) الإسلام في القرن العشرين ١٣٩ .

القائد «هكس» - وكان هذا القائد قد أوفد من بريطانيا في جيش كثيف ليقضى على المهدي . فقضى المهدي عليه وعلى جيشه . هذا ما جعل المستعمرات الانجليزية تطمع أن تتخلص منهم كما فعل المهدي ، وهو قد تخلص بدوافع الإسلام وقوانينه ، فرغب هؤلاء في الإسلام ليتخلصوا مثله من المستعمرين .

بهذا نجد أن الدعوة المهدية نشرت الإسلام بطريقتين - طريق سياسي ، وطريق روحاني هو الذي أخذ به الأفريقيون ، ومظاهره هي الكرامات ورؤية رسول الله والأخذ عنه .

وبعد هزيمة المهدي رأى المستعمرون أن يستكثروا من إرساليات التبشير ومن إنشاء الكنائس المختلفة .

٦ - حركة أحمد القرنين :

كان أحمد القرنين - وهذا اسم اختاره لنفسه بعد أن أسلم - ابناً لقسيس في مقاطعة أيجو Aijo ، وقد اتصل بالمسلمين وسمع بعض دعائهم في مقاطعة «عدل» فدخل الإسلام مقتنعاً به متحمساً لدعوته وكان حب السيادة والقيادة في دمه فقد صار أميراً لهذه المقاطعة ، وتاريخه غامض ، ولكن أكبر الظن أن نفوره من المسيحية واعتناقه الإسلام وتحمسه له أمور ترجع إلى طبيعته أكثر مما ترجع إلى دعاة الإسلام ، ولما قام بثورته انضمت إليه قبائل وجماعات كانت ضائقة بحكم المسيحية الذي أثقلها بالجزية وضايقها في عبادتها . وكانت هناك قبائل مسلمة تمتد أراضيها شمال الحبشة من البحر الأحمر حتى سنار ، وقبائل أخرى في الجنوب والجنوب الشرق للحبشة ، أي أن الدولة كانت محاطة بالمسلمين في معظم جوانبها ، ولكنهم كانوا جميعاً في حالة ضعف ، وليس لهم استقلال ولا جيش فرضخوا لأوامر الملوك ودفعوا الجزية لهم صاغرين . فلما قام أحمد القرنين بثورته انضموا إليه فشن حرباً على الحبشة حرباً استمرت من سنة ١٥٢٨ حتى سنة ١٥٤٣م وظفر بانتصارات جعلت الكثيرين ينضمون إليه . انضم إليه المسلمون الذين ذكرنا وانضم إليه زعماء وثييون فأسلم معهم

أتباعهم ، وانضم إليه مسيحيون أسلموا وآخرون دفعوا له الجزية ، وتخوف بعض آخرون فأسلموا ليظفروا بالمساواة مع قومه ، وهكذا ظفر الإسلام في هذه الحركة بأعداد كثيرة ، وانتهز الذين أجبروا على ترك الإسلام وتظاهروا بالمسيحية هذه الحركة فرجعوا إلى الجهر بإسلامهم . وبلغ عدد المسلمين المستجدين نحو عشرين ألفاً ، وهو عدد غير قليل ، ولكن ما لاريب فيه أنهم قبلوا الإسلام لأسباب عديدة ليس من بينها درس أصوله وفهم فلسفته ، وهذا ظاهر جداً .

وأثارت هذه الحركة البرتغاليين الذين كانوا يرغبون في تملك هذه البلاد ، فانضموا إلى الحبشة وانتصروا على القرين وأتباعه فقتل في سنة ١٥٤٣ م . وقد كانت ثورته خليفة أن تحول البلاد إلى إقليم مسلم ، وكان هو خليفاً بالانتصار لولا تدخل البرتغاليين .

٧ - موقف المسيحية من مصرع القرين :

لم تستفد المسيحية من مصرع القرين إلا استراحة من علو زاحف ، ولكنها فيما بينها كانت تعالي نزاعاً وجهلاً واختلافاً بين دعائها ومذاهبها ، فشغلها صراعاها الداخلي عن مقاومة التيار الإسلامي ، كانت هناك إرساليات تبشيرية من مذاهب مختلفة كل إرسالية تضارب الأخرى ، وكان البرتغاليون قد ملوا أصابعهم إلى مرافق الحياة ديناً وسياسة واقتصاداً - فضايقوا الناس ، ووللوا في نفوسهم حب المقاومة لكل أجنبي حتى ولو كان مسيحياً . وأدى هذا الشعور من جانب آخر إلى حب الإسلام والدخول فيه ، وكان مما حبيه إلى الناس أنه ليس خصماً لهم ولكن للمستعمر الأوروبي .

وخرج البرتغاليون أو أخرجوا قبل منتصف القرن السابع عشر أو حوالى سنة ١٦٣٢ م ، وشملت البلاد فوضى واضطرابات أطمعت فيها الأعداء ، فاحتل بعض من قبائل الجالا Galla . أراضي منها ظلوا فيها حتى الآن وهم مسلمون أو كانوا مسلمين .

وحيث كانت حكومة البلاد تعاني الضعف استقل رؤساء العشائر وجنحوا إلى الإسلام أو على الأقل عاملوا أبناءه بشيء من العطف ، وبذا ظل للإسلام تفوق على المسيحية ، وقدر عددهم في ذلك الوقت بثلاث سكان البلاد ، والثلاثان الآخران أكثرهم مسيحيون وفيهم قلة من الوثنيين .

وكان من قوانين الحبشة ألا يتولى عرشها ولارياسة إماراتها إلا المسيحيون ، وهذا مما جعل المسلمين دائماً تحت سيادة المسيحيين ، ولكن كثيرين من كبار العشائر المسلمين انقلبوا مسيحيين تفاقماً فلما تبوأوا مناصبهم استخدموا نفوذهم في تعضيد الإسلام ومساعدة دعاة وبنيه من طريق مباشر ، وغير مباشر ، وهكذا ظل المسلمون متفوقين في كل بقاع الحبشة ، وكان تفوقهم الأكبر والأهم في رقيهم الأدبي ، والأخلاق الإسلامية الملهية وحسن النظام والنظافة ... كل ذلك مما دعا إلى الافتداء بهم وحب الإسلام من أجلهم .

وفي القرن العشرين أدرك المسلمون الكسل وتغلبت عليهم القوى الحاكمة فمازال الإسلام يضعف ويستكين في الحبشة حتى أصبح محرمّاً نهائياً .

تري هل يدرك الإسلام في الحبشة ما أدركه في أسبانيا ؟

يعلم الله وحده مستقبل العباد .

الفصل الثالث
في
أوروبا

أولاً : غرب أوروبا

١ - هبة تاريخية :

احتك المسلمون بالدولة الرومانية منذ عهد رسول الله (ﷺ) وذلك في موقعتي مؤتة وتبوك ، ثم استمرت الحروب بين المسلمين وهذه الدولة الكبرى في ممتلكاتها الشرقية ، فانزعجوا منها أهم الأقطار التي كانت تعتمد عليها في تموينها .

ومنذ عهد الخليفة عثمان بدأ غزو المسلمين البحري ، إذ غزا معاوية جزيرة قبرص ، ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة ، وبعث إليها باثني عشر ألفاً فبنوا بها المساجد وعلموا اللغة العربية والقرآن ، وأقام المسلمون فيما فتحوه من الجزيرة يعطون الأعطيات ، فلما كان عهد ابنه يزيد أقفل هذا البعث ، وهدم أهل الجزيرة المدينة والمساجد^(١) .

وفي عهد معاوية غُزِيَ عدد من جزر البحر المتوسط ، وشنت حملات على بلاد الأناضول ، وأرسلت حملة لفتح القسطنطينية ، وتوالت عليها حملات في عهد خلفائه الأمويين وكان أشد ما غزيت به على يد مسلمة بن عبد الملك في عهد أخيه سليمان^(٢) .

ودخل المسلمون أسبانيا قبل نهاية القرن الأول الهجري ، ثم دخلوا صقلية وجنوب إيطاليا ، وأعادوا فتح الجزر التي في البحر الأبيض وحولوها جزراً إسلامية ، ثم فتح السلطان التركي القسطنطينية وتوغل في جنوب القارة ، فهذه هي الجوانب الثلاثة التي تلاقى فيها الإسلام والمسيحية في القارة الأوروبية .

(١) كان ذلك سنة ٣٥هـ أو ٣٣ - ويقال أن يزيد أعطى رشوة على ذلك من الروم ، انظر فتوح

البلدان / ١٥٨ - ٩ .

(٢) نفسه ٢٣٧ .

٢ - المسلمون في أسبانيا :

في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) غزا طارق بن زياد أرض أسبانيا بجيش كله من البربر وبه أفراد من العرب ، ثم تابعت المحجرة إلى تلك البلاد ، فكانت أولاً ولاية أموية ، ثم حكومة مستقلة ، ثم تقسمت دولاً وطوائف مستقلة ، وهانت أمام أعدائها حتى كانت نهايتها بخروج بنى الأحمر من غرناطة آخر معاقليها سنة ٨٩٧ هـ ١٤٩٢ م .

وكان المسلمون قوة مرهوبة الجانب طوال ماكانوا مستقيمين على الإسلام ولهم وحدة ، ثم تقسموا ودب فيهم الضعف واستشرى ، ثم سقطت إماراتهم تبعاً في أيدي أعدائهم بسبب تفرقهم وانقسامهم .

وأبعد ذبذبة للفتح العرى كانت محاولاتهم اقتحام جبال البرانس ودخول بلاد الغال (فرنسا) وقد أبدى آخر قواد معاركها عبد الرحمن الغافقي شجاعة وإقداماً في محاولته ، ولكنه لقي حتفه في موقعة بلاط الشهداء ، بين مدينتي تور وبواتيه سنة ٧٣٢ م ، وانسحب الجيش الإسلامي ولم يعاود هذه المحاولة بعد .

وكان خصم المسلمين وقائد جيش عدوهم هو شارل مارتل (المطرقة)^(١) فاكسب بهذا النصر شهرة واسعة ، واعتبره الأوروبيون خطأ سعيداً وعثوا هذا اليوم عيداً بهيجاً ، ولم ينقطع العرب بعد ذلك نهائياً عن هجومهم على البلاد الأوروبية ولكنها كانت محاولات خاطفة لم تؤد إلى استقرارهم في فرنسا ولا إيطاليا إلا قليلاً .

اتجه العرب بعد ذلك إلى نشاط سسي وإصلاحات داخلية ، حتى جاء عبد الرحمن الداخل وحفيده الناصر فبلغوا بالبلاد الأسبانية أسى ماكان من التمدن والتفوق العلمي في ذلك العصر ، ولم تنقطع حملات المسلمين على أوروبا بعد موقعة بواتيه .

(١) انظر حتى / ٦٨٢ ، ولوبيون / ٢٧٣ .

٣ - حضارة الإسلام في أسبانيا :

رفع المسلمون أسبانيا من حضيض التخلف الحضارى والاجتماعى فى كل جوانب الحياة إلى أعلى مستوى وصلت إليه حضارة تلك القرون ، فكان فى العالم كله ثلاث عواصم ذات حضارة متميزة وهى بغداد وقرطبة والقسطنطينية ، ويكفى أن يجعل المسلمون مستوى الحياة فى عاصمتهم «قرطبة» وأيضاً «الزهراء» أرقى من مستوى الحياة فى عاصمة الدولة الرومانية وكانت قرطبة تمتاز عن القسطنطينية بمركزها الثقافى فكان بها سبعون داراً عامة للكتب عدا المكتبات الخاصة وحوانيت الكتب ، وكان بها مساجد تختلف فى عددها وبلغ بها بعض المؤرخين ثلاثة آلاف ، وبالمساجد - الكبيرة على الأقل - مكتبات عامة أيضاً .

وكانت أبنيتها من طراز ممتاز يستهوى السائحين ، فكان قصر الخليفة فى مدينة الزهراء يحوى أربعمائة حجرة وجناح^(١) ، وله حديقة نادرة وفيها البركة المشهورة التى تعد من عجائب الدنيا^(٢) ، وكما يقول جوستاف لوبون كانت قرطبة طوال ثلاثة قرون أرقى مدن العالم القديم^(٣) وكان بها طرق تمتد إلى أميال طويلة كلها مرصوفة ومضاءة ، ولم يكن فى أى عاصمة أوروبية مثلاً .

وأدخل المسلمون نظاماً جديداً ورواجاً فى التجارة والصناعة والزراعة فبانت البلاد تنعم بثراء وتقدم علمى واجتماعى فى جميع مظاهر الحياة .

التقدم العلمى :

هذا الجانب الحضارى أهم مايعنينا فى هذا الحديث ، وهو لايسجل فضل المسلمين على أسبانيا وحدها بل على أوروبا كلها، وغرب أوروبا أيضاً .

(١) انظر حتى / ٦٨٠ .

(٢) يأتى وصفها فى كتب الأدب أنه كان فى وسطها أسد يمج الماء فى تلك البركة من فيه وأنه كان دقيق الصنعة عظيم الروعة لم يشاهد الملوك أبهى منه فيما خلف الأولون .

(٣) حضارة العرب ٢٧٣ .

وكان عهد عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم قمة ما وصلت إليه هذه النهضة العلمية فهما استقدما العلماء من الشرق ، وبعثا الرسل والنساخ لنقل الكتب إلى عاصمتهم ، وأغدقا العطايا والمكافآت للعلماء ، وكان جامع قرطبة الكبير جامعة تدرس فيها العلوم المختلفة وكان الطلاب مسلمين ومسيحيين يفتنون للتعلم في هذه الجامعات من أنحاء مختلفة من أوروبا من فرنسا وألمانيا وإنجلترا ومن أريقية وآسيا .

وقد تروت الكتب التي كانت في مكتبة الحكم وحده في قرطبة بنحو (٤٠٠,٠٠٠) أربعمئة ألف كتاب ، وكان الفهرس الذي يحوى دواوين الشعراء مكوناً من ٤٤ مجلداً بكل مجلد عشرون صفحة .

وكان هناك عدد من الجامعات - عدا جامعة قرطبة - تدرس الفلك والرياضيات والكيمياء (الحيل)^(١) - وكانت الفلسفة تدرس أيضاً قبل مجيء دكتاتورية بنى عامر - وظلت بقية العلوم الأخرى ، وكان تقدم الطب ملحوظاً .

٤ - حرية الدين :

على عادة المسلمين في كل بلد نزلوه كفلوا حرية الدين وتركوا للنصارى كنائسهم وأديرتهم ، كما تركوا لليهود معابدهم ، وكان الأساقفة يعقدون مؤتمراتهم الدينية حتى في قرطبة مقر الخليفة وعاصمة أسبانيا الإسلامية ، وقد بنوا عدداً كبيراً من الكنائس أيام حكم المسلمين ، وهذا من الأدلة الواضحة على تسامح المسلمين^(٢) وكانت هى البلد الأوروبى الوحيد الذى يتمتع فيه اليهود بحماية الدولة ورعايتها وهذا سر كثرة اليهود في أسبانيا في ذلك الوقت^(٣) .

(١) انظر لوبيون / ٢٧٤ - والفصل كله - « حضارة العرب في أسبانيا » قيم يستحق المراجعة والدرس .

(٢) انظر لوبيون / ٢٧٦ - ٧ .

(٣) نفسه .

وقد هذب المسلمون طباع الشعب الأسباني الخشنة ، وعلموه في بطن شديد كثراً من التسامح الذى لم يكن يعرفه ، بل كانت الغلظة والشدّة والتعصب المتغالى أبرز صفاته ، وقد ظلت هذه باقية في رجال الدين المسيحي الذين جنوا على بلادهم وعلى أوروبا كلها أشنع جناية بسوء معاملة المسلمين بعد أن دالت دولتهم ووقعوا تحت حكم المسيحيين .

وأرجع جوستاف لويون هذه الخصال العربية الكريمة إلى صفات المروسة العربية^(١) كما أرجع إليها أكثر مما أرجع إلى الدين صفة التسامح التى قال أنها أئمن ما يتصف به الإنسان ، وقد وازن بين ما فعله القائد العربى حين حاصر طليطلة في سنة ١١٣٩م فاستعطفته ملكتها النصرانية قائلة أنه لا يليق ببطل شهيم كريم أن يحاصر امرأة ، فرجع عن حربها من فوره ، وبين أحداث وقعت من «البطل المتحدى»^(٢) ، ومن ملك غرناطة المدعو بطره (بطرس) .

فالبطل المتحدى الذى لقبه العرب بالسيد Cidy The Chaling لم يكن إلا رئيس عصابة وضع نفسه تحت المزايدة جندياً مرتزقاً - وقد شوى حاكم بلنسية على النار ، لأنه ظن أنه يخفى عنه كنوزاً في القصر^(٣) ، وكان قد قطع لبلنسية

(١) صفات الفروسية في هذا الوقت تعادل صفات النجدة والشهامة العربية ، نقلها العرب إلى أوروبا ولخصت إذ ذاك في عشر صفات عامة هي : الصلاح والكرامة ورقة الشمايل والفصاحة والفرجة الشعرية ، والقوة البدنية والمهارة في ركوب الخيل واستعمال آلات الحرب التى كانت سائدة ، ونقل الأوروبيون لقب الفروسية حتى كان من الألقاب التى تمنح من الملك لقب فارس Knight ولكن كانت لهم صفات أخرى منها الغدر والحيانة والوصول إلى الغرض بأى وجه . مما يوضح أن تمدن المسلمين يرجع إلى الإسلام .

(٢) البطل المتحدى ، أو السيد المنازل - هو «رودريك القيافارى» قشتالى عارب مرتزق مع النصراني ومع المسلمين أيضاً ، ومن بطولاته أنه رد الموحدين من دخول بلنسية فاعتبر ذلك مجداً تغنى به شعراء عصره ، ويحفظ الشعر الأسباني القديم روائع قيلت فيه ، وكما يقول (سيد يو) أنهم جعلوه يثل أبطال الأليانة والأوديسة - أنصاف الآلهة اليونانية ، ويصفه هو بأنه كان رئيس عصابة جشعاً حقوداً ، شديد الجلافة مستخفا بالقيم الأخلاقية .

(٣) سيأتى حديثه .

وساغوته عهد أمان لم يرع منه شيئاً بل عذب الأسرى ، وحرق بعضهم وأطعم آخرين الكلاب . ونقل عن المؤرخ الثبت سيد يو تأكيداً تفوق العرب على الأوربيون في الأخلاق ، وأن ملوك قشتالة - وبيرة كانوا يعرفون فيهم صفاتهم الحميدة فكانوا يذهبون إلى قرطبة ليقابلوا أطباءها ويحصلون منهم على الدواء .

وليس من هنا هنا أن نفيض في المدينيات التي نقلها العرب إلى أسبانيا واستفادت منها أوروبا كلها ، وحسبنا هذه اللمحة لنذكر في موازاتها لمحة موجزة أيضاً مما عمل أعداؤهم .

ونسجل قبل المضي في هذا العرض أن فتوحات المسلمين هذه لم تكن تتسم بسمات عسكرية ولا أطماع مادية وأنهم أعطوا البلاد كثيراً جداً من التقدم المادى والعلمى والاجتماعى والأخلاق ، وأن الذين دخلوا الإسلام من مسيحي أسبانيا أو يهودها لم يدخلوه تحت رهبة أو إكراه وأن روح التسامح والإخاء الإنسانى كانت بادية في كل أعمالهم ، ولانستطيع أن نجارى لوبون في ردها إلى نظام القروسية ، لأن العرب في حروبهم الجاهلية لم يكونوا يتسمون بهذه الصفات ، ولهم حرب معروفة باسم حرب الفجار ، استباحوا القتال فيها أثناء الأشهر الحرم .

٥ - بداية التراجع الإسلامى :

كانت آخر ذبذبة لمد الفتوحات الإسلامية في أوروبا هي موقعة تولوز ، ولكن المسلمين ظلوا بعدها في قوة حتى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى ، إذ غلب عليهم طابعهم العربى والجاهلى ، وعملوا لأنفسهم أكثر مما عملوا لأمتهم ، فتقسمت أسبانيا إلى عدد من الدويلات ، فذب فيها الضعف بينما بدأت في خصومهم بوادر الوحدة والقوة .

وكان أول اتحاد بين قشتالة وليون على يد فرديناند الأول وابنه الفونسو السادس ، فتكونت دولة موحدة ذات قوة ، وتلقب الفونسو بلقب

الامبراطور ، وجاء بعده الفونسو السابع فتسمى بملك الديانتين - المسيحية والإسلامية - خديعة للمسلمين ، ومنذ عهد هذا الإمبراطور بدأ تنصير المسلمين ، وطمس اللغة العربية .

وفي القرن الخامس عشر بدأت الحركة الكبرى ، إذ تزوج الملك فرديناند صاحب أراجون من الملكة إيزابيلا صاحبة قشتالة ، وبذلك اتحد التاجان اتحاداً أبدياً ، ثم ظلت مملكتهما تتسع وتنداح حتى أخرجت آخر أمير مسلم سنة ١٤٩٢ ، وهو العام الذى أبحر فيه كولومب إلى أمريكا - وكانت رحلة كولومب ذات دافع ديني إذ كان مبحراً إلى الهند بهدف حصار المسلمين هناك بين مسيحيي الحبشة من الغرب والذين يهاجرون معه من الشرق .

ظل فرديناند يستولى على معاقل المسلمين الكبرى طليطلة فقشتالة فقرطبة... وبقيت غرناطة تحت أمرة بنى الأحمر ، وهم أسرة متنازعة بعضهم لبعض عدو ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، فكانوا باختلافهم عوناً لأعدائهم ، على أن اختلاف المسلمين في الأقطار الشرقية كان عاملاً آخر في تعجيل سقوط أسبانيا - فقد استغاث بهم الأسبان في أفريقية ومصر وسوريا ، وبالمملك العثمانى بايزيد فكان لكل منهم شأن يغنيه ، وكان كل قطر يتخوف جاره ويتربص به ، فاضطرت غرناطة آخر معقل إسلامي إلى الاستسلام سنة ٨٩٧هـ (ديسمبر ١٤٩١م) - وبذا طويت صفحة من تاريخ الإسلام في تلك البلاد .

٦ - محبة الإسلام العظمى :

في اليوم الثانى من يناير ١٤٩٢ دخل صاحباً الجلالة الكاثوليكية غرناطة ، ورفع الصليب على الشرفات العليا في المدينة ، وأصبحت أسبانيا كلها مملكة كاثوليكية ، وأزيل عنها اسم الإسلام وكل شاراته ، وبقي المسلمون المساكن في حماية المسيحية ، ومرت سبعة أعوام وهم في حرمان من غذائهم الدينى ، ولا يمارسون طقوسهم إلا بمشقة ، وفي سنة ١٤٩٩ ، قاد الكاردينال شمينيه حملة اضطهاد عنيفة تحمل المسلمين على ترك دينهم واعتناق النصرانية ورأى

أن يبدأ حملته بإحراق الكتب الإسلامية حتى لا يقرأها المسلمون ، فأحرقت ، ثم بدأت محكمة التفتيش أعمالها الوحشية ، فكانت تعاقب كل من بدا عليه مظهر إسلامي . وسموا المسلمين «المورسكوس» أى المسلمين الصغار ، وحرموا اللغة العربية ، وكان هذا العمل شاقاً على المسلمين واضطروا من أجله إلى النفاق ، فتكلموا اللغة العربية فيما بينهم سراً ، واتخذوا لهم أسماء عربية غير الأسماء الرسمية المسيحية أو الأوروبية ، وعملوا على إخفاء كتبهم فكانوا يضعونها بين جدرانين في بيوتهم ، ولا زال يكشف إلى الآن عن غطوطات دفيئة بين الجدران القديمة ، وأعلنوا المسيحية ديناً لهم وأبطنوا الإسلام ، وكانوا يعقدون عقود زواجهم في الكنيسة ثم يرجعون ليعقدوا عقوداً إسلامية .

وكانت حركة التصير هذه تشتد عاماً بعد عام . ففي مستهل القرن السادس عشر صدر قرار ملكي بارتداد المسلمين في قشتالة وليون عن دينهم إلى النصرانية أو الجلاء عن البلاد ، ثم بعد مدة وجيزة صدر قرار مثله في أراجون ، ثم أصدر فيليب الثاني سنة ١٥٥٦ م قراراً أجراً وأوسع دائرة ، قضى فيه أن يهجر المسلمون لغتهم وعاداتهم ، وأفتى بعض القسس بأن المسلمين نجس حتى حماماتهم وأبنيتهم ، وهدمت الحمامات فعلاً ، وكان هذا عملاً سيئاً جداً على البلاد .

وفي سنة ١٦٠٩ م أصدر فيليب الثالث أمراً بطرد المسلمين من البلاد نهائياً ، فقد عاش المسلمون إذن قرناً وبعض القرن في هوان ومعاناة ثم طردوا . وقد لاقوا كثيراً من أعمال الوحشية ، فبينما هم يهيمون بمغادرة البلاد يكمن لهم في الطريق كمين ينقض عليهم ليبيدهم ، وقضت محاكم التفتيش بإحراق كثير من المسلمين الذين تنصروا لاتهمهم بالنفاق ، وقال كاردينال طليطلة إن كانوا قد أخلصوا في نصرانيتهم فسيدخلون الجنة ، وإن كانوا قد نافقوا فهم أهل للإحراق ، وكان هذا الكاردينال رئيس محاكم التفتيش فقضى بقطع رقاب الذين لا يتنصرون من العرب رجالاً ونساء وشيوخاً وولداً ، وتفضل الراهب الدومينيكي «بليدا» فأشار بضرب رقاب العرب جميعاً ، وأيده

رجال الاكليروس في رأيه ولكن الحكومة لم تأخذ به خوفاً من الثورة ، وفي سنة ١٦١٠م أمروا بالجللاء فقتل أكثرهم في الطريق ، وبارك بليدا هذا العمل ، -وأعمال الاضطهاد والقتل والتعذيب التي عملوها مما تقشعر له الأبدان^(١) .

وقد أبدى جوستاف لوبون أسفه البالغ لما أصاب أسبانيا بعد أن خسرت مليون مسلم من رعاياها في بضعة شهور ، وذكر أن مذبحه بارتلمى القضيعة^(٢) لا تعد شيئاً بجانب المذابح الكثيرة التي حدثت إذ ذاك ، وأن عدد المسلمين الذين خسرتهم البلاد يبلغ ثلاثة ملايين وكانوا أئمة البلاد في مظاهر حضارتها .

عادت أسبانيا بعد خروج المسلمين تغط في ظلام الجهل والتأخر ، وظلت متعصبة للكاتوليكية حتى القرن العشرين ، ومنذ سنوات نالها شيء من التسامح فسمحت بالمذاهب الأخرى ، وأذنت بإقامة مركز إسلامي .

كانت هذه الاضطهادات غريبة وعجيبة في حينها ولكن تلتها اضطهادات أخرى في أقطار متباعدة ، وقد مر بنا ما يصيب المسلمين في جنوب أفريقية وفي بلغاريا والصين وما يعانيه الآن مسلمو الفلبين .

٧ - حصاد هذا التعصب :

إذا رجعنا إلى الوراثة ثمانية قرون لنقدر نتائج دخول العرب أسبانيا ، وما أفاده كل من العرب والأوروبيين ، وجدنا أن الأوروبيون استفادوا من دخول العرب ودخول الإسلام بلادهم أكثر مما استفاد المسلمون منهم ، وأن أوروبا جنت من المسلمين حضارة وعلماً ورقياً اجتماعياً ، وأن آثار العرب مثلت خطوة إيجابية واسعة في تاريخ الأوروبيين ، والآن خسرت أسبانيا وخسرت

(١) راجع معلومات أوسع عن هذا فيما كتبه الدكتور عبد العزيز الشنلوي في كتابه « الدولة

المثالية » ج ١/٩٥ - وكتابه «أوروبا في مطلع العصور الحديثة (٥٧٨ - ٥٨٠)» وتاريخ العرب المطول لفيليب حتى - ٧١١ وما بعدها - وجوستاف لوبون (حضارة العرب) .

(٢) كانت مذبحه كنيسة سان بارتلمى بسبب الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت ، وقد ذبح

المجتمعون في الكنيسة حتى كانت دماؤهم تسيل من تحت أبوابها إلى الشوارع .

أوروبا كلها خسارة فادحة بطرد المسلمين من بلادهم ، وكما قال جيون
لونجج العرب في معركة بلاط الشهداء ودخلوا فرنسا لتقدم وجود الجامعات
الأوروبية قرنين من الزمان .

خسرت أوروبا بطرد العرب وطمس حضارتهم في حياتها العلمية وحياتها
المادية جميعاً .

أغلقت الجامعات وأيدت الكتب وهدمت المكتبات ، وقد كان في قرطبة
وحدها سبعون داراً للمكتب ، وكانت دار الحكمة التي أسسها ونماها الخلفاء
الأمويون تضم ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف مجلد ، وأنفق الناصر وابنه الحكم
أموالاً طائلة في جمع الكتب ، وكان رجال الحكم يحضرون له المخطوطات من
مختلف العواصم الشرقية - من القيروان والإسكندرية ودمشق وبغداد.... ،
وحين يتعذر شراء الكتاب يكلف الوراقون بنسخه ، كذلك استقدم الخلفاء
مشهورين كباراً من العلماء منهم أبو علي الفارسي ، ووفد عليهم تلقائياً أبو الحسن
علي بن نافع المعروف باسم زرياب^(١) ، وفد علي عبد الرحمن الناصر وازدهر
وازدهرت أعماله في عهد الحكم ، وكان الأمويون ينافسون العباسيين في
النشاط العلمي .

ولم تكن جامعات المسلمين في الأندلس وفقاً على المسلمين ، ولا على
الأسبانيين ، بل كانت تنمى طلاباً من مختلف الأقطار ومختلف الديانات ،
وكان الذين يعيشون إلى نور العلم يفدون من الأقطار الأوروبية البعيدة ، وكان
الشعب الأسباني يفوق الشعوب الأوروبية كلها في مدنيته وثقافته ، إذ بينما
كانت الأمة فاشية في كل هذه الأقطار ، كان الشعب الأسباني - فيما يقدر
المستشرقون المحدثون وعلى رأسهم دوزي - كله يقرأ ويكتب ، هذا لرواج

(١) هو المغني المعروف تلميذ الموصلي ، وزرياب اسم للعنديل ، أو لطائر مغرد أسود ، وهو
أيضاً الذهب أو ماء الذهب ، وقد أدخل زرياب على حياة الأندلسيين كثيراً من التغير وتعلموا منه كثيراً
من العادات .

دور التعليم وكثرة الكتب والمكتبات . أما في الأقطار الأوروبية الأخرى ، فلم يكن يعرف القراءة والكتابة إلا أفراد معظمهم من رجال الأكليروس .

وكانت أسبانيا قبل دخول العرب قطراً متأخراً ، بل أشد أقطار أوروبا تأخراً في كل شيء ، وقد وثب بها العرب هذه الوثبة الواسعة ، إذ ملأوها علماً وأدخلوا عليها عدالة اجتماعية ونشاطاً اقتصادياً ونهضة زراعية ، وبثوا فيها القدن في المساكن والملابس ونظم الحياة العامة والعادات ، ومظاهر الحفلات والاجتماعات ، وظلت أرقى مدن العالم لمدة ثلاثة قرون^(١) والذي تجدر ملاحظته أن هذا الرقي جاء باسم الإسلام وفي ثوب إسلامي .

وكان الطلاب يفدون من الأقطار البعيدة - من ألمانيا وسويسرا وإنجلترا . وترك لنا المقرئ صورة رسالة من جورج الثاني ملك إنجلترا إلى الخليفة الإسلامي في قرطبة وقد أرسل بعثة من البنات الأشراف الانجليزية ترأسها ابنة أخيه « دويانت » وأرسل مع البعثة كبير موظفي القصر الملكي ومعه رسالة إلى الخليفة ، وفيها يشي على معاهد العلم الإسلامية ، ووقعها بكلمة : « من خادكم المطيع جورج » - وأرسل له هدية ثمينة . ورد هشام هدية أيضاً ورسالة مهذبة^(٢) .

(١) انظر حضار العرب ٢٧٣ .

(٢) جاء في رسالة الملك جورج :

من جورج الثاني ملك إنجلترا والقال والسويد والبرونج ، إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس ، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام ، .. بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بهفضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة ، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دويانت على رأس البعثة ... وقد زودت الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص .

وكانت هديته شعبانين من الذهب الخالص طول الواحدة ثلاثة أذرع ، وأربعة وعشرون قطعة

ذهبية رصعت بالنقوش البديعة .

وجاء في رد الخليفة :

وكانت هناك بعثات أخرى من بلاد أخرى ، وبلغ عدد أفراد البعثات سبعمائة طالب وطالبة في عهد عبد الرحمن الناصر . ولا ريب أنهم تعلموا فنوناً كثيرة ، ولكن لم تمدنا المصادر بتفاصيل المناهج التعليمية التي اتبعوها ، ولا بد أنهم تعلموا اللغة العربية ، ولا تعرف مدى ما علموا من مبادئ الإسلام ، ونلمس في هذا العمل مدى تسامح المسلمين ، ويكفى أن المسلمين كانوا أرقى من انجلترا ، وقرطبة أرقى من لندن ، ويقول جوستاف لويون : إن رخاء أسبانيا القليل قبل أن يدخلها العرب ، وثقافتها الضحلة [في العهد القوطي] لم تكن تناسب غير الأجلاف^(١) .

كان المسلمون في أسبانيا يستمدون أسس تمدنهم من ينبوعين كريمين - الشهامة العربية ومبادئ الإسلام ، فقد كانوا حقاً يتسمون بالفروسية التي تقوم على نبل الأخلاق وشرف الطباع ، واستقاها منهم الأسبان النصارى في ببطء بالغ ولكن لم يصلوا إلى مكانة العرب^(٢) وقد اتخذ الأوروبيون بعد ذلك لقب فارس Knight - من ألقاب الشرف التي يمنحها الملوك .

وبدت بين المسلمين - على غير ما كان مألوفاً بين الأوروبيين في العصور الوسطى - صفات الرحمة بالعدو المغلوب ، والعفة عن النيل من الضعاف والنساء والجرحى ، ويذكر المؤرخون مثلاً لذلك أن والى قرطبة حاصر مدينة طليطلة في سنة ١١٣٩م فأرسلت إليه الملكة «بيرنجر» أنه لا يناسب بطلاً شهماً

= « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه سيد المرسلين ، ... إلى ملك انجلترا وايقوسيا واسكتلنداويا . الأجل ، لقد اطلعت على حماسكم فوافقت - بعد استشارة من يعنهم الأمر - على طلبكم ... تعلمكم أنه سيفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم ، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد ، والمقابلة أبعث إليكم بغالى الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا ... »

(من كتاب زرياب « من سلسلة أعلام العرب رقم ٥٤ - بقلم الدكتور محمد أحمد الحفنى .

(١) حضارة العرب / ٢٧٢ - وتقدمت صفات الفروسية ص ١٣٠ .

كريمياً أن يحاصر امرأة ، ... ففك حصارها في التروحيها ويقابل هذا الحادث أن «رودريك الفيفارى» الذى يصفى عليه الأوروبيون صفات البطولة حاصر شيخاً مسناً ولم يجد لديه ما يطعم فيه من مال ، وظن أنه يخفى أمواله عنه فقدمه طعمة للنار غير راث لشيخوخته ، وكان هذا العنف خلقاً متبعاً وشائعاً بينهم .

أدخل المسلمون على أسبانيا المال والعلم والحضارة وسمو الإنسانية ، وكان نشاطهم موجهاً إلى كل فروع العلم والصناعة والفنون ، وأنشأوا فى أسبانيا الطرق الفسيحة الطويلة المضأة بالأنوار الكاشفة ، وأكثروا من إنشاء الجسور والفنادق والمساجد ، وكانت مساجدهم مدارس وجامعات ، واستغرق تأسيس هذه الحضارة جهداً كبيراً وعاد بنفع كبير ، ولكن هدم هذه الأسس الحضارية كلها كان سهلاً ميسوراً وفى وقت قصير .

هذا كان موقف بناء الحضارة الإسلامية فماذا كان موقف خصومهم .

مثل أكرمينيس كبير الأساقفة أحط أنواع الوحشية إذ حاربها معالم هذه الحضارة مبتدئاً بوسائل المعرفة ، أحرق ثمانين ألف كتاب ٨٠,٠٠٠ ، وصار لإحراق الكتب سنة متبعة . وفرح رجال الدين المسيحي يرفعهم الصليب مكان الهلال ، ولم يلتفتوا إلى الفرق الهائل بين الحالتين ، فاهلال كان يرفرف على ربوع علم وحضارة ، وعلى أثرى مدن العالم بالعلم والأخلاق ومعاني الإنسانية ، أما الصليب الذى حل محله فكان يشرف على أطلال مظلمة وجعل فاضح ووحشية لاتليق بالإنسان ، وإذا كانت هذه إحدى المحن التى واجهها الإنسان - وما ذكرنا منها إلا قليلاً - فهى توضح فرق ما بين التبشير الإسلامى والآخر المسيحي .

وكأن قتل المسلمين والتكثير بهم من أعمال القربان أو تطهير المسيحية ، وقدمنا شيئاً من هذا وليس من المهم أن نستقصى أنواع التعذيب .

كان فيليب الثالث هو بطل الرواية الأكبر ، وهو الذى أصدر قراراً فى سنة ١٦٠٩ بطرد المسلمين نهائياً من بلاده ، ودفعتهم القوى الفاشية إلى مفارقة

البلاد . بينما وقف القسس ينظرون إليهم في شماعة وفرح ، وكانوا يساقون إلى البحر جماعات متتالية يحملون أمتعتهم وأطفالهم في حزن وإجهد ، بينما كانت الكمائن تترقبهم فتتقض عليهم ، وقتلت مرة ثلاثة أرباعهم وهم آلاف والراهب النوميكنى بليدا يبارك هذا العمل ، ومرة كانت قافلة مؤلفة من ١٤٠,٠٠٠ مائة وأربعون ألفاً من المسلمين المهاجرين قتل منهم بمشورة بليدا وأمام عينيه ١٠٠,٠٠٠ مائة ألف ، وتقدر عدد الذين أبيدوا في هذه المحنة بنصف مليون مسلم ، أما عدد الذين نفوا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٦ وحتى أوائل القرن السابع عشر ١٦٠٩م فيقدر بنحو ثلاثة ملايين ، وكانوا يمتازون بما لهم من تقدم ثقافي وصناعي وزراعي .

هذا يوضح خسارة أسبانيا ويوضح صدق العبارة : « أن الحضارة قد تأخرت في أسبانيا ثمانية قرون » - لأنه بإبادة العرب تناقص السكان وتعطلت الزراعة والصناعة وانحطت البلاد إلى درجة بالغة من الانحطاط ، وظلت كذلك لعدة قرون ، وهذا حصاد التبشير الإجباري والتعصب الأعمى .

٨ - أحداث تاريخية :

يجدر بنا في هذا الصدد أن نورد بعض الأحداث التاريخية الخاصة بخضوع كل من المسلمين والمسيحيين لحكم الآخر ، لنرى ما يوسم به كل من الدينين من تعصب وتسامح ، وقد ذكرنا من قبل لقاء الديانتين منذ ظهور الإسلام .

والمسيحيون الذين عاشوا تحت حكم المسلمين كانوا مواطنين من الدرجة الثانية ليسوا على قدم المساواة مع المسلمين ، وكانوا قد أعفوا من الجهاد وتكفل الحاكم المسلم بحمايتهم ، وفرضت عليهم في مقابلة هذه الحماية جزية ذكرناها من قبل ، وقد شارك بعض المسيحيين في حروب المسلمين ، والذي قتل الهر مزان - القائد الفارسي - يوم القادسية شاب نصراني من قبيلة تغلب ، وكانت قبيلة تغلب تدفع الزكاة مثل المسلمين ولا تدفع الجزية . وكان للمسيحيين ولل يهود محاكم تفصل في شئونهم الخاصة والشئون المتصلة بالدين .

وعندما دخل المسلمون أسبانيا كثر بينهم المستعربون - وهم سكان البلاد الذين تكلموا العربية - وظلوا على نصرانيتهم ، وفي المدن الكبيرة كانت لهم أحياء خاصة بهم ، ليكونوا على مقربة من كنائسهم ، وليسهل على القسس جمعهم وتعليمهم ، وخلال العهد الأموي وحين استحكام قوة الدولة - كان لهم حكامهم ، ولكنهم اندفاعاً مع تيار الحضارة الإسلامية كانوا يظهرون بمظهر عربى ، وتسموا بأسماء عربية مع أسمائهم المسيحية ، وكانوا يختنون ، وكانوا يستعملون اللغة العربية في كتابة القانون والأعمال العامة ، وكانت النقود تسك باللغة العربية ، مما يدل على تأصل الطابع العربى وثباته لديهم^(١) .

ولم يبق اليهود بعد الفتح الإسلامى على الحال التى كانوا عليها في العهد القوطى إذ كانوا مزدربين مهانين ، ينظر إليهم على أنهم طبقة وضیعة تستحق المهانة فقط ، فقد أعطاهم القانون الإسلامى حقوقهم الإنسانية ، ولذا هاجر عدد كبير منهم إلى أسبانيا ، جاؤوا من الأقطار الأوروبية الأخرى ، وكانوا يلبسون الملابس العربية ويتكلمون العربية وكانت لهم في قرطبة مدرسة تلمودية بها ازدهرت الثقافة اليهودية هناك^(٢) .

هذا التسامح الإسلامى مع الكنائس منهج متبع منذ العصور الأولى . ومنذ امتدت فتوح الإسلام إلى أقاليم بها كتابيون ، وكان المسلمون يأكلون ذبائحهم وينكحون نساءهم طبقاً لما في الآية : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم . وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا ءاتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ﴾^(٣) ، وقد عامل المسلمون الجوس عباد النار في العراق بقريب من هذا ، إذ قبلوا منهم الجزية ولم يحلوا نكاح نسائهم^(٤) .

وكذلك ظل المسلمون فيما بعد على هذا المنهج ، وسرى منهج الأتراك بعد

(١) حتى ٢٠٥ - ٦

(٢) سورة المائدة الآية ٥ .

(٣) المخرج لأنى يوسف ١٣٩ - ٤١ .

ولابد أن نكون على ذكر من أن المسلمين المتساحين مع الأديان الأخرى كانوا متشددين مع أنفسهم ، وحملهم حب الرياسة على إيقاد نار العداوة والبغضاء فيما بينهم ، وكانت حربهم على أنفسهم أقسى من حرب أعدائهم عليهم .

وقد ظلت دويلاتهم في أسبانيا تتساقط واحدة بعد الأخرى في يد المملكة المتحدة - أراجون وقشتالة - وكان آخر معاقلهم هي غرناطة - في الجنوب الغربى من أسبانيا ، وكانت القلة الذليلة من المسلمين فيها تدفع الجزية للمملكة المتحدة القوية ، وكانت منقسمة مع هذه الذلة على نفسها .

وكانت المعاهدة التى كتبت بين الطرفين - بنى الأحمر المسلمين والمملكة المتحدة - مثلة لبنى الأحمر ، وكانت تقع فى ست وخمسين مادة^(١) ولكن أعمال فرديناند وإيزابيلا كانت تقوم على الخديعة ، فقد نصت هذه المعاهدة على حرية العقيدة الإسلامية واحترام المساجد ، وبقاء مواردها المالية لها ، كما نصت على تأمين المسلمين على أنفسهم وأموالهم ... وأن يمنح ملك المسلمين مقاطعة صغيرة فى المراسى الجبلية جنوب صحراء سيرانقادا فى إقليم « البشرات » Alpujarras . واضطر الملك أن يوقع على المعاهدة وأن يقسم بيمين الولاء والطاعة منه ومن حاشيته ومن الشعب كله .

واستعج الملك المسلم بالدول الشرقية وكان يأمل أن يقوموا بعمل كعمل المرابطين ، ولكن الدول الإسلامية كلها فى الشرق كانت عنه فى شغل ، لما كان بين بعضها وبعض من نزاع ، وكانت الدولة العثمانية - مع بعدها عن أسبانيا تستطيع عمل شئ للملك المسكين لكن صادف أن أثناء الملك العثمانى وهم أربعة تنازعوا ملك أبيهم وهو ما يزال على قيد الحياة ، فكان له فى داخلية مملكته ما يشغله عن إنقاذ مملكة أخرى نائية ، بعبارة أخرى أن الخلافات وعدم اتحاد الكلمة بين المسلمين كان من أهم الأسباب التى قضت عليهم .

(١) ترجم الباحث الكبير محمد عبد الله عنان المتخصص فى تاريخ المغرب والأندلس هذه المعاهدة من نصوصها القشتالية فى كتابه « نهاية الأندلس » وذكر أن العرب لم يكونوا نقلوها نقلًا دقيقاً .

تذكر فرديناند وإيزابيلا لمبادئ المعاهدة التي أبرماها ، وكانت إيزابيلا قوية الشخصية ضيقة العقل شديدة التعصب مظلمة التفكير الاجتماعي ، لذلك كانت مندفعة إلى الانتقام والتشفى من غير أن تقدر عواقب تعصبها ، وكانت تنقاد لكبار القسس من الكاثوليك الذين يملأ صدورهم الجهل والتعصب ، وهي صفات لا تقرها الحضارة ولا الإنسانية ، ورثتها أسبانيا حتى وقت قريب .

بدأ إكراهها المسلمين على التنصر في سنة ١٤٩٩ ، أي بعد خروج بني الأحمر بسبعة أعوام ، وكان رائدها في هذه الفكرة الكاردينال شميه Ximenez de Cíaneros^(١) الذي كانت تعترف أمامه وتقدر مشورته ، وقد أفتى بأن المسلمين نجس وكل آثارهم وممتلكاتهم نجسة يجب التخلص منها . وكانت الكارثة الكبرى على الشعب كله إحراق الكتب ، وهدم المساجد ، وقد حول المسجد الكبير الذي بناه الموحدون إلى كاتدرائية ، وأحرقت كتب المكتبة التي كانت بجواره ، وأكره سكان غرناطة على التنصر سواء المسلمون منهم واليهود ، وصدر قرار في العام نفسه ١٩٤٢ بأن يتنصر اليهود الذين في مملكة قشتالة جميعاً أو يغادروا البلاد الأسبانية إلى غير عودة ، وأمهلوا أربعة أشهر يترحلون خلالها ، وكانت عقوبة المخالفة هي الموت ومصادرة الأموال ، فتنصر بعضهم نفاقاً وهاجر بعض إلى شمال أفريقية ، ولم يسلم الذين بقوا من التعذيب والمهانة^(٢) . وقد انتاب الشك رؤساء الأكليروس فاتهموا اليهود جميعاً بالنفاق فرجوا بهم في السجون وصبوا عليهم جام عذابهم ، وهلك كثيرون في سجنهم .

ويأسى المؤرخون جميعاً لهذه الأعمال غير الإنسانية والتي دمغت الكاثوليكية بعار لا يمحى ولا ينسى .

(١) قسيس معروف في هذا التاريخ - وقد قام بترجمة التوراة .

(٢) الدولة العثمانية ج ٩٧/١ .

وليس عار إحراق الكتب وإعدام التراث الإسلامى بأقل عاراً من إعدام الآلاف الأبرياء ، والمسلمون حين دخلوا بلاداً إسلامية ذات حضارة أبقوا على تراثها العلمى ، بل أكثر من هذا أنهم - كما هو معروف - نقلوا التراث اليونانى والرومانى إلى لغتهم .

وانصافاً لشمنيس وبيليدا وكبار الأرثودكس الذين عنوا بإعدام المكتبات العربية نقول أنهم أبقوا على ثلاثمائة كتاب من كتب الطب والعلوم . حملت إلى جامعة أنشئت في مدينة تسمى قلعة النهر ، أما الآلاف من الكتب الذى كانت تذخر بها المكتبات فكانت تجمع أكداً ثم تشب فيها النار في ميدان يسمى « باب الرملة » ، وهو أكبر وأفسح ميادين غرناطة ، وقد قدمنا قبل إعدام كتب قرطبة ، وهو إحراق شمل البلاد كلها .

لم يكن هينا على أى مسلم أن يتخلى عن دينه ، فكان منهم من يفر بدينه مهاجراً إلى الله في أى مكان مغادراً أمواله وممتلكاته ، ومنهم من يبيع ممتلكاته ولو بشمن زهيد ليهرب إلى بر العدو - شمال أفريقيا .

٩ - تاريخ أسود للكاتوليكية :

يُسجل تاريخ العصور الوسطى وتاريخ النهضة أسوأ ما يحفظه في التاريخ من الأعمال غير الإنسانية ، سواء في ذلك تاريخ رجال الدين أو تاريخ الملوك الذين انتقادوا لهم ، ولسنا بصدد التاريخ ، ولكن هذه الأعمال الإجرامية كانت لوناً من ألوان نشر المسيحية وأسلوباً من أساليب التبشير بها . وقد كان العداء مستحكماً بينها وبين دعاة المذاهب البروتستانتية . حتى استساخ الكاثوليك في سنة ١٥٢٩م أن يحرقوا علناً أحد أتباع زونجلى البروتستانتى ، وزونجلى نسه بعد أن هزم في معركة الحربية ، وسقط جريحاً منزوف الدم ، أسرع الكاثوليك إلى جسده الهامد فقطعوه أقساماً أربعة . ثم أشعلوا فيها النار وأذروا رمادها في الهواء .

ولانقطف طويلاً عند حرب الكاثوليك وزعماء الإصلاح الدينى ، وهؤلاء

أيضاً لم يكونوا يحق رجال إصلاح ، وقد أحرق كلفن أيضاً أحد معارضيه ، وهو العالم الكبير ميشيل هرفي الذي كان له دور هام في كشف الدورة الدموية في جسم الإنسان ، وكان من دعاة الإصلاح الديني ، ونشر كتاباً سماه إصلاح المسيحية ، وكان يود أن يقابل كلفن ليتبادل معه الرأي في دعوته ، ولكنه قبض عليه وقدم لمحكمة بروتستانتية كان لكلفن تأثير عليها فحكمت عليه بالإحراق وأحرق سنة ١٥٥٣ ، وكان رجلاً صالحاً تقدم إلى النار وهو يدعو الله أن يرحم الذين أحرقوه .

ومما يذكر للكاتوليكية في هذا الصدد ، أن الكونتستابل دون ميجويل لوكاس Don Miguel Lucas . وكان من كبار القواد وكبار الأثرياء في قشتالة - ذبح أمام مذبح الكنيسة سنة ١٤٧٣ لأنه كان يعطف على اليهود ، واشتدت موجة المذابح على اليهود أواخر القرن الرابع عشر حتى اضطروا إلى النفاق والتظاهر بالمسيحية ، وكانوا يهاجرون إلى الدولة العثمانية فيظهرون يهوديتهم ، ورأت الدولة وفقاً لتيار الهرطقة - وكل ما عدا الكاثوليكية في نظرها هرطقة - أن تنشئ محاكم التفتيش .

١٠ - محاكم التفتيش :

إزاء ماواجهته الكنيسة الغربية الكاثوليكية من نشاط الجماعات البروتستانتية ، وإصرار المسلمين الباقين في أسبانيا على إسلامهم ، رأى البابا بول الثالث أن ينشئ المحاكم التي عرفت باسم محاكم التفتيش أو دواوين التحقيق^(١) ، فأخرج بها مرسوماً بابوياً سنة ١٥٤٢م أى بعد خروج آخر حاكم مسلم بمخمسين عاماً .

كان البابا قد عقد مجمعاً مسكونياً في مدينة ترانت في فرنسا ، وقد طالت أيام هذا المجمع وانفض ثم اجتمع ، ثم أصدر قرارات لإصلاح الكنيسة ، وأخرى تحدد العقيدة الكاثوليكية وتوضح حقائقها إزاء هرطقة البروتستانتين ،

(١) ديوان التحقيق هي التسمية التي اختارها الباحث المرحوم محمد عبد الله عنان .

ولم تنل قراراته قبولاً ، بل زادت الطين بلة ، فقد قامت قرارات إصلاح الكنيسة على العناية برجال الكنيسة - من الكرادلة والأساقفة والقسس والرهبان وتلاميذهم ، وتزويدهم بالمال والثقافة ، وعلى التأكيد أن سلطة البابا مستمدة من السيد المسيح ، وأن له السلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية ، وأن زواج القسس محرم ... إلخ .

وأما قرارات تحديد العقيدة الكاثوليكية فكانت كلها منصبة على رفض المذهب البروتستانتي سواء من مارتن لوثر أو كلفن أو تلاميذهما أو غيرهم ، وقرر أن الكتاب المقدس هو المصدر الأساسي للعقيدة ، وأن تقاليد الكنيسة المتبعة مكتملة له ولها قداسة كقداسته .

وعنى الباباوات بهذه القرارات لما أضفتها عليهم من قداسة ، وتمسكوا بأن من حقهم وحدهم تفسير قرارات المجمع . ثم عنى الباباوات لبث المذهب الكاثوليكي بإنشاء ومساعدة الجماعات الدينية وقد كثرت في هذا الوقت كثرة ملحوظة^(١) هذا بينما كان اليهود المنافقون قد انكشف أمرهم وأنهم يكونون خطراً على العقيدة الكاثوليكية وعلى أسبانيا كلها . وأنشفت محاكم التفتيش لصد هذا التيار .

دخلت محاكم التفتيش أسبانيا سنة ١٤٨٣ ، وبدأت عملها في قشتالة ثم أرجون ، وعارضها الأهليون معارضة شديدة ، فلم تلق إيزابيلا ولا فرديناند - لمعارضتهم بالاً ، ورحب بها قوم من السذج محبي التشفى والميالين للتعصب الديني ، وبه طرد اليهود والمسلمون من أسبانيا ، طرد نحو ١٥٠ - مائة وخمسون ألف يهودي ، وآلاف من المسلمين بلغ عددهم بعد ذلك نحو ثلاثة ملايين^(٢) .

(١) تحدثنا عن أهم هذه المنظمات في كتاب «الإرساليات التبشيرية» .

(٢) اعتنق نحو ألف يهودي المسيحية نفاقاً ، وهاجر الآخرون إلى البرتغال وشمال أفريقية وإيطاليا وفرنسا فلم يجنوا معاملة حسنة ، ورجع بعضهم إلى أسبانيا يدعى المسيحية ولجأ آخرون إلى الدولة العثمانية (انظر أوروبا العصور الوسطى للدكتور عبد الفتاح عاشور ص ٥٥٤ - ٥٥٥ .

وفي سنة ١٥٤٢م أصدر البابا بول الثالث مرسومه بإنشاء أو تأييد محاكم التفتيش ، وجاء فيه : « إن أعمال المجمع المسكوني تتعثر بينما تزداد موجة الهرطقة ، فأصبح الموقف يقضي باتخاذ إجراءات معينة »^(١) .

واتخذت محاكم التفتيش بهذا القرار صبغة دينية ، ولم تعد بعد مجرد هيئة قانونية أو عملاً حكومياً خالصاً . بل أصبحت محاكم دينية ليس للحكومة فيها إلا تنفيذ أحكامها .

وغنى عن الذكر أنها لم تكن تستحق اسم المحاكم لمخافتها العدالة وعملها في الواقع هو الإكراه على الكاثوليكية والعقوبة على التخلي عنها ، وكانت جلساتها أول أمرها سرية ، واستخدمت ألواناً من التعذيب لإكراه المتهمين على الاعتراف ثم تعاقبهم عليه ، وكان البابوات يصدرون تعليماتهم إلى قضاة هذه المحاكم ألا تأخذهم رأفة بالمتهمين ، وكانت عقوباتها هي الإحراق ومصادرة الأموال .

وكان قضاتها من رجال الدين ، وكانوا يحكمون بإدانة المتهم ، فيكفي هذا الحكم باستحقاقه للإحراق^(٢) .

كان المحكوم عليهم يحرقون في ميادين عامة . وكان الملك فيليب الثاني يحرص على حضور هذه العمليات ، وكانت تسمى «أفراح الموت» لأن الشعب كان يجتمع فيها ، ويكثر صيحات الشماتة والابتهاج بإحراق الهرطوقيين^(٣) .

(١) أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ٥٧٦ .

(٢) كان القسيس أعضاء المحكمة يتحاشون التطق بحكم ينص على إحراق المهرم ، ولكنهم كانوا يعرفون عاقبة حكمهم ويحضرون مشاهد الإحراق والتعذيب .

(٣) كان الملك يجلس على منصة تجاه المخرقة ، ويطلق على الحائط من خلفه صليب ضخمة أخضر اللون - وهو شعار محاكم التفتيش ، وكان رئيس المحكمة يتقدم نحو منصة الملك ، فيقف الملك ويرفع سيفاً بيده دلالة على رضاه ورضيته في إبادة معارضي الكاثوليكية ، ثم يقرأ رئيس المحكمة صيغة قسم يقصص أن الملك تصير هذه المحاكم يذل كل جهده لموتها ... فيقول الملك أقسم على هذا فيسلمه رئيس المحكمة صليلاً يقيله .

وكان نجاح هذه المحاكم محدود الزمن محدود التأثير ، وقد رغب الباباوات في توسيع نطاقها في فرنسا والأراضي المنخفضة - فلم تلق نجاحاً ، وكانت سبباً في انشقاق دول الأراضي المنخفضة وحربها أسبانيا واستقلالها .

وليس من هنا أن نفيض في الحديث عن هذه المحاكم ، وكتب التاريخ تفيض بمساوئها وإنما ذكرناها لأنها كانت عنصراً من عناصر نشر المسيحية ، وتبشيراً إجبارياً يحتم اعتناق المذهب الكاثوليكي .

= ويمر المحكوم عليهم بالإعدام حرقاً يدفعهم الحراس إلى المخرقة - ثم يمر المحكوم عليهم بالسجن الأبدى ، وهم يرشقون في قيودهم وأغلالهم الحديدية ، والحراس يلهبونهم بالسياط ، وبهذا يتخذ حكم المحكمة صفة حكومية ملكية .

وسأل أحد الضباط الكبار الأثرياء للملك فيليب الثاني عما ارتكبه حتى يحرق ، فقال الملك : لو كان ابني فاسد مثلك لأحضرت بنفسى الخشب لإحراقه (انظر أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ٥٨٢) .

ثانياً : في صقلية

١ - لحظة تاريخية عن المسلمين في صقلية :

بدأ غزو المسلمين البحري منذ عهد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) - إذ أغراه واليه على الشام - معاوية ابن أبي سفيان - ، ولما تولى معاوية أمر المسلمين وجه نشاطاً واسعاً نحو حرب الروم ، وقد حطم أسطوله أسطول الرومان في موقعة ذات السوارى ثم في الأسكندرية ، ومنذ سنة ٦٥٢م التي انتصر فيها العرب في الأسكندرية أصبح العرب سادة هذا البحر ، ويعزى إلى يزيد ابن معاوية أنه أخذ رشوة من الروم فسحب الجيش الإسلامي وترك الجزر للرومان فهدموا مساجدها^(١) .

وكان فتح صقلية في عهد معاوية على يد معاوية بن خديج الكندي ، وهو أول من غزاها ثم ظلت تغزى بعده^(٢) ، ولم يثبت المسلمون بها حتى كان عهد بنى الأغلب في القيروان ، فستحت الفرصة لفتح إسلامي واستمر حكمهم فيها نحو قرنين ونصف قرن .

كانت هذه الجزيرة ولاية ييزنطية ، يولى عليها حاكم من قبل الامبراطور وقد حدثت ثم اضطرابات جعلت فرصة الإبحار إلى الجزيرة سانحة^(٣) ، وقاد القاضي أسد بن الفرات صاحب المدونة الفراتية في فقه الإمام مالك حملة الفتح ، وقد مات ودفن هناك ، واستمرت حروب العرب نحو خمسة أعوام حتى استولوا

(١) كان معاوية يغزى برأ وبحراً ، وبعث جناده بن أبي أمية الأزدي - التاهي الصالح لغزو رودس سنة ٥٢هـ وأقام المسلمون فيها سبع سنين ، وفتح جناده أيضاً جزراً أخرى منها جزيرة كريت ، وغزيت بعده في عهد الوليد والرشيد والمأمون وكانت إسلامية كلها (انظر فتوح البلدان / ٢٢٧ - ٨) .

(٢) غزاها عبد الله بن قيس بن مخلد وأصاب فيها أصنام ذهب بث بها إلى معاوية فوجه بها إلى البصرة ثم أرسلت إلى الهند فيعت هناك (المصدر نفسه) .

(٣) كان أمير البحر بالجزيرة قد قتل حاكمها ونصب نفسه حاكماً ، ثم ثار الناس عليه فذهب يحرش المسلمين على غزوها وعاد معهم قائلاً لحملتهم .

على أرض الجزيرة كلها ، وكان الجيش الذى فتحها كالذى فتح أسبانيا معظمه من البربر الأفريقيين ، ومعه قليل من العرب ، ثم هاجر العرب إليها بعد ذلك - وقد غزوا بعد ذلك جنوب إيطاليا وأصبحت روما - مقر البابوية مهددة بغزوها ، إذ هجموا على أقدس كنيسة - وهما كنيسة بولس وبطرس - اللتين كانتا خارج أسوارها ، مما اضطر البابا إلى دفع الجزيرة لهم .

وفتح العرب أيضاً مدينة بارى على الشاطئ الشرقى للبحر الأدرياتيكي ، وجعلوها قاعدة حرية لهم .

والحق أن العرب باستقرارهم فى صقلية كانوا جديرين أن يظلوا سادة البحر لمدة طويلة ، وأن يمدوا حضارة الإسلام داخل أوروبا إلى مدى أوسع ، ولكن أصابهم بسرعة داء العرب فى كل مكان فاختلف بعضهم على بعض وتفرقت كلمتهم ، فسطا عليهم النورمان وقوضوا ملهكم فى القرن الحادى عشر الميلادى .

٢ - مكان صقلية :

كان الشعب الصقلى بعد أن استقر العرب فى هذه الجزيرة يتكون من خمسة أجناس لكل جنس لغته وتقاليده - كان هناك الأغارقة والفرنجية واللومبارد والعرب واليهود ، ويدخل فى جنس العرب أولئك البربر الفاتحون .

وكان لكل طائفة شريعتها ، فالإغريق يدينون لقانون جستنيان واللومبارد لهم ققهم الخاص بهم ، واليهود يتبعون التوراة والتلمود والمسلمون - عرباً وبربراً - يتبعون القرآن الكريم ، واقتضى التسامح الإسلامى ، أن يترك كل جماعة لشريعتهم ، وأن يكون لهم قضائهم الذين يفصلون فى منازعاتهم ، واكتفوا بتحصيل الجزية منهم وكانت هى الجزية المتبعة فى كل مكان ، وأعطى منها النساء والصبيان والعجزة غير القادرين عليها ، وبقي للمسلمين الحكومة العليا ، وكان من عمل العرب أن قسموا الجزيرة إلى ثلاثة أقاليم جغرافية - وكانت قسمين فقط فى العهد البيزنطى - وكان لكل إقليم حاكمه وقاضيه ، وكان المفتى العام يقيم فى « بلرم » .

وكان للعرب التفوق في الصناعة والزراعة والتجارة ، وكانوا لتفوقهم الحضارى هم العنصر الممتاز .

٣ - الثقافة العربية :

قامت للمسلمين حركة ثقافية في صقلية كانت على مستوى رفيع ، وهى - لصغر الجزيرة وقصر المدة - لم تصل إلى ما كانت عليه في أسبانيا ولكن تأثيرها في أوروبا كان عظيماً واستمر بعد نهاية العهد العربى ، كان في بلرم مركز ترجمة كالذى كان في طليطلة ، وكان بها حلقات درس للعلوم المختلفة ، وكان بها كثرة عظيمة من المساجد ، وكما يقول ابن حوقل لم يكن الإنسان يقف بجانب مسجد إلا وهو يرى المسجد الآخر ، وربما وجد في الشارع الواحد مسجدين متقابلين أو أكثر ، لأن الأثرياء كانوا يحرصون على بناء مساجد في بيوتهم ، وبلغ عدد المساجد في هذه الجزيرة ثلثمائة مسجد^(١) ويعلمون ذلك من مفاخرهم أو الواجب عليهم .

واختلفت الدراسة الفقهية فيها ، فبنوا الأغلب كانوا سنين أسسوا فيها المذهب السنى ثم انتزعها الفاطميون فأسسوا بها المذهب الشيعى ، ثم أخذها الكلبيون^(٢) .

وقد خرجت صقلية شعراء وجغرافيين وقواداً ، ويكفى أن نذكر جوهر الصقلى فاتح مصر للفاطمين ، والجغرافى الكبير الإدريسى ، والمؤرخ ابن حوقل .

٤ - نهاية العرب :

لم تغفل بيزنطة يوماً عن كثرها المفقود ، فكان لها دائماً تدخل فى إثارة القلاقل والتفجير من العرب ، ولكن هذا كان شيعياً هيناً لا يؤثر كثيراً وكان

(١) انظر ابن حوقل ٣٢٧ - ٢٨ .

(٢) انظر ابن الأثير ج ٨ ، ترى تفاصيل واسعة ممتدة بحرية .

العامل الأكبر في نهاية الحكم العربي هم العرب أنفسهم ، كان الشعب مفككاً يتكون من عدد من الشعوب واللغات والمذاهب ، وضعف سلطان الدين عن كبت العصبية العربية ، فكان التافس بل التطاحن مستمراً بين اليمانيين والشماليين من العرب ، وكان ثم تطاحن آخر بين العرب والبربر ، وبين الأسبانيين والأفريقيين ، وبين الإغريق والفرنجة ، وأذكي الكليبيون هذا النزاع مما سهل على النورماندين غزو الجزيرة .

٥ - الحكم النورماندي :

لم يفعل النورمانديون ما فعل فرديناند وإيزابيلا ، من محاربة الثقافة الإسلامية بل رأى الملك روجر الأول المسيحي (١١٠١م) أن يستفيد من هذه الثقافة ، ولم يكن هو نفسه مثقفاً ولكن هداه ذكاؤه إلى الإبقاء على هذا الكنز الثمين ، وحاكى العرب في تسامحهم الديني فسمح لغير المسلمين بأداء طقوسهم ، وكان بلاطه يزدان بالفلاسفة والأطباء ورجال الفلك من المسلمين ، وكان في جيشه مسلمون أيضاً ، وحذا خلفاؤه حذوه ، فكان ابنه روجر الثاني على شاكلة أبيه واستمر حكمه بين سنتي (١١٣٠ - ٥٤) أي نحو ربع قرن ازدهرت فيه الثقافة الإسلامية بكل أنواعها ، وكذا فعل حفيده وليم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٩م) وكان هذا ذكاء وحكمة ، فالعرب كانوا هم الطائفة ذات الخبرة والتفوق في العلوم والفنون والتجارة والصناعة - وقد أصيبت أسبانيا بأشنع كارثة في تاريخها بطردها المسلمين - لكن صقلية تحاشت هذا ، الانهيار فأبقت للمسلمين بعد زوال حكمهم مكانتهم واستفادت منهم ، ولم يكن من السهل التخلص أو القضاء على هذه الحضارة .

وقد بنيت في هذا العهد كنائس زينها الفنان المسلم بنقوش كوكبة وكتبت على جدرانها زخارف عربية وكان النساء يلبسن الملابس الإسلامية مزينة بالحلل العربية ، وكانت ملابس الملك إسلامية عربية تطرز حواشيها بحروف عربية . وبلغت هذه الحضارة الإسلامية المسيحية النورماندية - قمته في عهد

الملك فريدرىك الثانى (١٢١٥ - ٥٠) الذى كان يوصف بأنه نصف شرق ، ولم يكن محباً للإسلام ، ولكنه لذكائه حرص على الاستفادة من علم المسلمين ، واستقدم إلى بلاطه علماء من الشرق ، وكان على صلة بملوك الأيوبيين ، وفى عهده بلغ نشاط الترجمة من العربية إلى اللاتينية قمته فترجمت آثار ابن رشد ربما ترجمت كلها ، وكان فى بلاطه هذا الرجل الأندلسى العجيب - ميشل سكوت ، وانتقلت هذه الترجمات كلها إلى الجامعات الأوروبية ، فكانت صقلية برزخاً بين الشرق والغرب نقلت إلى أوروبا أئمن كنوز الشرق .

وقد تلقت كل من صقلية وأسبانيا علوم الأقدمين بعد أن صفاها العرب وزادوا عليها ، وكانت مهمة كل منهما هى الترجمة والنقل وكان لليهود فى كلا البلدين نشاطهم المعهود فى الترجمة والبحث أيضاً .

وفى سنة ١٢٢٤م أسس الملك فريدرىك الثانى جامعة نابلى ، وهى أول جامعة ملكية أسست بقرار إمبراطورى ، وكانت الجامعات تقوم بجهود الشعوب ، وكانت مكتبة هذه الجامعة تحوى مجموعات ضخمة من الكتب العربية ، وفيها درست مؤلفات أرسطو وابن رشد التى ترجمت وأرسلت نسخ منها إلى الجامعات الأوروبية ، واستفادت منها جماعات التبشير إذ استخدمت معلوماتها لمساعدة المبشرين فى البلاد الإسلامية .

بعبارة عامة ، كان القرن الثالث عشر عصر النشاط فى نقل علوم الشرق وهو عصر استنارة المسلمين وتعرضهم للهجوم من جوانب عديدة ، وكان القرن الرابع عشر عصر استخدام علوم المسلمين فى حربهم وظهور التفوق عليهم .

٦ - نهاية المسلمين فى صقلية :

بعد عهد النورماندين تبدلت حال الجزيرة ، واضمحل سلطان المسلمين العلمى ، إذ نالت البلاد الأوروبية كلها حظاً كبيراً من العلوم ونمت ما أخذت عن المسلمين ، وظهرت النهضة الأوروبية ، وبدأ تخلف الشرق . وظهر التحامل على الإسلام ، فهدمت المساجد وأزيلت حتى لم يبق فى صقلية مسجد واحد ، وبها الآن مسجد واحد مستحدث تتبناه ليبيا - وهو منزل اتخذ مسجداً ، وليس مسجداً حقيقياً .

ثالثاً: المسلمون في شرق أوروبا

١ - مقدمة :

رأينا أن الإسلام عاش في أسبانيا ثمانية قرون ، ولم يدخل جوف القارة عن طريقها ، وفي صقلية امتد جنوب إيطاليا ، والآن ننظر إلى الجانب الشرق وامتداد الإسلام فيه ، وقد كان الأتراك العثمانيون هم الذين نقلوه إلى هذا الجانب ، وحولوا العاصمة البيزنطية إلى عاصمة إسلامية .

وفي حديثنا عن الأتراك نرجع إلى بدايتهم وبداية الإسلام في إيجاز .

٢ - بداية العثمانيين :

في أواسط القرن الثالث عشر كانت هذه القبيلة التركية قبيلة متجولة شأنها في ذلك شأن القبائل العديدة التي كان تتبع من وسط آسيا ومناطق الاستبس ، وكان رئيسها هو أرطغر بك والد عثمان الذي تنسب إليه هذه الأسرة ، وانتهى بها تجولها إلى شبه جزيرة الأناضول فصادت وجود معركة حرية بين السلطان السلجوقي علاء الدين الأول (١٢١٩ - ١٢٣٥م) زعيم الأتراك السلاجقة إذ ذاك - وبين فرقة مغولية من جيش أوكطاي ابن جنكيز خان . وكانت هذه الفرقة قد جاءت لاستكمال فتح آسيا الصغرى كي تضمها إلى ممتلكات جنكيز خان ، وكانت أقوى من جيش علاء الدين ، وموشكة أن تقضى عليه ، فانضم إليه طغر بك بجيشه ، فأنقذه من هزمته وطرد عنه محاربيه ، وكان ذلك سنة ١٢٣٢م قبل وفاة علاء الدين بنحو ثلاثة أعوام .

كانت آسيا الصغرى مقسمة إلى ولايات صغيرة ، وقد أعطى علاء الدين طغر بك منها مقاطعة «نيقية» مكافأة له على مساعدته إياه ، ونيقية أرض واسعة تجاور الدولة البيزنطية ، واتخذ طغر بك مدينة «سوكود» عاصمة له ، واستقر هو وقومه بها ومات سنة ١٢٩٩ ، فخلفه ابنه عثمان .

٣ - عثمان يدخل الإسلام :

كان هؤلاء الأتراك ديانة غير معروفة ، ولكنها كانت وثنية ، وكان من حولهم السلاجقة المسلمون ، والبيزنطيون المسيحيون بجانب وثنيات أخرى ، وقد اختار عثمان الإسلام ديناً له ولقومه بعد دراسة وأناة ، وكان له قائد ذولحية كثرة ، اسمه ميخائيل ذو اللحية الفرجون أو الشوكة M. Fork Beard وهو بيزنطى ارتد عن مسيحيته ليعتنق الإسلام ، وذكر هذا القائد مما يوضح أن الميل إلى الإسلام لم يكن خاصاً بالعثمانيين ولم يكن ثم إكراه عليه .

كان هؤلاء القوم - شأن التار جميعاً - يمتازون بالشجاعة وحب الحرب وقد وسع أرطغرک وعثمان من بعده نطاق قونية ، وضموا إليها ولاية «أسكى شهر» وهى مدينة ذات تاريخ ، وفى سنة ١٣٠٠م أغار المغول على السلاجقة وقضوا على آخر سلاطينهم علاء الدين الثالث سنة ١٣٠٧م نهائياً فانتهت هذه الدولة ، وقد كانت فى حالة ضعف ، فاستقل أمراؤها كل بما تحت يده ، واستقل عثمان أيضاً بإقليمه ، وعنى بشئونه فاعتبر مؤسس الدولة ونسبت إليه ، وظل يوسع ممتلكاته حتى أطل على البسفور ، وفى سنة ١٣٢٦ فتح أورخان بن عثمان مدينة بروسه ، على بحر مرمره ، وكان أبوه على فراش موته فسر بهذا الفتح وطلب أن يدفن فيها ، واتخذوها عاصمة وكانت ذات شأن فى تاريخ الإسلام بعد ذلك .

٤ - خلفاء عثمان :

كان عثمان قد اعتنق الإسلام وثبته فى قومه وفيمن حوله ، ثم كان ابنه أورخان هو الذى نقله إلى أوروبا وأفشاه رغم كثرة الأعداء والمقاومين ، وفى سنة ١٣٥٣ عبرت جيوشه بحر إيجه ، فاستولت على اليونان وبلغاريا ورومانيا والصرب والمجر وترانسلفانيا وبعض الجزر ، واتخذوا أدرنة عاصمة تركية فى أوروبا ، وفى سنة ١٤٥٣ دخل محمد الفاتح القسطنطينية^(١) فحقق الأحلام

(١) هى بيزنطة سميت القسطنطينية بعد أن نقل قسطنطين إليها عاصمته سنة ٣٢٢م ، وتسمى أيضاً الاستانة وهى كلمة فارسية معناها العتية ، وسميها محمد الفاتح استانبول ، وهى كلمة تركية معناها دار السلام ويقال أيضاً «إسلامبول» .

التي راودت المسلمين منذ عهد معاوية ، وحقاً قد عبر الإسلام بحر إنجه من قبل ، ولكن الاستيلاء على العاصمة البيزنطية كان له مغزى آخر وقد اهتم له العالم الغربى والعالم الشرقى على السواء .

لم ينظر الأوروبيون إلى حروب العثمانيين على أنها أعمال سياسية ، كما كانت حروب شارل-التي شملت معظم أوروبا ، أو إلى حرب نابليون التي جاءت بعد ، ولكن نظروا إليها على أنها حرب بين الإسلام والنصرانية ، وقوى هذا الشعور بسبب ما كان بادياً فعلاً على العثمانيين من مشاعر إسلامية وما حرصوا عليه من إعلان قوانين الإسلام وشريعته ، ثم اهتمامهم ببناء المساجد الكبيرة ، وتحويلهم بعض الكنائس الكبيرة إلى مساجد^(١) .

وقد عثر السلطان محمد الفاتح على مقبرة الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى فاتهج به جيشه واثارت حماسته للجهاد ، وبنى السلطان بجانبه مسجداً بالغ في تزيينه وزخرفته .

كل هذا وغيره من المظاهر الإسلامية أوغر صدور الأوروبيين المسيحيين ، وجعلهم يعتبرون حروب العثمانيين رد فعل للحروب الصليبية ، وعملوا جميعاً على حروبهم ، وصارت كلمة تركى تعنى مسلم .

وفى الشرق قرح المسلمون فى كل مكان بهذا الفتح ، وأرسل إليهم محمد

= وعن دخول عثمان الإسلام - انظر « النولة العثمانية » للدكتور الشناوى ص ١١ ، ٢٨ ج ١ وقارن تاريخ الشرق الأوسط الحديث للدكتور محمد أنيس ، فأراءه لا تخلو من جروح إذ يرى أن عثمان اعتق الإسلام لأسباب سياسية ، وأدله غير قوية ، وأورد الدكتور الشناوى ما يروى من أنه كان يردد على شيخ مسلم يسأله عن الإسلام حتى اقتنع به ، وانقلب داعية له .

(١) حول محمد الفاتح كاتدرائية أياصوفيا إلى مسجد كبير فخم ، وهو الذى رده أتاتورك إلى مخزن ، وبنى له مسجداً فى قلب العاصمة على أنقاض الكنيسة الرسولية وكانت مدفن العظماء مثل الآى The Appy فى وستمنستر ، وتلاه خلفاؤه فى الاهتمام بهذه المظاهر الإسلامية ، من بناء المساجد العظيمة هنا وهناك ، ومن الاهتمام بتطبيق الشريعة الإسلامية وإعلاء شأن المظاهر الإسلامية ورجال الدين .

الفتاح بهذه البشرى ، وأقام الحاكم المملوكى احتفالات رائعة فى مصر وكذلك فرحت وابتهجت الأقطار الإسلامية الأخرى .

زال سلطان الكنيسة الشرقية وحل محله سلطان الحكومة الإسلامية ، أما الكنيسة الغربية فى روما فكان عليها أن تناصب العثمانيين العداء ، وأصر محمد الفاتح على إذلالها ، وإخضاعها لسلطانه ، وزينت له قوته أن يستمر فى حربه ، وأن يقضى على الكنيستين جميعاً لهذا كان عداؤه لكنيسة روما ظاهراً ، وقد نزل فى نابلى - فى إيطاليا - واتجه شمالاً إلى روما ليدمر كنيستها حتى أنه أقسم ليقتحمها وليقدم الطعام يديه إلى حصانه وهو واقف على مذبح الكنيسة البابوية ، ولكن المنية عاجلته ، واعتبر موته هبة من السماء للمسيحيين ، وأمر البابا أم تقام صلاة الشكر ثلاثة أيام^(١) وظلت فتوحات الأتراك بعده تمتد فى أوروبا حتى وصلت فيينا واستولت على بلغراد ، وعلى جزيرة رودس ، وكانت معقلاً لفرسان القديس يوحنا ، واستولى الذعر على الأوروبيين حتى كان الصيادون فى هولندا يخشون الابتعاد فى بحر البلطيق خوفاً من العثمانيين ، وكانت هذه الحركة فى جملتها رد فعل للحملات الصليبية ، ونفر الأوروبيون من الشرقيين أو من المسلمين ، وقالوا أن العثمانيين مصدر رعب للعالم^(٢) كما وصفوهم بأنهم البلاء الموجه^(٣) وظلوا حتى القرن الخامس عشر عدواً رهيباً ، وكانت قبائل البربر التى اجتاحت غرب أوروبا واقتطعت جزءاً كبيراً من الإمبراطورية الرومانية قد دخلت المسيحية منذ القرن الحادى عشر ، وبقي المسلمون هم العدو الدائم^(٤) لهذا صور المؤرخ الأوروبى أعمال العثمانيين بصورة النهب والسلب ، ونحى عنهم أعمالهم الحسنة ، ولعلنا لانجد فى التاريخ أمة ظلمت كهذه الأمة ، ولانقول أنها خلعت من العيوب ولكن محاسنها طويت وأغضى عنها نهائياً .

(١) انظر الدولة العثمانية دولة مفترى عليها للدكتور عبد العزيز الشناوى ج ١/ ١٤ - ١٥ .

(٢) نفسه .

(٣) تراث الإسلام ٢٨/١ - ٢٩ .

(٤) نفسه

وكان الأتراك في أوروبا - كما كان العرب في الشرق ملاذ المسيحيين من المسيحيين ، فقد كان المذهب البروتستانتي قد ظهر ومال إليه الكثيرون ، فكان الكاثوليكيون يعاقبونهم على ذلك عقاباً أليماً حتى ضاقوا وتمنوا الخلاص منهم بوجه عام ، وكان الذين يستطيعون الإفلات يفرون إلى الأراضي التي استولى عليها المسلمون ، وفي هذا يقول مارتن لوثر أن الفقراء المسيحيين يفضلون أن يعيشوا تحت حكم الأتراك على العيش تحت حكم المسيحيين الذين يعاملونهم معاملة ظالمة^(١) . هذا فضلاً عن سوء المعاملة الذي كانوا يلقونه من الإقطاعيين .

وفوق هذا وجدت الكنيسة في روما فرصة سانحة للتخلص من الكنيسة الشرقية ، فطلب البابا في روما لكي يساعد القسطنطينية ضد الأتراك أن تخضع الكنيسة الشرقية لتنفذه ، وكان ذلك أمراً مستحيلاً وقد كتب إليه وزير الدولة البيزنطية بكلمته المشهورة «إني أفضل أن أرى في شوارع القسطنطينية عمامة محمد على أن أرى تاج البابا أو قبعة الكاردينال» وكانت الفكرة الصليبية قد اندثرت نهائياً في نفوس الأوروبيين ، وكان لا بد للقسطنطينية أن تستسلم .

والدولة العثمانية لذلك كريمة لدى الأوروبيين ، لأنها تمثل الإسلام علو أوروبا الألد ، وهي - حيث عاصرت الحروب الصليبية - حاربت الصليبيين في أوروبا ، ونالت منهم نيلاً بليغاً وكانت تعنى بالشعائر والمظاهر الإسلامية والمحافظة على آثار الرسول ﷺ ، وتعنى بالحرمين الشريفين .. وكل هذا يَمُضُّهَا لدى الأوروبيين ، وحتى كانوا يسمون المسلم تركياً .

• - تسامح العثمانيين :

بدخول محمد الفاتح مدينة القسطنطينية - عاصمة الدولة البيزنطية سنة ١٤٥٣م توطدت علاقة صداقة بين الحكومة الإسلامية والكنيسة الشرقية

(١) من كلمة طويلة انظر : الدولة العثمانية ١٥/١ .

بصفة لم تكن مرتقبة ، فقد أعلن السلطان الفاتح نفسه حامى الكنيسة الإغريقية ، وأصدر مرسوماً يضمن للبطريق كل الحقوق التى كانت له وتولى بنفسه تسليم أول بطريق عين فى عهده عصا الأسقفية وكيس الذهب الذى به ألف دوكة ذهبية ، وأمر له بجواد ممتاز كان يتجول به فى المناسبات خلال المدينة تحف به حاشيته ، وأكثر من هذا أن كان مغولاً له الفصل فى قضايا الإغريق بجانب شئون العقيدة والشرعية المسيحية ، وكان له وللأساقفة حق الفصل فى بعض القضايا المدنية وبوجه عام شعر المسيحيون - وهم فى ظل الحكم التركى - أنهم يتمتعون بمزايا عديدة وباحترام لم يكن لهم من قبل ^(١) .

كان الإغريق وهم كثرة بجانب الأتراك الغزاة - يفضلون سيادتهم عليهم ، ويعتبرونهم مخلصين لهم من أنواع الظلم الفادحة التى عانوها من الفرنجة وأهل البندقية ، وكان من الطبيعى أن يوازنوا بين حالهم فى ظل الحكم التركى الذى اعتبر المساواة قانوناً طبيعياً ، وحال القبارصة الذى مازالوا تحت حكم البنادقة إذ كان البنادقة يعتبرونهم عبيداً ، ويدفع الواحد منهم ثلث ماله للبنادقة ، بينما كانت الجزية المفروضة على المسيحيين تحت حكم الأتراك تتراوح بين ما يبلغ نحو ٢ ، ٥ ، ١٠ قروش على كل ذكر بالغ ، وذلك بحسب دخله ومقدرته المالية ، وأعفى النساء والصغار والمسنون والعجزة ، وقد اختلفت هذه الضريبة بين حين وآخر ولكن هذا كان هو الحد الأقصى ^(٢) .

إزاء هذا التسامح وحسن المعاملة أقبل الكثيرون على الإسلام ، ولكننا لانسى أن دعوة الأتراك للإسلام كانت فى مهد الدولة المسيحية ، وفى بلاد

(١) انظر تفاصيل واسعة مفيدة فى كتاب الدعوة إلى الإسلام ص ١٧٠ وما بعدها .

(٢) نفسه ١٧٦ - ٧٨ - وإعلان محمد الفاتح حماية الكنيسة الشرقية يعنى حمايتها من كنيسة روما وتحدث العالم اللاهوتى Timothy Ware فى كتابه The Orthodox Church عن تسامح الأتراك وعدم إكراههم على الإسلام ، وقد كان منصب البطريركية شاغراً حين مجىء محمد الفاتح فعين بطريركا: وسلمه يده العصا وكيس النقود ومنحه جوادا ، انظر الفصل الخامس من ص ٩٦ - ١١٢ ، وانظر الدولة العثمانية .

تجاوز روما والكنيسة الأم للعالم كله ، لهذا كان الصمد عن الإسلام والتحذير منه متوفراً ، ومن جانب آخر كان غزو العثمانيين أوروبا أمراً شاقاً أليماً للدولة تعتبر نفسها سيدة الشرق . ومن جانب ثالث كان العصر عصر الغزو الصليبي ، عصر تحفز الكنيسة والدول الكبرى المتحالفة لنسف الإسلام والقضاء عليه ، وكل هذا يوضح سبب تحامل الكتاب الأوروبيين على الدولة العثمانية ، وهو تحامل شابه كثير من تزيف الأحداث ، وافتراء الأكاذيب على الأتراك وهو يشبه أن يكون دعايات حرية .

٦ - لا إكراه في الدين :

كانت الوصايا من السلاطين الأتراك بحسن معاملة المسيحيين مرعية ، وكان الوعيد الصارم لمن يضطهد واحداً منهم مرهوباً ، وكانت الجزية كما رأينا هينة ، لا تكفى أن تكون سبباً لتحول شخص عن دينه ، وفيما كتبه غير واحد من هؤلاء الأعداء يملو إقبال الذين أسلموا على الإسلام كان عن طوعية ورغبة .

يقول أحد الكتاب الانجليز في كتاب أخرجه سنة ١٧٠٠م عن إسلام قبائل الكانديوت Candiot وهو ينحى عليهم باللوم لقبولهم الإسلام : إن هؤلاء التمسعين يبيعون أرواحهم بما يسوى بنسا بإعفائهم من ضريبة الرأس التي لا تتجاوز خمسة ريات في العام^(١) .

ويقول آخر : إن دوكة واحدة لكل رأس شيء «تافه»^(٢) .

وهكذا يقرر أعداء الأتراك من حيث لا يشعرون حسن معاملة المسلمين . أما عن الأسباب الحقيقية التي دفعت إلى اعتناق الإسلام فهي قبل كل شيء فساد الحكم في هذا الوقت إذ كان رعايا الحكومات المسيحية يعانون مظالم لا تحتمل بينما كان الأتراك يعلنون عدالة الإسلام ورققه بيني الإنسان، ثم كانت حال

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ١٨٢ .

(٢) نفسه والدوكة عملة تركية تعادل القرش .

الكنائس ورجال الدين . والتناحر بين الكاثوليك والأرثوذكس قد بلغت درجة الوحشية ، وتحدث بطريق إنطاكية في ذلك الوقت عن عدوان البولنديين الكاثوليك على الروس التابعين للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية فجاء في كلامه :

« إننا ذرفنا الدموع غزيرة على آلاف الشهداء .. فيا أيها الخونة ... ماذا صنع الراهبات والنساء ، وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم » .. أدام الله دولة الترك خالدة إلى الأبد^(١) .

فهم يأخذون ما فرضوه من الجزية ولا يعارضون الدين ، سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين^(٢) يهودا أم سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاعين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور ... بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح ، الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ، ولا بأن يتركوا لهم قسسا يعرفون أسرار دينهم^(٣) .

هذا ما يوضح سبب التحول إلى الإسلام ، ولكنه للأسباب التي سبقت - لم يكن تحولاً واسعاً - وكانت الآراء التي أشاعها لوثر وكالفن ، عن الكنيسة الكاثوليكية قد كشفت أن روح الإسلام وقوانينه أولى بالاتباع . وفي القرن السابع عشر ، وحين كانت الدولة التركية أقل بأساً زاد عدد المرتدين عن المسيحية زيادة هائلة لم تحدث فيما سبق ، وتدل كثرة المرتدين من الطبقة الوسطى والدنيا على أنهم كانوا يعانون ظمناً فادحاً ممن فوقهم ، ومع ذلك فإن عدداً غير قليل من رجال الكنيسة ومن ذوى المناصب العليا وأسماها مقاماً دخلوا الإسلام ، كذلك دخله بعض الرهبان ، وفي إحدى المناسبات دخل الإسلام في مدة ثلاثة عشر يوماً ما لا يقل عن مائتي شخص^(٤) .

(١) نفسه والأتراك هم المسلمون .

(٢) الناصريون النصارى الأصليون من الشرق ، والمسيحيون الذين دخلوا المسيحية من أهل أوروبا .

(٣) نفسه ١٨٣ .

(٤) نفسه ١٩٢ .

وكتابات الكثيرين من المعاصرين تكاد تحصر أسباب الارتداد عن المسيحية في أسباب ثلاثة هي تسامح الأتراك ، وفساد رجال الدين المسيحي وتناحرهم ، وتقرير الإسلام حقوق الإنسان من عدالة ومساواة وحرية ، وكان المضطهدون من البروتستانت يلجأون إلى الدولة التركية ، لاليسلموا ولكن لينعموا بالأمن وحرية العقيدة ، وكذلك اليهود الذين حاف عليهم حكام أسبانيا كانوا يلجأون إلى دولة العثمانيين^(١) وحين شاخت الدولة التي عمرت أكثر من ستة قرون توالى على مسلميها ألوان من الظلم ، وأسرف الكتاب الأوروبيون في وصفها بالصفات الذميمة ، ولكن مع هذا كله لم يمح الإسلام نهائياً من مملكتها التي انتزعت منها ، ولا يزال في اليونان والمجر وبلغاريا وغيرها مسلمون ، وفي بلغاريا الآن حركة تتصير تقوم بها حكومتها الماركسية ، وهي من أشنع وأحط ما شهد التاريخ .

وأود في هذا الصدد أن أراجع طرفاً من حياة المسلمين في بلغاريا .

٧ - الخلافة الإسلامية في العهد العثماني :

منذ سقطت بغداد في يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) - وقتل الخليفة العباسي سنة ١٢٤٢ - صارت الدولة الإسلامية بدون خلافة ، وفي سنة ١٢٦٢م استطاع القائد المملوكي بيبرس أن يحطم الجيش المغولي في عين جالوت^(٢) ولم يكن هولاكو في هذه الموقعة ولكنه لم يستطع استرداد شيء مما فقد في أرض سوريا ، ومع أن الخليفة العباسي في ذلك الوقت ، ومنذ زمن سابق كان قد فقد سلطانه السياسي بقيت له قوة روحية ، ولذا رأى الظاهر بيبرس البندقداري (١٢٦٠ - ٧٧م) أن يؤيد مركزه الحكومي بوجود خليفة إسلامي في مصر يمدّه بالقوى الروحية إلى جانب انتصاراته الحربية وأعماله

(١) نفسه ١٨٢ ، وكان ذلك في القرن الخامس عشر ، وكانوا جميعاً كثيرة .

(٢) كان السلطان المملوكي في مصر هو قطز ، وكان هولاكو قد استولى على علة ملط وحاصر

دمشق وبلغه موت أخيه في فارس فرجع إليه .

الإسلامية^(١) فاستقدم عما للخليفة القليل ، كان قد أفلت من بغداد إلى دمشق ، فأحضره إلى مصر سنة ١٢٦١م ، وأعلنه خليفة ولقبه المستنصر . وأقام احتفالاً بالغ الروعة ، وفرح به المسلمون ، ومشى في مركبه اليهود والمسيحيون يحملون كتبهم المقدسة ، وانعقد مجلس من العلماء حكم بصحة نسب الخليفة وبصحة بيعته خليفة ، وبعد أن تبوأ هذا الخليفة المسكين منصبه أصدر قراراً يعطى الظاهر بيبرس حق ولاية البلاد الإسلامية ، وبذا ظفر السلطان بما كان يريد .

ولم تطل حياة الخليفة المسكين ، فقد حمل الطموح بيبرس أن يسترد بغداد وأن يعيد الخليفة إلى عاصمة أجداده منذ عهد أبي عبد الله السفاح ، ولكن حملة بيبرس لم تنجح واستولى المغول على الخليفة في صحراء الشام فابتلعه التاريخ ولم يعرف عنه شيء بعد ، ثم جاء إلى مصر عباسي آخر أقامه بيبرس خليفة أيضاً وسماه الحاكم ، وبقي الحاكم وحفدته يتقلدون الخلافة في مصر حتى دخلها السلطان سليم العثماني ١٥١٧ فوجد بها آخر خلفائها وكان يسمى المتوكل^(٢) فأخذه معه إلى القسطنطينية ضمن الذين نقلهم من القضاة والعلماء ، ولم يكن راضياً عنه لسوء سلوكه وعدم إخلاصه له فسيجته ، وجاء بعد سليم سليمان القانوني (سليمان المشرع) فأعادته إلى مصر ، فكان ينضم إلى الثائرين وأعداء العثمانيين حتى مات سنة ١٥٤٣ .

ويبدو أن عداؤه المستمر للعثمانيين سوغ المبالغة في ذمه ووصفه بأشنع

(١) انظر عن بيبرس تاريخ أبي الفداء ج ٤ وليبرس حروب ضد الصليبيين ويعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر - ثم هو الذي مهد لخلفائه - قلاوون والأشرف - مد الدولة والقضاء على الفرنجية وله إصلاحات اجتماعية كثيرة .

(٢) كان السلطان الغوري قد اصططحبه إلى الشام واصططحب قضاة المذاهب وأرباب الطرق ، وأعاد السلطان سليم الخليفة معه إلى مصر ، وكان طومان بئي قد خلف الغوري حاكماً على مصر ، فأعاد الخليفة المستمسك والد المتوكل خليفة ، وكان قد تنازل عن الخلافة لابنه لكبر سنه ، ولكن السلطان سليم ثبت المتوكل رجاء أن ينال منه تأييداً ، وكان الجميع غاضبين على العثمانيين .

صفات السوء . وموته انتقلت الخلافة إلى السلطان سليمان ، ولا يعرف لنقلها إليه سند حقيقى ، ولكنه أعلن إذ ذاك أن الخليفة المتوكل كلن قد تنازل لأبيه عنها وسلمه شعائرها ، وهى بردة النبى ، وبعض شعرات من لحيته وسيف عمر ، وهذه الشارات كانت فى الاستانة منذ فتح سليم مصر ونقله منها ما نقل^(١) .

٨ - بنو عثمان خلفاء المسلمين :

مهما يكن من شأن تنازل المتوكل فإن الخلافة أصبحت فى بنى عثمان بعد موته وظلوا يتوارثونها حتى سنة ١٩٢٤ ، وكان سليمان القانونى آخر سلاطين العثمانيين الأقوياء ، وجاء بعده سلاطين لم يرعوا حق الخلافة ولا واجب الدين ، وكانت الدولة الواسعة المترامية الأطراف الراسخة الأركان ، قد ألفت الأمن وحب الدعة ، وانغمس الخلفاء فى الملذات وحياة اللهو والترف حتى كانوا يسمون أحياناً السلاطين التنايلة^(٢) والواقع أنه لم يعترف بالعثمانيين خلفاء إسلاميين فى خارج دولتهم حتى سنة ١٧٧٤م فى المعاهدة التركية الروسية ، هذا على الرغم من أنها قبل ذلك كانت قد أخذت فى الانكماش ، فقد واجهت هزيمة حرية نكراء اضطرت بسببها أن تعقد معاهدة ذليلة سنة ١٦٩٩م وبها خرجت مساحات واسعة من ممتلكاتها ودخلت تحت حكم أعدائها المسيحيين ، ومنذ سنة ١٨٦٤م أخذت روسيا تقتص من أراضيها فى تركستان ، وفى مدة وجيزة استولت على طشقند وسمرقند ، ثم استولت على بعض الأراضى الأفغانية وقسمت فارس بين روسيا وبريطانيا ، ثم امتدت الأطماع الاستعمارية إلى إفريقية ، وتكالبت الدول الأوروبية الكبرى على ميراث «الرجل المريض» الذى ظل فى أمراض لا يموت فيها ولا ينجى .

(١) كان أمير مكة هو الشريف بركات ، وقد أرسل ابنه على رأس وفد للسلطان سليم معه مفاتيح الكعبة ، وبردة رسول الله - وسجادة صلاة ، والعنق النبوى ، وقوساً وسهماً وحذاء قرص ، وسنان من أسنانه الشريفة وشعيرات من لحيته ، ونسختين من القرآن قيل أنهما كانتا للخليفين عثمان وعلى ، علما بمجموعة أدوات وثياب .. وخصصت لها الدولة مكاناً خاصاً ، وحرصاً يقوم عليها (انظر الدولة العثمانية ١/٢٠ - ٢٣) .

(٢) يعنى الكسالى والمتعطلين .

وحين وصلت الدولة العثمانية إلى هذا الضعف وقلت الدول الأوروبية كلها منها موقف العداء وظلت تتحين نهايتها ، وكانت قد أخذت في التقلص ، وأخرجت من أواسط أوروبا ونابلي ، وكانت هذه المعادة في حقيقتها معادةً وحرماً صليبية من نوع جديد .

٩ - العثمانيون في الشرق :

امتد نفوذ العثمانيين في الشرق منذ فتح السلطات سليم سوريا ومصر ، فبسطت سلطانها على ساحل البحر الأبيض حتى المحيط الأطلسي ، وامتد من الجانب الشرق فشمل الجزيرة العربية والعراق ، وسرت تقاليد العثمانيين ونظمهم في الملابس والأبنية والعناية بالمساجد والتكايا والطرق الصوفية إلى أرجاء أخرى بعيدة ، ولا تزال توجد آثارها في الهند وما حولها ، وقد أكسبت العالم الإسلامي وحدة لم تتوفر للدولة العباسية ، وحين الت حكوماتها إلى الحكام الضعاف توثبت الدولة الأوروبية للنيل منها ، ووقفت الكنيسة من وراء السياسيين تشجعهم تارة وتستفيد من نفوذهم في تنشيط التبشير تارة أخرى ، وكانت النهضة الأوروبية آخذة في الازدهار حين كان هؤلاء الحكام يغطون في نومهم العميق ، وقبل الحرب العالمية الأولى بزمن غير قصير كانت إنجلترا وفرنسا تتدخلان أكثر من غيرهما في شئون الرجل المريض ، وتتقاسمان ميراثه قبل موته ، وكان حادث أحمد عرابي هو القشة التي قصمت ظهر البعير ، وبجانب أعمالها السياسية أعطت التبشير دفعة جريئة .

١٠ - جهود العثمانيين الإسلامية :

كانت الدولة العثمانية حريصة دائماً على أن تظهر بمظهر إسلامي ، وأن تكون سماتها العامة سمات إسلامية ، وكان وضعها السياسي يقتضي ذلك ، ومع أن رعاياها غير المسلمين كانوا يتمتعون بحرية دينية لا يوجد مثلها في البلاد الأخرى لم تحل تصرفاتها من تعصب . وكان أهم مواقفها ضد المسيحية هي

حروبها في أوروبا التي سبق ذكرها ، وبسبب هذه الحروب كانت الدول الأوروبية دائماً عدواً لها ، وفيما عدا هذه الحروب كانت مظاهرها الإسلامية وحرصها على صيغ الدولة بالصيغة الإسلامية مقاومة ذاتية للتبشير . وحيث أنها كانت تعاقب من يخالف التقاليد الإسلامية فأحرى ألا تسمح بنشاط تبشيري مسيحي في بلادها .

وعلى سبيل المثال كان الناس في شهر رمضان يلبون جميعاً صائمين ، ولا يسمح لغف المسلم أن يجهر بفطره ، ومن تجرأ على الإفطار جهراً أو تناول مسكراً عوقب وجرس^(١) .

وعنيت الدولة ببناء المساجد وزخرفتها ولا تزال مساجدها باقية^(٢) .

وبنى محمد الفاتح بجانب المسجد الكبير مسجد آخر كان يسمى المسجد الحمدي أو الجامع الحمدي نسبة إليه ، بناه على أنقاض كنيسة كانت تسمى الكنيسة الرسولية ، وكانت مدفناً للأباطرة ، وعندما كشف موقع مقبرة أنى أيوب الأنصارى^(٣) فرح بهذا الكشف ، وهو على مقربة من أسوار القسطنطينية ، وفرح به الجيش العثماني ، وشيد الفاتح له مسجداً وصالة تقام فيها الحفلات الدينية الرسمية عندما يرتقى سلطان عثماني عرش الدولة .

(١) كان الشخص الذي يشهر به هو المفطر أو من يشرب كحوليات نهائياً ، والشهير أن يخلق جانب من لحيته وجانب من شاربه ، ثم يركب حماراً ووجهه إلى خلفه ويقبض يده على ذنبه ثم يطاف به ، فيصنع ويسب ويشتتم ويصيح الصية من حوله ... وبعد هذا كله يسجن ، ولذا كانت المحافظة على المظهر الديني مرعبة دائماً .

(٢) كان الباشوات وحكام الأقاليم يطلب منهم بناء مساجد في بلادهم ، ومسجد سليمان باشا في القلعة بمصر من هذه الآثار ، وكذلك كان الولاة يقومون بطلب الخلفاء بإصلاح المساجد القديمة وترميمها وتوسيعها أحياناً ، وقد نال الأزهر من هذا حظاً كبيراً .

(٣) أبو أيوب الأنصارى هو الصحابي الذي نزل رسول الله - ﷺ - في داره عندما هاجر إلى المدينة وكان محارباً شارك في فتح صفقة على عهد معاوية ، وكان في حملة بقيادة يزيد لفتح القسطنطينية فمات هناك ودفن قريباً من سور القسطنطينية ، ورأى الرومان أضواء عند قبره ، فاعتبروه قدسياً وعظموه - فكان معظماً من المسلمين والمسيحيين ثم الأتراك .

وكان العثمانيون منذ أن هزموا الشاه إسماعيل ودخلوا تبريز عاصمة بلاد فارس سنة ١٥١٤ ، ثم بعد تسليم الحجاز إليهم مفاتيح الكعبة ودخوله تلقائياً في دولتهم - قد شعروا بسيادة إسلامية ، واعتبروا أنفسهم حماة الإسلام وأصحاب دولته الكبرى ، ورأوا أن من واجبهم أن يعززوه ويعملوا على نصره ، وأن في هذه الأعمال تأييداً لسلطانهم ، وكان الخليفة العثماني منذ عهد السلطان سليم ، ومنذ أن أرسل شريف مكة ابنه إليه بالقاهرة ليسلمه مفاتيح الكعبة ويعلن ولاء الشريف له واعتراف الحجاز بالسيادة العثمانية عليه - منذ ذلك الحين تمسك وتمسك من بعده باللقاب حامى الحرمين الشريفين وخدام الحرمين .

وأولى العثمانيون إقليم الحجاز عناية خاصة ، وأعفوه من الضرائب ، ولا تزال بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة آثار تركية من الخطوط الجميلة والمخاريب .

وشيء آخر ذو أهمية في حياة أوروبا الاجتماعية وهو أن العثمانيين أشاعوا بينهم نظام الفتوة والفروسة الإسلامية ، وكان أصحاب هذا النظام يسمون الآخية الفتيان ، من كلمة « آق » التركية وهي تعنى الشجاع الكريم أو الشهم .

وإذا كان جوستاف لوبون قد أسف لفقدان صفات الفروسة العربية والإسلامية التي أدخلها العرب المسلمون أسبانيا ، فإن الأتراك قد أحيوا صورة منها في شرق أوروبا .

إزاء شيوع الروح الإسلامى في جميع أنحاء الدولة العثمانية الكبيرة لم يكن للتبشير المسيحى مجال في ربوعهم ، وقد انتشرت التيارات الصوفية وأرباب الطرق في أنحاء البلاد ، ومهما يكن من أمرهم فقد كان أثرهم كبيراً في إشعار الشعب بالروح الإسلامى واستقامة سلوكه وتعلقه بأهداب الدين ، وفي هذه الأوساط لا مكان للتبشير .

١١ - حركة الجامعة الإسلامية :

هذه الحركة دعا إليها الشيخ جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩ - ١٨٩٧م) -وهي دعوة إلى توحيد صفوف المسلمين بحكومات وشعوبا ، وانقيادهم جميعاً لمبادئ واحدة هي مبادئ الإسلام ، ولم تكن الدعوة مقصورة على أبناء الدولة العثمانية ، بل كانت تدعو المسلمين في كل أنحاء الأرض إلى الالتفاف حول القرآن وراية الإسلام ، واحتضن العثمانيون هذه الفكرة وتحمسوا لها ، وكان فيها رفع لشأن الخليفة ، ولكنها لم تكن قائمة لتأييده ، وإنما كانت أهدافها إيقاظ المسلمين وتخليصهم من سيطرة الغرب ، ومما تورطوا فيه من الجهل والخرافة وأزمات الاقتصاد وتخلف الصناعات ، مما سوغ للغرب أن يستولي عليهم ويدخل في شئونهم .

وخشيت أوروبا عواقب هذه الدعوة ، وزاد نشاطها كراهة الغرب للأتراك ، فعمل الغرب كله على مقاومتها .

وقام في أوروبا حركتان على نسق الجامعة الإسلامية هما الجامعة الصقلية والجامعة الجرمانية :

دعت الجامعة الصقلية إلى تلاحم الصقلية في أوروبا كلها ، وإعدادهم عدة كافية لصد النفوذ العثماني والتخلص من العثمانيين على نحو مادعا هؤلاء إلى التخلص من الأوروبيين ، وكان الصقلية يضيقون بالألمان ويريدون أيضاً زوال نفوذهم ، وكانت روسيا تطمع أن تحقق من وراء هؤلاء نفوذاً واسعاً يمتد إلى غرب أوروبا .

وعملت حركة الجامعة الجرمانية على تكوين وحدة جرمانية تسيطر على وسط أوروبا وطرد العثمانيين ، ثم السيطرة على بقية أجزاء القارة لتقهر فرنسا والصقلية والأتراك جميعاً^(١) .

(١) أنظر أوروبا في مطلع العصور الحديثة ص ٧١ هامش .

١٢ - إلغاء الخلافة :

كانت تركيا بحكم العداء بينها وبين جارتها روسيا تقف مع دول المحور في الحرب العالمية الأولى ، وأدت هزيمتها إلى اقتطاع ممتلكاتها الواسعة ، وكان كمال أتاتورك وحزبه من قبل يناوئ السلطان عبد الحميد الثاني حتى كان حزبه يكون هيئة ثانية حاكمة ، وبعد الحرب قاد حروباً أحرز فيها انتصارات كان الناس يعتبرونها نصراً للإسلام وبها تغنى شوق أمير الشعراء ، ثم فاجأ الناس بما لم يكن يتوقعه أحد إذ أعلن إلغاء الخلافة الإسلامية نهائياً ، وزاد فأعلن أن تركيا دولة علمانية^(١) ليست بذات دين أصلاً وأثبت ذلك في دستورها .

وقد اختلف الناس كثيراً في شأن أتاتورك (أبو الترك) فقليل إنه من أصل يهودى ، وأنه لم يلدن بالإسلام من قبل ولا من بعد ، وقليل مسلم ارتد وألحد ، والله أعلم بحقيقته ، وأعماله ضد الإسلام قريبة الشبه بأعمال الأسبانيين والنورماندين ، وأعداء الإسلام في أوروبا كلها ، أغلق كثيراً من المساجد في الآستانة ، ومنها مسجد أياصوفيا العظيم وحول عدداً من المساجد إلى مصانع ومتاحف ومخازن ، وبقي المسلمون على إسلامهم مع كل هذا التضيق الذى أودوا به ، ولكنه جعل اللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية ، وكانت تكتب بالحروف العربية ، فحال بين النشء التركى وبين قراءة التراث الإسلامى الذى كتب بالحروف العربية .

وهكذا قدم أتاتورك لأعداء الإسلام من المستعمرين ورجال الكنيسة والمبشرين هدية ما كانوا يملكون بها . وأصيب الإسلام والمسلمون بفقدان الرباط الروحى والسياسى الذى كان يربطهم جميعاً ويشعرهم على بعد الديار بوحدة وإخاء ، ويجمعهم تحت مشاعر وعواطف مشتركة ، وصار العالم الإسلامى مفككا يعتدى على أى دولة منه فلا تشعر الأخرى بعنوان ولا تجد لها حقاً في التدخل .

(١) العلمانية نسبة إلى علم (بفتح العين) بمعنى الكون - أى أنها دهرية لا تؤمن بوجود الخالق .

ويروى الكثيرون أن أصابع الصهيونية كانت وراء عزل السلطان عبد الحميد الثاني منذ سنة ١٩٠٩م ثم ظلت تلعب في الخفاء من بعده^(١).

ومن أعمال أتاتورك أنه ألغى منصب شيخ الإسلام ، ووزارة الأوقاف ، ونادى بأن الإسلام عبادة فقط ولا علاقة له بشئون الدنيا ، وجعل الصلاة تؤدى باللغة التركية ، حتى الأذان بها أيضاً ، وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية ، لا ليفهم معناه بل ليتعبد به المتعبد في هذه الترجمة ، وترجم الأحاديث النبوية ، ورصد مبالغ كبيرة لهذه الترجمة ، وهى فى الواقع إفساد للإسلام وهو لم يبق على ما ترك من المساجد إلا انقاء لغضية الشعب ، وحارب كل مظهر إسلامى وحرم الملابس العربية ، ومنع أئمة الإسلام من لبس العمامة ، وسمح لهم فقط بلبس العباءات أو الجلب داخل المسجد ، وحتى اسمه منع منه كلمة « مصطفى » واكتفى بكلمة كمال^(٢)

كانت أعمال أتاتورك ذات أثر كبير على الإسلام كله ، وكانت نصراً كبيراً للصهيونية ورجال التبشير جعلت الغاضبين على السلطان عبد الحميد يتمنون عهده .

وما لا ينحى للسلطان عبد الحميد الثانى وقفته الصلبة الحميدة ضد البناء الصهيونى ، فقد حال دون هجرة اليهود إلى فلسطين ، وسمح لهم بأداء عبادتهم على ألا تزيد إقامة الزائر منهم على شهر ، ولما اشتد ضغط النول عليه زاد المدة إلى ثلاثة أشهر ، أما فى سائر أجزاء الدولة فأباح لهم التوطن على ألا يكونوا كثرة ولا متجمعين وأن يحملوا الجنسية العثمانية وكان يهود روسيا عقب كشف المؤامرة على القيصر سنة ١٨٨١ تعرضوا لإهانات وتعذيب بالغ وكانوا يريدون الهجرة إلى فلسطين ، فلم يسمح لهم الخليفة ، وبذا انضم إلى أعدائه المسيحيين

(١) راجع أعمال هذا الخليفة ضد الصهيونية وإقامة اليهود فى فلسطين وقد سبق الإشارة إليها--

(انظر الدولة العثمانية) مرجع سابق .

(٢) انظر الدولة العثمانية ج ٢/١٢١ - ٢٢ ولم يتم له الأذان ولا التعبد بقرآن مترجم ، وبعد موته

نال المسلمين شئ من التحسين .

عدو جديد من اليهود ، ودبر اليهود والانجليز مكاييد خفية للإطاحة بهذا الخليفة .

وبزوال الخلافة نهائياً انكسر الحاجز أمام المستعمرين والمبشرين ، إذ كان التبشير أحد الأسلحة التي يستخدمها الاستعمار ، وخذعت الأقطار العديدة باسم الاستقلال ، وكان من الممكن أن تكون ولايات ذات رئاسة واحدة على نحو ما هو جار في الولايات المتحدة ، فتظل لها قوتها وتماسكها ولأن الإسلام لا يعترف بهذا التقسيم ويرى المسلمين أمة واحدة مهما تباعدت أماكنهم يرى الأوروبيون في دعوته خطراً يسجب أن يقاوم ، ويرون في دعائه عدواً للشوداً لهم ، وبهذا الشعور كانت مساندة التبشير وتشجيع دعائه إن لم يكن على تنصير المسلمين فعلى إضعاف الروح الإسلامى وقتل حميته ، وهو من جانب آخر تخطيط لتكفير المسلمين بمحو الفكرة الإسلامية من أذهانهم .

رابعاً : في بلغاريا

١ - مقدمة :

دخل المسلمون بلغاريا - كما ذكرنا من قبل - في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، حين عبر السلطان أورخان بحر إيجه ، ومنذ ذلك الوقت ظلت الدول الأوروبية تحمل الكراهة والأحقاد للدولة العثمانية ، كما ظلت تعمل لكيدها وتآليب الشعوب عليها ، وعندما ضعفت الدولة كثرت الثورات ضدها ، وعملت الدول الأوروبية على تأليب الثائرين وإمدادهم بالقوى والأسلحة ، وتغذية أفكارهم بيهض العثمانيين ، وتضخيم سوءاتهم ، وتنفير الأوروبيين من الإسلام والمسلمين ، ونجحت هذه الدول في الدسائس ، وإثارة العداء بين المسلمين والمسيحيين في الأراضي العثمانية ، وساعد على هذا النجاح غفلة الدولة العثمانية ، وتركها المجال فسيحاً أمام العاشين ، فقام في جنوب أوروبا عدد من الثورات كانت الخسارة فيها على الدولة غير هينة ، في اليونان وأراضي المورة ، وفي البلقان وبلغاريا وغيرها ، وكان القرن التاسع عشر مليئاً بالمذابح الدينية .

وفي سنة ١٨٧٥ بدأت الثورة تندلع في بلغاريا ثم امتدت إلى البلقان كلها ، وامتازت هذه الثورة بأن عدداً أكبر من الدول والشعوب الأوروبية انغمس فيها ، ووجد هؤلاء فرصة جديدة لإعادة المسألة الشرقية ، وتقاسمهم ممتلكات الدولة المريضة ، وكانت روسيا أسبق وأكثر اهتماماً لما بينها وبين تركيا من عداء ، فدست عدداً من المسيحيين الصقالية الأرثوذكس ، فبثوا بين الثائرين أن روسيا ستعدهم بالأسلحة والمؤن ، كما أشاعت أن الدولة العثمانية متعصبة ضدهم وتعمل على كيدهم .

٢ - أسباب هينة :

ضاق الشراكسة المسلمون في روسيا بما تصبه عليهم من ظلم ، ففر جمع منهم إلى تركيا احتفاء بها على الأقل كما احتفى بها اليهود من ظلم الأسباب ،

فاتخذ الروس من هذا الحادث حجة لإفهام بلغاريين أن الدولة أحضرت هؤلاء المسلمين لتقطعهم أرضاً ، وترد البلغاريين عبيداً لهم .

وفي سنة ١٨٧٦م قام البلغاريون بهجوم على المسلمين العزل فذبحوا منهم وقتلوا ، ولم يبالوا بحال الشيوخ أو النساء أو الأطفال ، واضطر الوالي العثماني أن يمد المسلمين بما لديه من أسلحة ليدافعوا عن أنفسهم ، فقتلوا من المسيحيين أيضاً وذبحوا ، وقد كانت مدينة « باتاق » أشنع ماتمثلت فيه هذه الوحشية إذ كان سكانها سبعة آلاف بقي منهم ألفان اثنان .

ورد فعل لهذه الأحداث قامت مظاهرات ضد السلطان عبد العزيز انتهت بعزله ، وخلفه مراد الخامس ، فعزل بعد ثلاثة شهور ، وتلاه عبد الحميد الثاني وكان ذا نزعة دينية وحرص على الإسلام ولكنه جاء في فرع الأحداث واضطرابها ، واطمع الموقف المضطرب ثوار البلغار فأمنوا في تزييح المسلمين وأسرفوا في العدوان على الضعاف من الشيوخ والنساء والأطفال .

وكان موقف الخليفة الجديد أمام الدول الأوروبية غاية في الحرج ، ففي هياج الثورة اتهم بالضعف وعدم الصلاحية ، ولما أرسل قوة لإخماد الثورة أرجفوا بأنه يعامل البلغاريين بوحشية وضراوة وأنه يريد القضاء على المسيحية .

وتصادف في هذا الوقت العصيب أن فتاة مسيحية اعتنقت الإسلام ، وليست الحجاب ، فانقض عليها جماعة مزقوا حجابها واختطفوها وكانت في طريقها إلى القاضى لتعلن إسلامها ، وأخفوها في دار القنصل الأمريكي ، وغضب المسلمون وذهبوا إلى الوالي العثماني طالبين إنقاذ الفتاة ، فلم يستطع ، وبينما كان المسلمون مجتمعين في بعض المساجد ، غاضبين على الوالي وعلى قناصل أمريكا وفرنسا وألمانيا ، لأن الآخرين أيضاً ممن شايعوا الثورة ضد المسلمين ، وكانت الإشاعة قد فشت بأن الفتاة في بيت القنصل الألماني ، خلال هذه الضجة ، حضر القنصلان - الفرنسي والألماني - إلى المسجد فشبب عليهما المجتمعون فقتلوهما .

٣ - مؤتمر دولي :

انعقد في برلين مؤتمر ضم بسمارك الداهية الأموال ومنتولين من النمسا والمجر وروسيا - وجميعهم من أعداء تركيا وأعداء الإسلام ، فرأوا كتابة مذكرة تهديدية عنيفة إلى تركيا تطالبها بحماية المسيحيين في أراضيها ، وهددت باستخدام القوة لتنفيذ ما جاء في المذكرة وكان ما جاء فيها مهيناً مذلاً .

وطلب المؤتمرون من الدول الأوروبية أن توافق على مذكرتها . ولم توافق إنجلترا لأسباب سياسية ، ولكن الوزير الشهير «جلادستون» وهو رجل لاهوت وصليبية - ولم يكن إذ ذاك في الحكم - خب ووضع في إثارة الفتنة والتحريض على الدولة العثمانية حتى بلغ حماسه أن كان يطوف في المدن والشوارع محرصاً على الأتراك الذين ظلموا المسيحيين ، ولأن هذه الإثارة كانت من رجل سياسة كبير انتشرت في أوروبا كلها ، وألقت في روع العالم الغربي كله أن الإسلام عدو للمسيحية ، وأن العثمانيين لا يصلحون للبقاء وهيأت لروسيا أن تشن حربها الرابعة على تركيا ، وفيها كبدها خسائر لا تحصى^(١) وغنى عن الذكر أن الموقف في كل جوانبه كان موقفاً صليبياً ، وأنه مع ما دخله من أطماع سياسية ، كان موجهاً ضد الإسلام ، وفيه أغضى القوم جميعاً عما فعله المسيحيون ، وعن بدئهم بالثورة ضد المسلمين وأنهم بدأوهم بالقتل والذبح يغير ما سبب ، ولم تكن دماء المسلمين ذات قيمة في نظرهم وكأنما اعتبروها عملية تنظيف وتطهير للبلاد من المسلمين .

٤ - نهاية محزنة :

كان للهزائم المتتالية التي منيت بها الدولة العثمانية - دولة الخلافة الإسلامية - في القرن التاسع عشر ثم بهزيمتها مع دول المحور في الحرب العالمية الأولى - آثار سيئة على مسلمي أوروبا ، فالدول التي اقتطعت منها حورب

(١) أورد هذه الأحداث في اسفاضة وشرح صاحب « الدولة العثمانية » من ص ٨٤١

المسلمون فيها حرباً قاسية ، وهدمت مساجدهم وكانت كثيرة ، وحرّموا من التعليم الدينى ، وبحكم التعلم فى مدارس مسيحية نشأ أطفالهم مسيحيين وبمضى الزمن تناقص عددهم وعاملتهم حكوماتهم معاملة مهينة بدت فيها التفرقة العنصرية ، ومع كل مانالهم من قسوة وظلم وكبت بقى هناك مسلمون ، ورأت بعضا من سكان البوسنة والهرسك ، وهم غاية فى التأخر الحضارى .

وأزيل الإسلام من دولة البلقان كلها ، وبقيت فى بعض المدن مساجد أثرية قد تفتتح للزائرين ، ولكن لا تقام بها الصلوات ، وكان موقف بلغاريا أشد المواقف شذوذاً ، فهى دولة شيوعية لا تؤمن بأى دين ولكنها أبرزت للإسلام والمسلمين عداوة ظالمة وقحة ، إذ ظلت تحرم عليهم مزاوله شعائهم الدينية بأى وجه ، وأخيراً رأت أن تجبرهم جبراً على نحو أى شئ إسلامى فى حياتهم حتى أسمائهم .

حولت بلغاريا مساجد المسلمين إلى مخازن للخمر ، وإلى اصطبلات للخيول وأجبرتهم أن يغيروا أسماءهم إلى أسماء أوروبية مسيحية ، وحرمت اقتناء نسخ القرآن أو أى كتب إسلامية ، وعاقبت على ذلك عقوبة شديدة^(١) .

وتلدرعت لذلك بأن الأسماء العربية والإسلامية تجعل أصحابها على صلة وارتباط بتركيا وأنها تريد محو العنصر التركى وإشعار سكانها بالبعد عنه .

وقد جأر المسلمون بالشكوى من هذه المعاملة المجحفة التى تنكر حقوق الإنسان ولكن بلغاريا الشيوعية لم تأبه بشئ من ذلك كله .

(١) انظر فى مجلة Arabia عند مارس ١٩٨٥ حديثاً مستفيضاً عن هذا الوضع المزمن .

الفصل الرابع تنصير المسلمين ومؤتمرات التنصير

﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾
(قرآن كريم)

٩ - تنصير المسلمين :

رأينا في الفصول السابقة ألواناً من تنصير المسلمين وتكفيرهم ، وقد اقتنع خصوم الإسلام - بعد فشل الحروب الصليبية - بأن استعمال القوة في تنصير المسلمين ليس بذى جدوى ، فلجأوا إلى أساليب أخرى ، ولكن عوامل الضعف التى انتابت الدول الإسلامية ، والهزائم التى توالى أتقطت فكرة التنصير فى نفوس الصليبيين ، وعملت على إضعاف المسلمين فى بعض الدول وتكثرتهم نهائياً فى الدول اللادينية ، وكانت هذه الدول - من قبل - تتظاهر بأنها تكفل حرية الدين لرعاياها ، وأنه هى تسمى باسم الديمقراطية ولا تتدخل فى الحريات الإنسانية ، ولكنها الآن تبجحت ولم تعد تبالى بغضب المسلمين ، ثم هجمت على دول إسلامية مستقلة ، ورعايا مسلمين فى دول غير إسلامية ، ولم يستطع المسلمون أن يعملوا شيئاً ، وأيضاً أمام ضعف الروح الإسلامى لا يريدون أن يعملوا .

والقاعدة الإسلامية العامة تقول : « لو اعتدى على امرأة فى أقصى المغرب لوجب على المسلمين فى أقصى المشرق أن يهبوا لنصرتها فإن لم يفعلوا فليسوا بمسلمين » بمعنى أن إسلامهم - بسبب تقاعسهم يكون منقوصاً - وقد اعتدى على أقطار وجماعات ، وليس على امرأة واحدة - ولم يهب أحد لنصر المعتدى عليهم ، وهذا لضعف الروح الإسلامى ، لأن فى استطاعة الدول أن تعمل كثيراً من غير حرب ولا استعمال أسلحة ، ولو كانت الخلافة الإسلامية باقية وبين الدول الإسلامية رابطة ما حدث هذا العنوان .

وإذا فالإسلام أمام تيارين قوين : تيار تبشير يقوم على الدعاية ، وتيار تنصير وتكفير يعتمد على القوة وعدم المبالاة ، ولا ينبغى للمسلمين أن يخلطوا للاستكانة والاستسلام ، أو أن يستسلموا لليأس ، ويدعوا الأمر للمقادير ، بل عليهم أن يواجهوا كل هذه المواقف بما ووجهت به من قبل ، والإيمان بالله تعالى وبكتابه يحول دون هذا الاستسلام ، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكنهم

لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا ﴿١١﴾ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴿١٢﴾ .

٢ - صعوبة التبشير في الشرق :

منذ غزا المسلمون أطراف الدولة الرومانية في الشرق الأدنى نال المبشرين يأس بالغ من نشر المسيحية في هذه الأقطار ، وولوا وجوههم شطر الجهات الأخرى ، وتجدد لهم أمل في محو الإسلام بالحروب الصليبية فلما باءت بفشلها الذريع رأى مفكروهم أن الحرب لم تعد وسيلة صالحة لتنصير المسلمين ، فجنحوا إلى الوسائل الأخرى التى سبق ذكرها ، وظلت منطقة الشرق الأوسط خاية من النشاط التبشيري ، أو ليس بها إلا نشاط راكد ، بينما كان تياره مستمراً متدفقاً في الجهات الأخرى ، وفي النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأت مواجهة قوية بين التبشير والإسلام ، وكانت حال الضعف التى انتهت إليها الدولة العثمانية أهم مسبب للجرأة على هذه المواجهة ، وقد كانت الحملة الفرنسية التى قام بها نابليون على مصر ، من آثار الشعور بهذا الضعف ، ولم تستيقظ الدولة ، وهى دولة «الخلافة الإسلامية» ، وأطلق عليها الرجل المريض ، وتدخلت الدول الأوروبية في سياستها ، وانبعث تبعاً لذلك تيارات جديدة للتبشير وآمال في التأثير على المسلمين ، وأهم ما كان في اتجاههم عنايتهم بدرس الدين الإسلامى للبحث عما يعاب به ، وفي هذا المجال كان المبشرون والمستشرقون يعملون في حقل واحد ، ولكن لكل وجهته فكان هم المستشرقين أن يدرسوا الشرق لغة وفكراً واجتماعاً ثم تأتى الدعوة إلى الديانة المسيحية عرضاً ، وهم أسبق في دراستهم من المبشرين لأنهم بدأوا - كما سبق - بعد الحروب الصليبية ، وكان همُّ المبشرين هو بث التعاليم المسيحية وتعريف الناس بالإنجيل ، وهم أسبق من المستشرقين وجوداً لادراسة والدراسة

(١) سورة النور .

(٢) سورة محمد .

الاستشراقية ليست إلا وسيلة لما يريد المبشرون ، وبرزت بينهم الفكرة التي يجرون عليها منذ ذلك الوقت ، وهى أن جهل المبشرين بالدين الإسلامى هو الذى حال دون تنصير المسلمين فبدأوا درسه لإزالة هذا الحائل .

من هذا نرى أن درسهم الإسلام لم يكن درساً خالصاً للرغبة فى معرفة حقائقه وإنما هو بحث عن مواطن الضعف التى يمكن أن يهجم عليه منها ، وأيضاً دراسات المستشرقين لم تكن دراسة حرة بريئة ، لأن الباعث الأساسى عليها كان تبشيراً كما رأينا فى تفكير لول وتوما الاكوبنى ومن كانوا معهم ، ولأنهم اعتقلوا أولاً بطلان الإسلام فهم يدرسونه ليستخرجوا حججاً لعقائدهم لالاستدلوها أو يبحثوا عن الحقيقة ، ولذا كانت دراسة الجماعتين مجحفة بالإسلام . ومع كل ذلك أغرت الدراسة الإسلامية بعض اللاهوتيين والمبشرين أن يتحولوا إلى حقل استشراقى بحث ، كما فعل وليام بوستيل (١٥١٠ - ٨١) وتلميذه اسكا ليجر J. Scailiger (١٥٤٠ - ١٦٠٩)^(١) ، وكما فعل حديثاً كنيث كراج Kenneth Cragg^(٢) ، ونشر المبشر الانجليزى سير وليم موير كتاب « اعتذار الكندى »^(٣) Apology of Al-Kindi وهو فيما ذكر دفاع عن المسيحية كتب فى بغداد فى القرن التاسع الميلادى . ولموير كتاب « حياة محمد » الذى ذكره الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » ، وقال أنه نفى فكرة الصرع عن النبي محمد - ﷺ - ولكن الكتاب ملئ بالطعون ،

(١) تراث الإسلام ج١/ ٩٦١ .

(٢) مبشر إنجليزى تحول إلى الدراسة الاستشراقية وترك العمل التبشيرى ، وكان أستاذ الفلسفة بالجامعة الأمريكية فى بيروت فلما عاد إلى بلاده كان يدرس اللغة العربية والإسلام فى كلية القديس أوغسطين وله كتب « العالم الإسلامى » و « تداء المفظة » و « أحذية عند المسجد » .

(٣) لم أجد هذا الكتاب فيما ذكر من مؤلفات أبى يعقوب الكندى - الفيلسوف الإسلامى المتوفى سنة ٨٦٦م وذكر المستشرق الإيطالى ناجى Nagi أنه مات سنة ٢٥٨هـ فهو قد مات فى القرن الثالث الهجرى - وانظر « تاريخ فلاسفة الإسلام » ج٣ عن حياة الكندى وفلسفته ، وانظر تاريخ الفكر العربى لعمر فروخ ص ٣٠٥ وفيه أن الكندى ولد سنة ١٨٥هـ / ٨٠١م ومات سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م وانظر الفهرست ٣٥٨ .

ويعتبره المبشرون أصل الشجرة في أعمالهم التبشيرية^(١) وأخرج المبشر الكبير فندر G. G. Phander كتابه «ميزان الحق» فاتهم فيه القرآن الكريم بالتحريف وعابه بأن فيه نسخاً، وأنكر نبوة النبي محمد - ﷺ - ، وكان فندر حينئذ بالهند أيضاً، عضواً لإرسالية بازل التبشيرية في فارس وما يتصل بها من أقطار، وقد قامت حول هذا الكتاب ضجة وكانت الحكومة الانجليزية تساند مؤلفه ، وعارضه الشيخ رحمه الله الهندي (١٢٣٣هـ / ١٨١٨م - ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م) في كتابه «إظهار الحق»^(٢) على أثر مناظرة بينهما لم تتم . وقد فر فندر عقب المناظرة ، ثم ظهر في الآستانة على عهد الخليفة عبد العزيز خان ، وأشاع أنه هزم علماء المسلمين في الهند في مناظرة علنية ، وأرسل الشيخ رحمه الله لينظره هناك ، فلما علم فندر بوصوله هرب واختفى .

وكان فندر قد أتم كتابه سنة ١٨٢٩ ، وصدر بعده كتاب الهداية ، ولم يذكر اسم مؤلفيه في الطبعة التي رأيته وهو مجموعة شتائم وتنفير من الإسلام ، ورفع لشأن الكتاب المقدس وملحقاته ، وهو في جملة قائم على كتاب ميزان الحق ، ولم تستطع الهيئات التبشيرية أن تنصر أحداً من المسلمين في البلاد التي تأصل فيها الإسلام ، وكان العرب يبلون دائماً أشد استعصاء بحكم البيعة ولأنهم أقدر على فهم القرآن الكريم ، وبلادهم بها كثيرون من دارسي الإسلام الذين يردون بسهولة أباطيل المبشرين ، وأولى الانجليز بلاد الهند اهتماماً أكبر

(١) انظر Neil P. 366 وموير (٨٢١ - ١٩٠٥) عمل في خدمة الحكومة الانجليزية بالهند مدة طويلة ، وأقام مدة أخرى في البنجاب - وفي وظيفة أكبر ، وأثناء عمله عني بدرس الإسلام ، وهو مبشر مستشرق .

(٢) كتاب إظهار الحق طبع عدة مرات ، وبعضها على هامشه أربع رسائل أولاهها للسيد عبد الله الهندي ذكر فيه وصفاً شافياً للمناظرة ، وأسماء الذين حضروها ، ويان أن فندر نكص وفر وأصبح الشيخ رحمه الله في خطر من الانجليز ففر إلى مكة ، والرسالتان الثالثة والرابعة للشيخ محمد الطيبي الشافعي وفيهما بيان صحة الإسلام ودحض حجج النصرانية ، فهما تخريران مع إظهار الحق في طلق واحد ، أما ارسالة الثانية فهي للشيخ رحمه الله أيضاً تتحدث عن البعث والحشر . وقد ذكر هذه المناظرة والغروب التي وقعت فيها د / E. stock في كتاب له سماه «تاريخ جماعة إرسالية الكنيسة» : History of the church Missionary society: وأضاف إليها من وجهة نظره ما يخفف وقعها على المسيحيين .

وكرّث بها الإرساليات الإنجليكانية ، ومن المشهورين الذين يحفل بهم تاريخ التبشير « روبرت بروس R. Bruce » فبعد أن قضى عشرة أعوام بين مسلمي البنجاب قضى في إيران عاماً بين المسلمين أيضاً مبشراً بالإنجيل ولم يستجب له أحد ، وعند عودته إلى الهند جاء إليه بعض المسلمين يطلبون أن يعمدهم ، وكان معهم بعض ممن دخلوا المسيحية من أصفهان ، ولم يعرف مثل هذا الحادث في بلد استقر به الإسلام ، وكان لابد لذلك أن يبقى بروس في إيران عله يستميل بعض المسلمين ، وكان للحادث مغزى كبير لدى الكنيسة الانجليزية ، كما أن الكنيسة الأيرلاندية اكتسبت به مجداً وأصبح وجودها أمراً حقيقياً ، وكتب بروس إنني الآن لأجني حصداً ، إنني بصعوبة أستطيع أن أقول إنني أبذر الحب ، بل أقول إنني بصعوبة أحرث الأرض ، أو على الأصح إنني أجمع الأحجار من الأرض^(١) .

وأدى هذا الحدث إلى تأسيس هيئة تبشيرية في إيران ، وبعد تسعين عاماً من هذا التاريخ وفي ١٩٦١ عين في إيران أول رئيس أسقفية من الإيرانيين كان يدعى « حسن برناباس دهقاني تفتي » وفي سنة ١٨٧٧ عين أول أسقف في لاهور ، كان يدعى « توماس ثالبي فرنش » - وهو ذو حماس بالغ للدعوة ، وموضع ثقة الجمعية الانجيلية التبشيرية لكثرة ما أحرز من النجاح وقد دفعه حماسه إلى غزو الإسلام في عقر داره - أو كما قيل لطعنه في قلبه ، فذهب إلى مسقط في الجزيرة العربية ، وبقي هناك حتى مات ١٨٩١ م ، وكان من بين رفاقه في الكنيسة التي أسسها هناك شاب أمريكي واسع النشاط موفور الحماس هو « صمويل زويمر » هذا الذي نال شهرة واسعة فيما بعد باعتباره من الرواد الأول ، وذوى الأعمال البطولية في تأسيس كنيسة للإرسالية في الجزيرة العربية ، وهو أيضاً ذو ثقافة واسعة قضى أكثر من ستين عاماً في دراساته اللاهوتية والفلسفية ، وكانت مؤهلاته العقلية ذات أثر كبير في تأسيس هذه الكنيسة ، وفي مؤتمر مسكوني عقد في سنة ١٩٣٨ م كانت أشد

المقالات تأثيراً على السامعين خطبة ألقاها أحد أعضاء الإرسالية العربية ، فذكر فيها جهود المرسلين وأعمال زويمر وذكر قصة خمسة تنصروا خلال خمسين عاماً ، ثم جثا أمام الدكتور زويمر قائلاً : « الكنيسة في البلاد العربية تحييك »^(١) .

وهذه الأعمال اعتبرت في نظر المرسلين بداية عمل مدت أطماعهم إلى ماوراءها ، وقد نضجت هذه الأطماع واتسعت بعد ذلك ، وأصبح من أهم آمال الإرساليات الآن تنصير المسلمين فعقدت لذلك المؤتمرات الكثيرة التي ستحدث عنها بعد ، وجنحت الكنائس إلى الوسائل المادية ، مثل إنشاء المدارس والمستشفيات ووسائل الدعاية المرئية والمسموعة ، ولكن أنجح الطرق لديهم هي الاتجاه إلى الطبقات الفقيرة جداً والمهملة من التعليم ، وعملت الكنائس والإرساليات على التعاون وإيجاد صلات بينها لهذا العمل رغم اختلاف عقائدها ومذاهبها ، وبدا هذا واضحاً في الكنيسة الكاثوليكية في مصر القديمة ، فقد عملت طبقاً للوصايا على حسن الاتصال بالقبط ، واتخاذ أصدقاءهم ، وإشراكهم في اجتماعاتها ، وبذا يمكن أن يكونوا جبهة واحدة ضد مسلمين .

والواقع أن الكنيسة أشركت معها أيضاً الكنائس الأخرى التي بمصر وكونت من الجميع حلفاً قوياً ، ولكن في صمت وسلام ثم جاءت الإرسالية الأمريكية فقامت بنشاط تعليمي وتبشيري واسع ، لافى مصر وحدها بل في أنحاء الشرق الأوسط كله .

٢ - المؤتمرات الكبرى

والذين كفروا بعضهم أولياء بعض
الافتعلوا تكن فتنة في الأرض وفسادا كبيرا ﴿١﴾
(قرآن كريم)

أشهر المؤتمرات المسكونية

مر بنا فيما سبق أن هناك مؤتمرات قومية أو إقليمية يحضرها كبار القسس من الجهات المتقاربة ، ومؤتمرات مسكونية عامة يحضرها البطارقة ورؤساء الكنائس من مختلف أنحاء المسكونة ، وتعقد هذه المؤتمرات كلها للنظر في سير الدعوة للإنجيل والعقبات التي تعترضها ، وما يمكن عمله لإزالة هذه العقبات ، ومنذ أول القرن العشرين كثرت هذه المؤتمرات وتلاحقت ، وبدأ فيها جميعاً أن العقبة الكبرى أمام التبشير هي الدين الإسلامى . وجاء فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » وفى كتاب « تاريخ الإرساليات للدكتور نيل استيفن » أحاديث عن هذه المؤتمرات ، والذي يعطينا من عرضها أن نبين للدعاة الإسلاميين مايبيت لدينهم ، وما يجب أن ينبهوا ويعملوا له ، ولا نذكر إلا المؤتمرات ذات الأهمية فى هذا الصدد .

١ - مؤتمر القاهرة

عقد هذا المؤتمر سنة ١٩٠٦ فى ظل الاستعمار الإنجليزي ، وكان من تمام السخرية أن يعقد فى منزل أحمد عراى الذى نفاه الإنجليز لمعارضته إياهم . وكان الذى دعا إلى هذا المؤتمر وتولى رئاسته هو صموئيل زويمر الذى مر ذكره وشئ من أعماله ، وبحكم مذهبه دعا الإرساليات البروتستانتية إلى حضوره . وامتناز هذا المؤتمر بحسن تنظيمه واختياره الموضوعات الهامة التى يتحتم على المبشر أن يعالجها ، وأن يعرف أسبابها ويقضى عليها ، وكل هذه الموضوعات كانت تدور حول مواجهة المسلمين بالإنجيل والطريقة التى ينجحها المبشر وكان لهذا المؤتمر نتائج هامة أيضاً ، ومن طريف المسائل التى تعرض لها مكانة الأزهر التعليمية ووقوفه حائلاً ضخماً أمام التبشير والمبشرين ، وقدم اقتراح بإنشاء مدرسة مسيحية جامعة لجميع الكنائس بدون تفرقة بين مذاهبها العديدة - ويبدو أن هذا كان أول اقتراح من نوعه ، وقد أنشئت مدارس تبشيرية بعد ذلك وبوحي من هذا المؤتمر فى مصر وفى الشرق ولكن فكرة اجتماع الكنائس لم تتحقق ، (وفى المؤتمر الذى عقد فى معهد زويمر فى كاليفورنيا سنة ١٩٧٨ م

أعيد هذا الاقتراح) ، وما برز في هذا المؤتمر العناية بالتبشير عن طريق الطب ، وعن طريق المبشرات اللائي يعملن في المدارس التبشيرية .

ومن المسائل النظرية التي أثرت في هذا المؤتمر بحث عقيدة المسلمين ، وهل الإله الذى يعبدونه هو إله اليهود والنصارى أم إله آخر ، وقرر زويمر رئيس المجلس أن المسلمين موحدون ولكن تعريفهم لإلههم لا يوافق تعريف المسيحيين لإلههم ، فإنه المسيحيين إله قداسة ومحبة وإله المسلمين ليس كذلك .

وتمخض المؤتمر عن نشرات وكتب أهمها كتاب « وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين » وهو مجموعة المقالات التي أُلقيت في هذا المؤتمر ، ثم كتاب « العالم الإسلامى اليوم » من عمل صمويل زويمر وبعض رفاقه . وصدر بمقدمة ضافية تذكر أن الإسلام قوة لا يستهان بها ولكنه يحوى مساوئ تعدد الزوجة وانحطاط المرأة ، وفيها توجيه اللوم للإرساليات التي اهتمت بتتصير الوثنيين دون المسلمين .

وفي كتاب « العالم الإسلامى اليوم » فصل ضاف عن التبشير في مصر - وفيه ذكر أن المبشرين الأمريكان أسسوا معهداً للتبشير في مصر « أسسته جمعية اتحاد مبشرى أمريكا الشمالية سنة ١٨٥٤ ، وقد نشرت هذه الجمعية كتباً بين المسلمين منها « شهادة القرآن » - وهو كتاب يوضح أن القرآن الكريم يشهد بأن المسيح إله وابن لله ، وكتاب « إعتذارات الكندي » الذى سبق الحديث عنه ، وكتاب « ميزان الحق » - ثم وضعوا كتاب « الهداية » فى أربعة أجزاء وقد أشرنا إليه أيضاً فيما سبق ، وهو من عمل لجنة لم تذكر أسماء أعضائها به .

وقد بالغ المبشرون فى آثار هذه الكتب على المسلمين ، وأخفقوا مناظرة الشيخ رحمه الله وكتابه « إظهار الحق » الذى فند فيه « ميزان الحق » .

وفى سنة ١٨٨٢ تأسس معهد للتبشير ، سميت مدارسه « مدارس المرسلين الأمريكان » اتخذ منهجاً منظماً ، إذ أنشأ قسماً طبياً للعلاج وتبشير

المرضى ، وأنشأ مدرستين للصبيان والبنات ، وقسماً خاصاً بنشر الإنجيل ، ونتيجة ذلك فيما ذكروا أن تنصر نحو مائة وخمسين شخصاً في خمسين عاماً أو ما يزيد عليها قليلاً .

وفي سنة ١٨٩٢ تأسست جمعية تبشير شمال أفريقية لتنصير المسلمين واتخذت مصر مقراً لها ، ثم أنشئت « الجمعية العامة لتبشير مصر » ، ولم تنشأ هذه أن تكون القاهرة مركز نشاطها بل جعلت لها مراكز في الأقاليم واعتمدت على توزيع النشرات والكتب والتقرب إلى المسلمين وتقديم الخدمات العديدة لهم ، واستطاعت هذه كلها أن تنصيد بعض السذج الفقراء ، واستعصى عليها الكثيرون رغم ما نالوا من خدماتها .

وكتاب « العالم الإسلامي اليوم » - مع ما فيه من المبالغات والمغالطات التي وضعها القس زويمر لتشجيع المبشرين - قيم جداً بما يبدى من أنواع النشاط التبشيري ومراكز المبشرين وبما كشف عنه من وسائل التبشير وإعداد المبشرين ، وبه دراسة دقيقة عن المجتمعات الشرقية في عدد من البلدان ، وهي تبين أن المبشرين يستعينون بالباحثين الاجتماعيين وتقارير السياسيين ، وخبراء العلوم المختلفة .

ومن نتائج هذا المؤتمر ونتيجة لاقتناع أعضائه بما اقترحه القس زويمر وأكده ، أن فكر الجمعيع جدياً في إنشاء معاهد لتفهم المبشرين ما يحارب به الإسلام وأنه دين زائف يجب أن يدحض ، وأن تُعد لهم كتب أدبية ودراسات عربية تلبى متطلبات الدعوة بين المسلمين وتتجح في استمالتهم لها ، وكانت هذه هي البنود الأولى والفكرة التي تبلورت في مؤتمر لكنو ، وبها أنشئ معهد هنري مارتن H. Marten في الهند^(١) ثم قامت « رابطة الإرساليات للمسلمين » وقامت مجموعة صغيرة لهذا العمل فأخرجت نشرة في نحو خمس صفحات . فما لبثت أن نمت وصارت مجلة سميت مجلة معهد هنري مارتن^(٢) ، وسيأتي الحديث عن هذا المؤتمر .

Sec the Buletin of the institute. V-111-1980 published in (١)

.Hyderabad

. Quited from study papers No 7 by Ataulлах Soddi (٢)

٢ - في مصر

كان المبشرون ينظرون إلى مصر بشيء من الحذر ، لأنها قلب الإسلام ومبعث الدعوة إليه ، وبها الأزهر الشريف أكبر وأعرق مدرسة إسلامية في العالم كله ، ورأينا فيما سبق أن الشرق الأوسط كله لم يكن حقل نشاط للتبشير ، وظل الأمر كذلك حتى كانت أصابع الاستعمار هي التي ساندت التبشير وحولت القاهرة إلى مركز تبشيري دولي .

في سنة ١٨٨٢ وقعت مصر تحت سيطرة الانجليز ، فبدأ النشاط الانجليكاني وأنشأت «جمعية إرسالية الكنيسة» مستشفى هرمل في مصر القديمة ، واتخذت منه مركزاً للدعاية الانجليكانية كما هو مصحة ومقر علاج للمرضى ، وكما يقول استيفن نيل كانت مصر أولى الأقطار التي تشعر بهذا الروح الجديد الذي كان يعمر الجامعات الأوروبية^(١) ، وظهر عدد من الجامعات والمدارس التبشيرية ، منها : «اتجاهات الإصلاح للطلبة المسيحيين ، واتحاد الطلبة الرواد المسلمين» ، واتحاد الطلبة المرسلين الدولي ... وهذه الجامعات ليست موجودة إلى الآن ، ولكنها لم تكن لتنشأ في القاهرة لولا سيطرة الانجليز ، ومما يذكر أنه بعد أقل من عامين بعد الاحتلال البريطاني ألغى القانون الإسلامي الذي كانت تحكم به مصر وحل محله القانون الفرنسي ، وبقي للقانون الإسلامي حقل ضيق هو قانون الأحوال الشخصية ، وتبعاً لذلك ضيقت الوظائف على أبناء الأزهر وضيق رواتبهم المادية ، وغمرت لغة التعليم في المدارس ، وجعل يوم الأحد أجازة الأسبوع في بعض المصالح الحكومية^(٢) .

ولم تشأ الحكومة الانجليزية أن تضيق على المسلمين في عبادتهم وتقاليدهم الدينية ولكن هية رجل الدين بسب ضالة وظائفه اضمحلت وهان هو في نظر الكبار من ذوى المناصب ، ولم يكن القاضي الشرعي عدلاً للقاضي الأهلي في

(١) انظر Neill p 368 .

(٢) ظلت مكاتب البريد تغلق يوم الأحد حتى سنة ١٩٣٦ م .

راتبه ، ولاله من السلطة مثل ماله ، وكانت أحكامه تقوم على شهادة الشهود وهو مسلوب السلطة من عقابهم ، فكثرت شهادة الزور في المحاكم الشرعية ، وألصق ذلك العيب بالإسلام ، ولم يكن التعليم بالجان إلا في الأزهر ومعاهده ، فكان التعليم فيه لأبناء الفقراء ، ومن هنا اتجه الآخرون إلى دراسة القانون الوضعي الذي يؤهل للوظائف الكبيرة ، وربما وجد من هؤلاء من يهجمون على الإسلام وينكرون صلاحية قانونه ، فكان هذا عوناً للمبشرين من طريق غير مباشر^(١) .

وذهب جماعة إلى التعلم في أوروبا وعادوا نسخاً من المستشرقين يرددون أفكارهم ويهجمون على الإسلام والقرآن بالصورة والأسلوب الذي يهجم به المستشرقون ، فبشوا نوعة الإلحاد في الشباب ، وكان هذا عوناً آخر للمبشرين لأنه إضعاف للإسلام وقتل لروح الدفاع عنه .

وفي الثلاثينيات من هذا القرن كانت الأزمة العالمية التي أصابت الناس بفقر مدقع وعوز للمال القليل ، فكان ذلك منشطاً لحركة التبشير استغلالاً لحاجة الناس خصوصاً في المستشفيات والمدارس ، وقام للمبشرين في مصر نشاط واسع ولكن لم يتنصر مسلم .

وقد كان في الجمعيات الدينية مجال لتغذية الشباب بفكر إسلامي متنوع ، وإكمال لما قصر فيه منهج التعليم الديني في المدارس ، ولكنها جميعاً أصيبت بالكساد وعداء الحكومات .

خلال ذلك كله كان الفكر الماركسي يحاول أن يتسلل سراً إلى أذهان الشباب ووجدت له في مصر وغير مصر أوكار سرية ، وكان ذوو العوز والشره المادى هم الذين يستجيبون لهذه الدعوة ، ووضع الكثير منهم في المعتقلات والسجون ، ولم يقض على منهم بل ظل آخرون يعملون سراً حتى قضت الظروف أن تتجه مصر اتجاهاً اشتراكياً أو نظاماً شيوعياً يحمل

(١) ظلت هذه النزعة زمناً طويلاً ومازال لها مناصرون إلى الآن .

اسم الاشتراكية ، فقوى الهجوم على الإسلام من أبنائه وفترت دعوة الدعاة ، ومهد ذلك السبيل للأعمال التبشيرية ، ولا يخلوا الآن بلد إسلامي من مدارس تبشيرية مقنعة أو سافرة كما لم يخل من مستشفيات تعمل لحساب التبشير ، وهذا يعني أن هناك ركودا وسلبيات في الدعوة إلى الإسلام يقابله نشاط وإيجابيات في أعمال المبشرين ، والحق أن هؤلاء المسلمين المنحرفين عملوا لإضعاف الروح الإسلامي وإثارة الشبه حول الإسلام والغض من شأنه ما لم يكن يطمع المبشرون في مثله ، ويرجع انحرافهم إلى أمرين اثنين ، أنهم لم يتفقوا ثقافة دينية أو لم يربوا تربية دينية كافية ، وأنهم يؤثرون الكسب المادي ويفضلونه على المعنويات والمشار النبيلة وهذا راجع للأمر الأول أيضاً .

أما محاولات المبشرين الأولى - بعد الاحتلال البريطاني ، فكان من أبرزها قيام المبشرين الكمبرين دوجلاس ثورنتون Douglas Thornton ووليم هـ قبل جايرندر W. H. Temple Gairrender ، بإصدار مجلة الشرق والغرب Orient and Occident .

قدم ثورنتون إلى القاهرة سنة ١٨٩٩ ، فعمل في حقول التبشير بنشاط بالغ ، ولكن حياته لم تطل فمات سنة ١٩٠٧ ، وخلفه جايرندر ، وكان قد حذق اللغة العربية للدرجة أنه كتب بها شعراً جيداً ونشره على الناس ، وكان منهجها معاً هو التودد وحسن التعامل مع المسلمين ، ورأيا من ذلك أن يخرجوا مجلة « الشرق والغرب » باللغتين الانجليزية والعربية ، وكان غرضها الأساسي عقد صلة بين الديانة المسيحية والإسلام من ناحية ، ودعوة أقباط مصر إلى المذهب الانجليكاني من ناحية أخرى ، وبواسطة هذين المبشرين ومن خلفهما قدمت بعض المعونات إلى الكنيسة الأرثوذكسية مع عدم التدخل في شئونها ، وأيضاً مع عدم طعن الإسلام لأن غرض الجماعة - وكلها موفدة من الكنيسة الانجليكانية - هو عقد صلة ومودة مع المصريين ، وعدم مجاهرة المسلمين بالعداء ريثما تتكون جبهة من هؤلاء المرسلين ومن قبط مصر معاً ضد المسلمين - ولم تصل هذه الحركة مع كثرة الإنفاق ووفرة النشاط إلى النتيجة التي كانت ترجى ، ولكنها كانت ريادة مشكورة .

٣ - مؤتمر أدنبره Edinburgh

عقد هذا المؤتمر في القاهرة سنة ١٩١٠ ، وكان به ١٢٠٠ مندوب من الإرساليات المختلفة وكان من المقرر أن يحضره الرئيس الأسبق للولايات المتحدة « مستر روزفلت » ممثلاً للتبشير الأمريكي ، لأنه مبشر معروف ولكنه اعتذر عن عدم تمكنه من الحضور ، وحضر خطيب أمريكا مستر « براين » M. Brine المشهور بلسانه وبلاغته ، والذي رشح نفسه غير مرة لرياسة الولايات المتحدة ، وكانت كثرة المنبوين من الانجليز والأمريكان ثم الألمان ، وكانت لغة المؤتمر هي اللغة الانجليزية .

وكان هذا المؤتمر على أهمية كبيرة جداً ، وتنوعت البحوث والمقالات التي أقيمت فيه تنوعاً واسعاً ، وكان جاداً كل الجد إزاء المقترحات والمعلومات التي بحثت به ، ووضعت كلها بعد ذلك موضع التنفيذ ، وقسم الأعضاء أنفسهم حسب الموضوعات التي يدرسونها إلى ثمانى لجان كل لجنة تنظر في جانب معين من الجوانب التي تهتم المبشرين ، وفي استعراض ما تخصصت له هذه اللجان لم يخل عمل واحدة من حديث عن خطر الإسلام وبحث الطرق الناجحة للتغلب عليه ، أو ما يمكن عمله لتتصير المسلمين ، أو كيفية إعداد المبشر المسيحي للهجوم على الإسلام ... وهكذا ، وجاء في كلمة القس تشارلس وطسون : أن الغاية من عقد هذا المؤتمر هي البحث في مسائل العالم الخارج عن النصرانية ، .. وقرارات المؤتمر تنبئ عما كان للمسائل الإسلامية من حظ كبير في أعماله ، ولم يكن خطر الإسلام في نظرهم هو فقط تحول بعض المسيحيين إليه ، ولكن أكبر من ذلك أن يدخله الوثنيون فيزيد عدد المسلمين على عدد المسيحيين في البلاد التي يجتمع فيها الدينان ، وجاء في مقالهم : أن في جزائر ماليزيا وجزر الهند الهولندية (وهي أندونيسيا الآن) ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ مسلم (وكان ذلك في سنة ١٩١٠ والآن ، يوجد أضعاف هذا العدد) وعددهم يزداد يوماً بعد يوم بقدر ما ينقص من عدد الوثنيين هذا مع أن المبشرين في الهند خصصوا جل نشاطهم لتتصير المسلمين .

واستعرضت البحوث ميادين التبشير في أواسط أفريقية وفي الهند والصين واليابان على الأخص وغير هذه الأقاليم عامة ، وفي جميعها يبدو أن العدو الألد هو الإسلام ، وفي كل إقليم بدت وسائل خاصة تدعو أن يستعد لها الدعاة ، وأن تكون دراساتهم واستعدادهم ملائماً للوسط الذي يعملون فيه ، وجاءت في كلامهم عبارات تفاؤل تقول أن الوقت الذي يمكن فيه زعزعة الإسلام من أركانه قد أصبح قريباً .

ويمكن تلخيص النقاط البارزة في بحوث المؤتمرين وقراراتهم في نقاط خاصة هي :

١ - اتحاد الإرساليات التبشيرية - لأن تفرقها وانفراد كل إرسالية بمذهب ومنهج هون من قوتها ، واقترحوا لذلك - وإن لم يتم التنفيذ - أن تصدر كتب بالمسائل المتفق عليها من الإرساليات جميعاً ، وأن تنفرد كل إرسالية بإصدار النشرات الخاصة بها .

٢ - دراسة أحوال المسلمين وعاداتهم ، ثم التودد إليهم نحو العداء بينهم وبين المبشرين . كي يأتسوا إليهم ويستجيبوا لهم .

٣ - أن بلاد المسلمين التي كانت تحت حكم الدولة العثمانية ، والتي كان ينال المبشرين يأس من العمل فيها أصبحت سهلة الغزو بعد أن حدثت بها عدة انقلابات ، ولذا يجب أن يتسلح المبشرون بمعلومات إسلامية تناسب هذه الأوساط .

وكان اللورد بلفور - صاحب وعد الصهيونيين باستيطان فلسطين - رئيس الشرف لهذا المؤتمر ، وقد ألقى في نهاية المؤتمر كلمة جاء فيها أن المبشرين ساعدوا الحكومات في كل بلد ، وأنهم ذللوا كثيراً من العقبات - (يعني أمام المستعمرين) - التي ماكانت تذلل بغيرهم واقتراح إنشاء لجنة دائمة تنظر فيما ينبغي أن يعمل لخدمة المبشرين .

(١) انظر ماكتب عن هذا المؤتمر في «الغارة على العالم الإسلامي» ص ٤٠ وما بعدها - Niell - فلم يكتب عنه كتابة موسعة .

وكلمة بلفور واضحة صريحة فيما يجب عمله - من الحكومات الأوروبية كلها لخدمة المبشرين وهي وصية معمول بها ، لأن اللجنة المقترحة تكونت توا .
وجمعت أعمال هذا المؤتمر فشملت تسعة مجلدات .

من آثار هذا المؤتمر :

كان لهذا المؤتمر آثار فعالة في أعمال المبشرين وفي المؤتمرات التي عقدت بعده ، فعقبه مباشرة غيرت مجلة الشرق المسيحي الألمانية اسمها فتسمت « الشرق المسيحي وإرساليات التبشير الإسلامية » وعهد منذ إذ بتحرير القسم الإسلامي فيها إلى قسيس بلغاري كان مسلم ثم تنصر ثم صدرت « مجلة العالم الإسلامي » الانجليزية بعد نحو خمسة شهور من هذا المؤتمر الذي عقد في سبتمبر سنة ١٩١٠ ، والمجلة صدرت في فبراير سنة ١٩١١ ، وتولى إدارتها القس زويمر ، وجاء في عددها الأول « دخلنا بعد مؤتمر القاهرة في دور جديد ظهرت فيه أهمية تنصير المسلمين ... ومجلتنا تستحسن الاهتمام الشديد الذي أبداه مؤتمر أدنبره وسنجهده في بحث المسائل التي بحثها ... » ، ثم صدر كتاب « العالم الإسلامي اليوم » لزويمر نفسه ، ومن آثاره المباشرة أن تألقت لجنة لمواصلة الأعمال التي أثيرت في المؤتمر وقسمت فروعاً عديدة كل فرع له اختصاص معين ، ثم بمشورة زويمر أيضاً أنشئت مدرسة تبشير مشتركة تجمع الفرق البروتستانتية مهمتها تهية المبشرين الذين يعملون في الأقطار الإسلامية ذكوراً وإناثاً .

ثم عقد في ألمانيا مؤتمر استعماري ، كانت مهمته هي البحث في شعون الاستعمار وما يجب عمله في المستعمرات لإقارار الأوروبيين فيها ، فبدا لأعضائه السياسيين أن التبشير المسيحي وتنصير المسلمين أمر هام لتثبيت الاستعمار في الشرق ، وأن الإسلام هو العدو الأول للمستعمرين ، وأنه لا بد من القضاء عليه قبل أن يقضى هو على الاستعمار ، وكان لا بد من الرجوع إلى ما جاء في مؤتمر أدنبرا من قرارات وبحوث .

ومن الجوانب الهامة - ومن وجهة نظر المسلمين - أنه مؤتمر أدنبرا والمؤتمر الاستعماري كانا من أسبق ما كشف الغطاء عن أعمال الحكومات الأوروبية لمحاربة الإسلام .

٣ - مؤتمر لكنو

عقد هذا المؤتمر في مدينة لكنو (لكهنو) الهندية سنة ١٩١١ ، وهو في واقعه امتداد لمؤتمر القاهرة ، لأن هدفه الأول هو التخطيط والإعداد لتنصيب المسلمين ، واستمر ثمانية أيام ، وكانت شخصية زويمر وآراؤه وراء انعقاد المؤتمرات الثلاث ، وكان هذا المؤتمر أكثر استعداداً ونظاماً من مؤتمر القاهرة ، إذ أعد خرائط ورسوماً وصوراً مجسمة ، كل ذلك لتوضيح آثار الإسلام والأماكن التي يكتنز أو يقل فيها المسلمون ، ورأسه زويمر أيضاً ، وكان إعجاب الأعضاء به واستعدادهم لتنفيذ ما يشير به أو يقترحه بادياً عليهم وعلى أعمالهم ، ووصف بأنه الرجل الذي لا يهزم لأنه درس الإسلام سنين طويلة ، وعاش سنين أطول بين الشعوب الإسلامية التي يحبها حباً ماً^(١) - ومحبه لهذه الشعوب هي رغبته في هدايتهم إلى نور الإنجيل .

وكان المؤتمر سرياً ، لم يسمح لمراسلي الصحف بحضوره ، ولكن أعطوا صوراً من قراراته وملخصاً من أعماله بعد أن وضعت في الصيغة التي يرونها صالحة للإذاعة ، وجاء في مجلة العالم الإسلامي التي يرأسها زويمر أن السنين الخمس التي تلت مؤتمر القاهرة كانت مسرحاً لخوارق وأحداث جسيمة ، منها الانقلاب الفارسي والآخر العثماني ، وتأسيس مجالس شورية في الهند كان للمسلمين فيها ميزة وزيادة على المسيحيين ، ودخلت الدعوة الإسلامية في قالب يلائم العصر ، وحاول مسلموا الصين تنشيط دعوتهم ، وامتد الإسلام في أفريقية والهند الغربية والجزائر الجنوبية ... إلخ ، وكل ذلك يحتم على الكنيسة أن تعمل بحزم وجد ، وكان في البرنامج تسعة مواد تدور كلها على النظر في تنصيب

(١) انظر الفارة على الإسلام ص ٥٢ - وما بعدها .

المسلمين وإعداد المبشرين بمختلف جوانب الإعداد ، والنظر في حركة الجامعة الإسلامية وأثرها على التبشير إن عوق تنصير المسلمين .

وعرض زويمر في خطبته إحصائيات عن المسلمين في عدد من البلاد ، أو في كل البلاد التي بها إسلام ، ثم تحدث عن التطورات السياسية والفكرية وآثارها في إيقاف الفكرة الإسلامية ، ولكنه تغزى وعزى الأعضاء بأن المسلمين لا يزالون في حالة تقهقر ، رغم أن الإسلام يتمشى بين الوثنيين ، ورغم أن القرآن يترجم إلى لغات عديدة^(١) .

كان هذا المؤتمر شاملاً لجوانب عديدة من أحوال المسلمين ، وأبدى بعض المتحدثين ارتياحاً لضعف الجامعة الإسلامية ، وظهرت أيضاً الشماتة في السلطان عبد الحميد ، وفي نهاية المؤتمر تواصلوا بعقد مؤتمر تالي في القاهرة بعد خمسة أعوام أى سنة ١٩١٦ ، كما رأوا - أنه من الضروري العاجل تأسيس مدرسة تبشيرية في مصر تمثل كل المبشرين البروتستانت ، كما أوصوا بالعناية بإدخال المبشرات المسيحيات .

وتعتبر سنة ١٩١١ بداية تاريخ هام في إعداد الإرساليات إلى المسلمين ، وفي تتابع المؤتمرات دراكاً بعده ، وفي مايو سنة ١٩١٢ صدرت أول نشرة عن هذا المؤتمر وتدولت بطريقة سرية ، وكانت كراسة صغيرة « بعنوان » أخبار وملاحظات - وهي التي تطورت فيما بعد لتصبح « مجلة معهد هنرى مارتن » .

ومنذ سنة ١٩١٢ - ١٣ قامت سلسلة من المؤتمرات بلغت واحداً وعشرين مؤتمراً للإرساليات وقادة الكنائس ، وكان الغرض منها هو التركيز على التعاون بين الكنائس ، ومضاعفة النشاط المبلول لتنصير مسلمي الهند ، وفي هذا العام صدر كتاب « العالم الإسلامي » لصمويل زويمر .

(١) النظر القارة على العالم الإسلامي ص ٥٢ وما بعدها .

وفي سنة ١٩٢٤م عقد مؤتمر «أورشليم» نتيجة لسلسلة المؤتمرات التي أقيمت في بلاد المسلمين ، وفيه وضحت المشكلات التي تواجه المبشرين بين المسلمين ، كما قررت خطوات العمل وأبواب المعونات للعاملين بين المسلمين في المستقبل ، وجاء في الإحصائيات التي عرضت أن في الهند ٥٠٠٠ إرسالية بروتستانتية وأن عدد المسلمين في الهند ٧٠ مليوناً ، وأن هذه النسبة بين المبشرين والمسلمين لا تشجع على نشر المسيحية ، ومن المقترحات التي قدمت اقتراح بدرس آداب الإسلام لتكون آلة يستطيع المبشرون أن يخرقوا بها نطاق العالم الإسلامي ، وأن ينشروا تعاليم المسيحية بين المسلمين ، إذ أن معرفة التاريخ الأوروبي بكل شعب هو الباب الذي يمكن من الاندماج به ، وبهذا نجد أن الدراسة الاستشرافية أصبحت جزءاً من عمل المبشرين ، وهذه الدراسة كانت فعلاً هي النشاط الرئيسي في معهد هنري مارتن .

ومن الأشخاص الذين برزوا في هذا المؤتمر الدكتور : م. س. تيتاس M. S. Titus فقد شرع على الفور في إنشاء معهد للدراسات الإسلامية ، واستجابت له الكنيسة النظامية (ميثودية) فما كاد يمر عام واحد حتى كانت الكلية قد أنشئت في بريلي - قريباً من لكنو ، وفتحت فرعها للخريجين الذين سبق لهم درس الإسلام ، وكانت هذه المدرسة رائداً لمعهد هنري مارتن^(١) .

وفي العام نفسه اجتمع مجلس جمعيات المرسلين في بريطانيا ، وقرر مساندة مركز الدراسات الإسلامية في الهند ، وجاءت اقتراحات أخرى مساندة من اجتماع المجلس القومي المسيحي في الهند ، الذي عقد في كلكتا سنة ١٩٢٦ - ويبدو أن بعض العوائق تنأت في طريق قيام المعهد حتى سنة ١٩٣٠م . ولمعهد هنري مارتن نشاط تبشيري لا يزال قائماً إلى الآن ، ويعتمد أساساً

(١) انظر بحث الأستاذ عطاء الله صديقي عن هذا المعهد - الحلقة الرابعة من الدراسات الإسلامية

Siddiky Paper No. 7 بعنوان « Henry Martn Institute of Islamic studies » محاولة

لتنصير المسلمين في الهند .

على الدراسات الأدبية ، فيدرس الإسلام ويقدم للمسلمين دراسات مسيحية مرغوبة فيها وشارحة فضائلها ، وهناك تعريفاً موجزاً بأعماله .

٥ - معهد هنرى مارتين

HENRY MARTIN INSTITUTE

رأينا أن الفضل في فكرة هذا المعهد وفي إيجاده يرجع إلى القس زويمر ، وأن الغرض هو دراسة الإسلام محاولة لتصوير مسلمى الهند ، وأيضاً غيرهم . وقد أسس سنة ١٩٣٠ في لاهور وبعد عامين فقط انتقل إلى جبال الهملايا في مدينة لاندنور . ومع الخريطة توضيح لانتقالات هذا المعهد في أرجاء الهند حتى استقر أخيراً في حيدر أباد ، ولا نعرف سبباً لهذه التقلات ولعلها كانت لاختيار المكان المناسب الذى يمكن نجاح الدعوة فيه أكثر . وقد أمدته الإرسالية البريستارية الأمريكية وتحملت جميعات الإرساليات البريطانية تمويله - وعلى الأخص جماعات الميثوديزم ، والتعميد Baptism والانجليكان - وهكذا نهض هذا المعهد بداية لنشاط أوسع واختيرت له هيئة تدريس وإدارة من قس متميزين معروفين برق معلوماتهم وقوة حماسهم .

ومن الناحية الإدارية قسم المعهد إلى ثلاثة أقسام هي :

- ١ - دراسات للبحث والتنقيب يقوم بها أعضاء معينون من هيئة التدريس .
- ٢ - تدريب الدعاة المسيحيين على كيفية العمل لتصوير المسلمين .
- ٣ - إعداد مختارات معينة من الأدب المسيحي لتقديمه إلى المسلمين .

وتقدم عدد من الكنائس والإرساليات والجماعات المختلفة للتعاون والعمل معاً وفقاً للخطط الذى رسم ، وكان هذا في الواقع نجاحاً كبيراً لخطه زويمر التى دعا فيها إلى توحيد الإرساليات وعملها معاً .

أما الموضوعات التى كان على المعهد أن يعالجها ، فحددت بتسعة موضوعات لاداعي لتلخيصها ولاعرضها جميعاً ، ولكن نقتطف منها :

١ - مساعدة الكنيسة والمعاهد الأخرى على تحقيق رسالتها في تنصير المسلمين بتقديم فهم مبسط ومناسب للإسلام ، يمكن به التفاهم مع المسلمين حول دينهم وإبراز عيوبه .

٢ - أن تعد مكتبة أو مكتبات تسهل الاطلاع للأساتذة والطلبة على الإسلام للدراسة والبحث .

٣ - أن ينشر المعهد كتباً وتقارير ودوريات ونبذاً ورسائل .. ليتداولها الأساتذة والطلبة ومن يقرأ من خارج المعهد .

وبقية الموضوعات تدور حول هذا الهدف ، وتوضيح الوسائل المختلفة التي ينهجها المبشرون .

وحين قسمت الهند سنة ١٩٤٧ رأى المعهد أن يبقى في الهند ، وألا ينقل إلى باكستان لأن الهند ظل بها في هذا الوقت نحو ٧٥ مليوناً من المسلمين موزعين في الولايات الإسلامية ، وهم كثرة قد تعد التجمع الثالث لمسلمي العالم ، وهم في هذا التفرق أسهل اصطفاً وأقرب انقياداً لدعوة الإنجيل - ولكن المعهد واجه صعوبات أخرى حتى وصل الدكتور كنيث كراج Kenneth Crag الذي يعتبر زعيم الثاني - أو هو زعيم هذا الموقف ، فقام بمقابلات وعقد اتصالات بين رؤساء الكنائس وقادة الإرساليات وممثلي أنحاء الهند ، لجمع كلمتهم ، وجعلهم يلتقون حول رسالة هذا المعهد ، فبحث فيه حياة جديدة - وباقتراحه وعرضه أفكاره الجديدة تحول اسم المعهد - من مدرسة هنري مارتن إلى «معهد هنري مارتن للدراسات الإسلامية» .

ولأيزال هذا المعهد يزاوّل نشاطه ، الثقافي ويخرج مطبوعات بمختلف اللغات الهندية ومازال المال يتدفق عليه من الإرساليات العديدة ، وهو بلاريب يدخل في المسيحية كثيرين منهم مسلمون .

٦ - مؤتمر كاليفورنيا ١٩٧٨م

ربما كان هذا المؤتمر أكبر المؤتمرات وأهمها وأكثرها فاعلية ، عقد في معهد زويمر بإحدى ضواحي كاليفورنيا ، واستعرضت فيه الطرق المجدية التي يمكن بها تنصير المسلمين بسرعة والتي يمكن بها أن يقضى بها نهائياً على الإسلام ، وكان في أحاديث الأعضاء تركيز على تعيين قسس وإقامة أساقفة في كل بلد من أبنائه المتكلمين بلغة أهله وعارفى عاداته ، وتقاليده وبينما كان بعض المتحدثين متفائلاً جداً يرى أن الإسلام قد وهن وأن القضاء عليه نهائياً قد أصبح قريباً جداً ، وجاء في كلام بعض آخر أن الإسلام صخرة عاتية وأن زعزعتها تحتاج إلى مجهود كبير وزمن أطول .

وكان للجميع تفاؤل وأمل مبعثه ضعف المسلمين وعدم وجود رابطة أو هيئة عامة لتوجيه الدعاة الإسلاميين ، وأخرجت أحاديث هذا المؤتمر في كتاب ضخم سموه الأنجيل والقرآن « Gospels and Quran » .



معهد مارتن :

- من ١٩٣٠ في لاہور حتى ١٩٣٨
- من ١٩٣٨ في لاندور حتى ١٩٤٠
- من ١٩٤٠ في عليكرة حتى ١٩٤٢
- من ١٩٤٢ في جبال پور حتى ١٩٦٦
- من ١٩٦٦ في لکھنؤ حتى ١٩٧١
- من ١٩٧١ في حیدر آباد حتى الآن

خاتمة

١ - أساليب التبشير المعاصر :

قد يكون التيار التبشيري في الوقت الحاضر أقوى وأنشط مما كان في أى عصر مضى ، ويتجمع لنشاطه وقوته أسباب عديدة كما أنه يأخذ صوراً عديدة أيضاً ، ولا ينسى مبشر في أى زمان ومكان أن يطعن الإسلام وينال منه - حتى بين الذين لا يعرفون الإسلام - وقد ذكرنا ذلك فيما سبق لأن - الإسلام يحبو بطبيعته ، ويؤاحم المسيحية في صمت ، والمبشرون يحرصون على أن يسئوا عليه هذا الطريق ، ونجمل صورة التبشير المعاصر فيما يلى :

١ - الغزو المسلح ، وهو منهج يتنافى حضارة القرن العشرين ، وأشبه بأعمال العصور الوسطى ولكن التيارات السياسية المعاصرة تجد في كبت الإسلام وتشجيع المسيحية أو حتى في مجرد كبت الإسلام فوائد لها ومكاسب تشهدها ، والدول الكبرى الآن لا تبالى أن تلوث سمعتها بالتعصب ، وتاريخها بالظلم وأيديها بدماء المسلمين الأبرياء .

الدولة الروسية يعنيها أن تنشر مذهبها الإلحادى الذى ينكر جميع الأديان ، ولكنها لم تستعمل قوتها المسلحة إلا ضد المسلمين ، وهى منذ بضع سنوات تحارب أفغانستان وتقتل مسلميها لغير ماسبب ، ومن قبل ذلك ابتلعت البلاد التركستانية وضيققت عليها في عبادتها وشعائرها ثم هى التى فعلت ما فعلت بالمسلمين في بلادها عقب الحرب العالمية الثانية^(١) .

ودعاة الشيوعية والكتاب المأجورون من روسيا يلتحفون اسم الإسلام ويفسرونه تفسيراً مادياً بحثاً يُغَيِّرَ حقائقه ويلوث مبادئه ، فجعلوا

(١) كتبنا فصلاً إضافياً عن هذه الأعمال في كتاب الشيوعية والشيوعيون فليرجع إليه من شاء .

حروبه ودعوته وثورات مجاهديه ترجع لأسباب مادية ومبادئ ماركسية ، قالوا دعوة الإسلام قامت لحسن توزيع الثروة ، والحروب الإسلامية كانت لإنصاف الفقراء من الأغنياء ، كأن الإسلام لم يدع إلى تصحيح العقيدة في الله ولا لإخلاص العبادة له ، - وهذا ليس تبشيراً بالمسيحية ولكنه ضعفة للإسلام وتمهيد طريق للمبشرين الذين يدعون إلى الرفق بالضعفاء .

وأمریکا أكبر دولة في العالم الآن وأقوى دولة ، تحارب مسلمي الفلبين الضعاف ، وتقيم بينهم الكنائس ودور التبشير ، وتهجر إلى الجزر الجنوبية المسلمة من قديم مسيحيين من الشمال وتبيء لهم المستوطنات كي تكون أغلبية البلاد مسيحية ، وهذه الجزر كما قدمنا في حديثها لا علاقة بينها وبين أمريكا ، ولم تكن لها علاقة بهولاندا ، وليس من الإنسانية ولا من مدنية العصر الحديث أن تسلم أرض بمن عليها من دولة لدولة أخرى ، ولكن هكذا تمارس أمريكا القوية القديرة جيروتها ضد جزر الفلبين الجنوبية لتكرهمهم على ترك الإسلام ولتضعف روح الإسلام ودعوته .

ولأمريكا عمل آخر لا ينسى ، وهو مساندتها لإسرائيل ضد العرب عامة والمسلمين خاصة فإسرائيل هدمت مساجد ودوراً للمسلمين وأحرقت المسجد الأقصى ، وهي آخذة في هدمه . وأمريكا راضية عما تعمل . وليس هذا تأييداً مباشراً للمبشرين ، ولكنه إضعاف للإسلام .

أما انجلترا فلها دور أكبر وأعنف وهو كتبها للإسلام واضطهادها المسلمين في جنوب أفريقية ، وهو عمل أصبح معروفاً في كل أنحاء العالم والمسلمون هناك يسمون سوء العذاب ولا منقذ لهم ، وعمل الانجليز تأييد مباشر للتبشير وقتل صريح للإسلام .

٢ - تعمل جماعات التبشير العديدة على توحيد جهودها ، وقد سبق الحديث على شيء من هذا ، وهو الآن يأخذ اتجاهاً أكثر جدية .

٣ - أنجح ماتعمله الجماعات التبشيرية الآن هو تبني الأطفال وتعليمهم مبادئ المسيحية وتنشئتهم عليها ، وهى تلتقط الأطفال الفقراء وأبناء المعوزين فتقدم لهم الغذاء والكساء والمسيحية ، ازاء الجماعات التى تفشت فى أفريقية استفادت الجماعات التبشيرية هناك كثيراً .

ويبدو أن دعاة التبشير يبالغون فى هذا الباب لأجل الدعاية والإعلان عن أعمالهم - وقد ذكرت مجلة المختار حديثاً عن مبشرة فى مصر سميت « ذات الرداء الرمادى » - فذكرت أنها تأتى كل يوم أحد من حى شبرا فى شمال القاهرة إلى مصر القديمة فى جنوبها حيث يترقبها « جلعو الزبالة » من الأطفال فتوزع عليه الكساء والأغذية ، وقد بنت لهم المساكن وأدخلتهم المدارس ، وسألت فلم أجد هناك شيئاً من ذلك ، ولكن السيدة المبشرة تأتى فعلاً وتعطى الأطفال بعض الحلوى وليس ثمة مساكن ممنوحة ولا مدارس مفتوحة .

٤ - الاستكثار من ترجمة الكتاب المقدس لنقله إلى البدائيين والقبائل المنسية فى جوف القارات وقد استطاع دعاة التبشير أن يضعوا أمجديات لهذه اللغات ، وأن يتفاهموا مع هؤلاء البدائيين ويدخلوهم المسيحية ، وهذا ميدان لا يشارك المبشرين فيه أى داعية آخر ، وقد دخلوا الغابات الكثيفة فى حوض نهر الميسيسبى ، وأواسط استراليا ، وبعض الجزر النائية فى المحيطات ، وجهدهم فى هذا يستحق التقدير .

٥ - بعض المسلمين الذين يعيشون فى البلاد الكبرى غير الإسلامية يتحول أبنائهم تلقائياً إلى المسيحية ، إذ تضع الفكرة الإسلامية ومبادئ الإسلام من أذهانهم وقلوبهم ، ذلك أنهم يدخلون مدارس هذه البلاد منذ طفولتهم فيلقنون مبادئ المسيحية وينشأون عليها وهم لا يعرفون عن الإسلام شيئاً .

وفى هذه البلاد تتزوج المسلمات من المسيحيين ويتزوج المسلمون

من المسيحيات ، وفي كلتا الحالتين يكون الأطفال مسيحيين ، وقد انقرض المسلمون الأفغانيون الذين نقلهم الانجليز إلى استراليا ونشأت منهم ذرية مسيحية ، وأولاد المسلمين هناك الآن عرضة لهذا الخطر ، وقد رأيت في إنجلترا مسلمات يتزوجن من الإنجليز المسيحيين وهو زواج فاسد ، وهن لا يعرفن أنه فاسد .

٦ - طعن الإسلام واختلاق معاييب وزرايات عليه ، وتطبيع في هذا نشرات وكتب وتسجل شرائط وتوجه دعوات صريحة إلى المسلمين أن يتركوا القرآن ويهتلوا بنور الإنجيل ، وقد يتستر أصحاب هذه النشرات وراء أسماء وهمية ، ولكنها كثرت الآن في العالم العربي كله .

٧ - يساند الصهيونيون المبشرين ، وتستعين مدارس التبشير والإرساليات بهم في غير بلد ، وهذا التعاون سببه أن الإسلام عدو للصهيونيين كما هو عدو للمبشرين ، ويستفيد الصهيونيون من حرب المبشرين للإسلام لأنه يساعدهم على التخلص من عدو للدود بنون تعب أو خسارات من جانبيهم .

٢ - موقف الإسلام الآن

في موقف الإسلام الآن أمور بارزة أكثرها مستحدث ، وكلها نحتم على المسلمين عامة والمعتنين بشأن الدعوة الإسلامية خاصة ، أن يتخذوا لهم مواقف إيجابية تحفظ عل الإسلام كيانه ، وتبث في نفوس المسلمين ثقافة صحيحة ، وتدفع شبهات الذين يهجمون عليه .

إنه بسبب سهولة المواصلات وتقارب العالم الآن أصبح يوجد في البلاد العديدة غير المسلمة جاليات إسلامية ، ويزداد عدد المسلمين يوماً بعد يوم في القارة الأوروبية والأمريكتين وأستراليا وأيضاً في آسيا وأفريقية .. وأكثر هذه الزيادة بسبب الهجرة ، وبعضها بسبب دخول الإسلام أفراد وجماعات من غير المسلمين .

هذه الزيادة المطردة سارة للمسلمين ، ولكنها تلقى عليهم واجبات ، وتتطلب منهم أعمالاً قبل كل شئ لا بد ل هؤلاء المسلمين من معلمين على حظ من الثقافة ، ففي هذه البيئات أعمال وعادات تختلف عما في بيئاتنا الشرقية ، والمسلمون بحاجة إلى المواءمة بين الإسلام وهذه البيئات فإن لم يكن بينهم مرشدون متفهمون اجترفتهم تيارات البيئات الجديدة .

والنشاء الجديد في هذه البلاد يحتاج لمن يعلمه اللغة العربية ومبادئ الإسلام . لأنهم يذهبون للمدارس تعلمهم لغة البلاد ودياناتها ، وبعضى الزمن سيكونون لا عرباً ولا مسلمين كما أحت من أستراليا طائفة الأفغان المسلمة التي استقدمها الانجليز لاستعمار الأراضي في جنوب أستراليا ، وخلف من بعدهم خلف انجليزى اللغة مسيحي الديانة ، فما يزيده الإسلام من جانب ينقصه من جانب آخر ، وفي هذا الصدد أسجل تقصير المسلمين ، فقد منحت الحكومة الأسترالية مسلميها أراضي لبناء مدارس لهم ومساجد كما منحتهم مساعدات

مالية ، وأيضاً وافقت على جعل اللغة العربية لغة ثانية في المدارس لمن يريد ، ولكن لا يوجد مدرسون وليس لدى المسلمين هناك قدرة مالية على بناء مدارس ومساجد أو دفع أجور للمدرسين يعلمون اللغة العربية والإسلام ، وظل الموقف يسجل قصور الإسلام ونقصه .

وفي جميع هذه البلاد ، وفي استراليا أكثر من غيرها - يوجد هجوم عنيف على الإسلام وتشويه لمعاليه وصعد للناس عنه ، وليس ثمة مدافعون .

ينقص الإسلام حينئذ أن تكون له رابطة عامة تنظم توجيه دعاته على نحو ما تفعل الكنيسة العالمية ، وتنقصه أن يُكوّن كلية عامة أو جامعة دعاة ، على نحو ما في الإرساليات الأمريكية ، وكلّيات الدعوة القائمة الآن ليست بذات قدرة كافية ، إذ ينقصها جميعاً درس اللغات الأجنبية ، ودرس الديانات الأخرى ومقابلاتها ، ودرس الثقافات الحديثة على نحو ما تفعل مدارس التبشير ، وما سبق في ذكر برامج الإرساليات الأمريكية .

ينبغي أن يكون للمسلمين مدرسة متدرجة تقبل طلابها بدءاً من القسم الثانوي أو الإعدادي تختار الطلبة اللاتقين عقلاً وخلقاً ، وتهيء لهم إقامة داخلية ومناهج دراسية تهيبهم تهيئة ناضجة سليمة لفهم الإسلام ، ودرس القرآن الكريم والسنة النبوية درساً عميقاً واعياً ، ثم يسلحون بوسائل العلوم الأدبية من علم النفس وطرق الدعاية وما إليها ... حتى يكونوا أئمة قادرين على بث الدعوة والملازمة بين قوعد الإسلام ومستحدثات الحياة المتجددة الدائمة التغير .

وكم أود أن يختار الأزهر بعضاً من خريجيه لبعثة داخلية يفرغون فيها من أعمالهم الرسمية ليدرسوا طرق الدعوة الإسلامية وليتلقوا علوماً جديدة تساعدهم في مهمة الدعوة أو على الأقل يدرسون لغات أجنبية ومزيداً من تاريخ الدعوات ومن علم النفس والاجتماع .

ولابد للمسلمين من رابطة إسلامية عامة ، يشترك فيها جميع الدول

الإسلامية ، وأن يكون لها استقلال وبعد عن تيارات السياسة ، حتى لا تتأثر بما ينجم بين البلاد الإسلامية من خلافات سياسية .

ولى أن يتم شيء من هذا أو يتم كله على كل جامعة إسلامية أن تقدم ما تستطيع الإسهام به فى نشر الدعوة الإسلامية والدفاع عنها والتخطيط لنشرها .

وأنتهل إلى الله تعالى فى ختام هذا الحديث أن يهبىء للإسلام عزة ونصراً إنه سميع قريب مجيب الدعوات .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى أرسله كافة للناس بشيراً ونذيراً ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .
(تم بحمد الله)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
١ - تعريف	٥
٢ - توطئة	٧
٣ - الخطوط العامة لتفلاق الديانتين	١١
٤ - عصر الاستكشافات وآثاره التبشيرية	٢١
٥ - النشاط البحري والتبشيري	٢٧

الفصل الأول

في

آسيا

أولاً : في الهند

١ - الإسلام والمسيحية في الهند	٣٣
٢ - دخول الإسلام الهند	٣٥
٣ - التبشير المسيحي في الهند	٣٩
٤ - كبار ناشري المسيحية في الهند	٤٠
٥ - حكم الإنجليز	٤٦
٦ - موقف الإسلام	٤٩

ثانياً : في متغوليا

١ - مقدمة تاريخية عن الإسلام والمسيحية في الدولة المغولية	٥١
٢ - الهجوم على بغداد	٥٧
٣ - التبشير في الدولة المغولية	٦١

ثالثاً : في الصين

١ - لمحة تاريخية	٧٣
٢ - الإسلام في الصين	٧٧
٣ - الفتوحات الإسلامية	٧٨

الصفحة

الموضوع

- ٤ - آثار المسلمين الأوائل ٨٠
- ٥ - الفتح المغولى ٨٢
- ٦ - أسباب قوة المسلمين وكثرتهم فى هذا العهد ٨٥
- ٧ - المسيحية فى الصين ٨٧
- ٨ - محنة الإسلام فى الصين ٩٦

رابعاً : فى ألدونيسيا والملايو

- ١ - تعريف وتقديم ١٠٣
- ٢ - الإسلام ١٠٤
- ٣ - نشاط التبشير ١١٣

خامساً : فى جزر الفلبين

- ١ - تعريف ١١٩
- ٢ - دخول الإسلام ١٢٠
- ٣ - الأسباب ١٢٣
- ٤ - السياسة الأمريكية ١٢٣
- ٥ - أثر الحرب العالمية الثانية ١٢٤
- ٦ - إستقلال الفلبين ١٢٥
- ٧ - تخطيطات إجرامية ١٢٧
- ٨ - خطوات التبشير ١٢٨

سادساً : فى سيلان

- ١ - تطور تاريخى ١٣١
- ٢ - الزعيم أحمد عرابى ١٣٢
- ٣ - التبشير ١٣٤

الفصل الثاني في أفريقية

أولاً : في شمال أفريقية

- ١ - مصر ١٣٩
- ٢ - شمال أفريقية ١٣٩
- (أ) الليبري ١٣٩
- (ب) الأدارسة ١٤١
- (ج) دولة المرابطون ١٤٢
- (د) دولة الموحدين ١٤٨
- (هـ) القرن السادس عشر الميلادي ١٥١
- (و) دور الأزهر الشريف في هذا العهد ١٥٥

ثانياً : في غرب أفريقية

- السياسة والتبشير ١٥٩

ثالثاً : في جنوب أفريقية

- ١ - تمهيد ١٦٥
- ٢ - محنة الإسلام في جنوب أفريقية ١٦٥
- ٣ - طبيعة الكشوف البحرية ١٦٥
- ٤ - كشف منطقة الكاب ١٦٧
- ٥ - سكان المنطقة ١٦٩
- ٦ - شخصيتان بارزتان ١٧٣
- ٧ - الإسلام في منطقة الكاب ١٧٩
- ٨ - موقف الإسلام الآن ١٨١
- ٩ - تطورات جديدة ١٨٤
- ١٠ - أحمد ديدات ١٨٦
- ١١ - صدى أحداث العالم الإسلامي ١٨٧

رابعاً : في داخل أفريقيا

- ١ - مقدمة ١٩١
- ٢ - عقبات أمام المسيحية ١٩٢
- ٣ - عقبات أمام الإسلام ١٩٥

خامساً : في شرق أفريقيا

- ١ - الدعوة الإسلامية ١٩٧
- ٢ - الاستعمار يضر وينفع ٢٠١
- ٣ - بلاد النوبة ٢٠٢
- ٤ - موقف المسيحية ٢٠٦
- ٥ - في الحبشة ٢٠٧

سادساً : الدعوات الإسلامية في أفريقيا

- ١ - المورغنية ٢١١
- ٢ - القادرية ٢١١
- ٣ - التيجانية ٢١٢
- ٤ - السنوسية ٢١٣
- ٥ - حركة المهدي في السودان ٢١٧
- ٦ - حركة أحمد القرين ٢٢١
- ٧ - موقف المسيحية من مصرع القرين ٢٢٢

الفصل الثالث

في

أوروبا

أولاً : غرب أوروبا

- ١ - لحظة تاريخية ٢٢٧
- ٢ - المسلمون في أسبانيا ٢٢٨

الصفحة	الموضوع
٢٢٩	٣ - حضارة الإسلام في أسبانيا
٢٣٠	٤ - حرية الدين
٢٣٢	■ - بداية التراجع الإسلامى
٢٣٣	٦ - محنة الإسلام العظمى
٢٣٥	٧ - حصاد هذا التعصب
٢٤٠	٨ - أحداث تاريخية
٢٤٤	٩ - تاريخ أسود للكاثوليكية
٢٤٥	١٠ - محاكم التفتيش

ثانياً : فى صقلية

٢٤٩	١ - لمحة تاريخية عن المسلمين فى صقلية
٢٥٠	٢ - سكان صقلية
٢٥١	٣ - الثقافة العربية
٢٥١	٤ - نهاية العرب
٢٥٢	٥ - الحكم النورماندى
٢٥٣	٦ - نهاية المسلمين فى صقلية

ثالثاً : فى شرق أوروبا

٢٥٥	١ - مقدمة
٢٥٥	٢ - بداية العثمانيين
٢٥٦	٣ - عثمان يدخل الإسلام
٢٥٦	٤ - خلفاء عثمان
٢٥٨	٥ - تسامح العثمانيين
٢٦١	٦ - لا إكراه فى الدين
٢٦٣	٧ - الخلافة الإسلامية فى العهد العثمانى
٢٦٥	٨ - بنو عثمان خلفاء المسلمين

الموضوع	الصفحة
٩ - العثمانيون في الشرق	٢٦٦
١٠ - جهود العثمانيين الإسلامية	٢٦٦
١١ - حركة الجامعة الإسلامية	٢٦٨
١٢ - إلغاء الخلافة	٢٧٠

رابعاً : في بلغاريا

١ - مقدمة	٢٧٣
٢ - أسباب هيئة	٢٧٣
٣ - مؤتمر دولي	٢٧٥
٤ - نهاية محزنة	٢٧٥

الفصل الرابع

تنصير المسلمين ومؤتمرات التنصير

١ - تنصير المسلمين	٢٧٩
٢ - صحوة التبشير في الشرق	٢٨٠
٣ - المؤتمرات الكبرى	٢٨٥
٤ - أشهر المؤتمرات المسكونية	٢٨٧
١ - مؤتمر القاهرة	٢٨٧
٢ - في مصر	٢٩٠
٣ - مؤتمر أدنبرا	٢٩٣
٤ - مؤتمر لكنو	٢٩٦
٥ - معهد هنري مارتن	٢٩٩
٦ - مؤتمر كاليفورنيا	٣٠١

خاتمة

١ - أساليب التبشير المعاصر	٣٠٣
٢ - موقف الإسلام الآن	٣٠٧

رقم الإيداع ٢١٤٠ لسنة ١٩٨٩
الترقيم الدولي ٤ - ١٦ - ١٥٩٥ - ٩٧٧



جامعة الدول العربية
ARABIAN GULF EST.

١٩٥ شارع ٩٩ ويلز - قطر
ت ٢٤٧٦١٨٣ - ٢٤٧٦٢٠٦
فكس ٢٢١١٢

في هذا الكتاب

- تصوير صادق أمين لمعارك التبشير والإسلام .
- حديث مستفيض عن تمثي الدعوة الإسلامية في جوف القارتين الآسيوية والأفريقية ، ومواقف التبشير لصدها .
- كيف دخل الإسلام جزر المحيط الهندي - سريلانكا وأندونيسيا وجزر الفيليبين .
- كيف تحول المغول الوثنيون إلى الإسلام رغم إغراءات المبشرين .
- مناظرات عديدة بين دعاة الإسلام والمبشرين .
- مؤتمرات التبشير الكبرى ومخططاتها نحو الإسلام .
- الجهود التي تبذل لتصوير المسلمين .
- صور الحضارة التي منحها المسلمون أوروبا ، وما حصرته أوروبا بخروج المسلمين منها .
- صور التعذيب العديدة التي صبت على المسلمين في عصور عديدة .
- أعمال الأتراك العثمانيين الإسلامية .
- أشهر الجماعات التي بشرت بالإسلام :
الستوسيون - المهدي السوداني - المبرغني - أحمد القرين أعمال
المرابطين والموحدين .
- كتاب لا يستغنى عنه داعية ولا مؤرخ إسلامي ولا دارس لمقارنة الدعوات ، وتاريخ الدعوة الإسلامية ولا من يعنيه معرفة نشاط المبشرين .



الجامعة العربية
ARABIAN GULF EST.

١٤٥ خارج ٢٦ يوليو - القاهرة
ت ٢٧٧١٢٣ - ٢٧٧٢٠٦
نفس ٢٣١١٦